سلسلة من أعلام التاريخ

ساعة مع العارفين

(الجزء الأول)

طبعة مزيدة منقحة

سعيد الأعظمي الندوي

الناشر:

مكتبة الفردوس مكارم نغر، لكناؤ، (الهند)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

الناشر:

مكتبة الفردوس، مكارم نغر، لكناؤ الهند

اهتم بالطبع

إرشاد أحمد الأعظمي الندوي

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

ساعة مع العارفين

الجزء الأول

مقدمة الطبعة الثانية [1]

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما بعد :

فإن هذه الأمة العريقة المجيدة .. هي بحق أعظم أمم الأرض ، حتى في أوقات الضعف والهزائم ، لا تجدها إلا كذلك لأنها اعترفت بربها ، وارتبطت بالدين الذي ارتضاه الله للناس إلى يوم القيامة ، وختم به جميع الأديان والرسالات ، وضمن له البقاء أبد الدهر على حالته كيوم أنزل ، لا يخلق ولا يبلى ، يموت أقوام ويولد آخرون ، ويرفع أقوام ويخفض آخرون ، وهو كما هو لا يتبدل منه حرف ، ولا تناله أيدي المزورين وأهل الأهواء ، كما حدث مع الديانات السماوية السابقة .

لذلك وصف الله سبحانه وتعالى هذه الأمة الفريدة بين أمم الأرض بقوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١١٠﴾ ﴾ [2]

حتى في أوقات هوان المسلمين وضعف إيمانهم ، فإن المسلم الواحد ، الذي يموت على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً

---

[1] صدرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب من دار المقطم للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، سنة ١٤٢٥ هـ باعتناء فضيلة الأخ الكريم الأستاذ محمد خالد بن ثابت ، وهذه هي المقدمة التي قدم بها الأخ الفاضل لطبعة الكتاب الثانية ، وقد صدرت الطبعة الأولى من دار الاعتصام بالقاهرة ، في عام ١٩٧٨م .

[2] سورة آل عمران الآية : ١١٠ .

رسول الله خير من ملء الأرض ممن لا يقرّون بها ، وإن كانوا أقوى أهل الأرض وأوسعهم ثراء وأقدرهم على عمارة الدنيا وزخرفتها ...

فيوم القيامة يكونون أهون الناس وأذلهم ، وعندئذ تتكشف قيمة هذه الأمة بسبب هذه الكلمة " العظيمة " التي استقرت في قلوب أبنائها :

" لا إله إلا الله ، محمد رسول الله "

هذه الأمة نبيها محمد ﷺ ، وقائدها محمد ﷺ ، وقدوتها محمد ﷺ ، وشفيعها يوم الهول العظيم محمد ﷺ خاتم النبيين وحبيب رب العالمين .

وكتابها ودستور حياتها القرآن كلام الله الحق .

وقبلتها واحدة ، تتجه إليها ـ من أيِّ مكان ـ في صلاتها .

هذه الأمة جمع الله لها أسباب القوة والسيادة على سائر الأمم .

في أوقات يغلب على أبنائها حب الدنيا ، ويضعف الإيمان فتستذل الأمة لأعدائها ، لكن تأتي أوقات أخرى تتماثل للشفاء ، وتدب فيها العافية ، فتقوم من جديد لتسود على الأمم ، وتتولى مهمتها في قيادة البشر ، ونشر معالم الحق والعدل والأمن في ربوع الأرض .

وكما استخرج الله البشرية من الظلمات إلى النور بسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، جعل ورثته من العلماء

العاملين والأولياء الصالحين يقومون بنفس الدور في إخراج الناس من ظلمات الجهالة والغرق في بحار الدنيا إلى أنوار الإيمان والاتباع لسيد ولد عدنان ﷺ.

لذلك صح عن الحبيب محمد ﷺ قوله: "العلماء ورثة الأنبياء[1] .." والأنبياء لم يورِّثوا أممهم دنيا أو مالاً، ولكن ورَّثوهم العلم. لذلك كان قادة الأمة في كل زمان هم العلماء العاملين الذين يعملون بالعلم، فكان نتيجة عملهم بالعلم أن اصطفاهم الله وأمدهم بمدده الذي لا ينفد.

الإمام أبو حامد الغزالي[2] ـ مثلا ـ كان عالماً لا يدانيه في العلم أحد في زمنه، ولكنه انتبه فجأة على حقيقة أزعجته وأقضت مضجعه وهي أنه لا يعمل بالعلم الذي علم، فكانت النتيجة أن

---

(1) أخرجه أبوداؤد في سننه، باب في فضل العلم، أول كتاب العلم، رقم الحديث(٣٦٤١)عن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فجاءه رجل، فقال: يا أبا الدرداء! إني جئتك من مدينة الرسول لحديث بلغني أنك تحدِّثه عن رسول الله ﷺ ما جئت لحاجة، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة العلماء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهمًا، وإنَّما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

(2) العالم الألمعي والفاضل اللوذعي، متكلم العصر، محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الغزالي، حجة الإسلام، ولد بطوس سنة ٤٥٠ هـ، قرأ في صباه طرفًا من الفقه ثم سافر إلى جرجان واستفاد من أهلها، وارتحل إلى الحجاز، وجد واجتهد، قال الإمام محمد بن يحيى: الغزالي هو الشافعي الثاني، أقام على التدريس مدة بالمدرسة النظامية ببغداد، توفي سنة ٥٠٥هـ، من أهم تصانيفه: إحياء علوم الدين، و، الخلافة، و، منهاج العابدين.

هجر الدنيا والتدريس والأهل والأولاد، وخرج من بغداد[١] سائحاً على طريقة أهل التصوف لمدة عشر سنوات، فتح الله عليه فيها فتحا عظيماً لمّا أخلص في الطلب، وبذل في سبيله الغالي والنفيس.

وعاد الإمام الغزالي من رحلته هذه رجلاً آخر، عاد واحداً من رباني هذه الأمة وهداتها ومربيها، فكان كتابه إحياء علوم الدين حقاً إحياء للدين في أمة محمد ﷺ بعد أن كادت تندرس معالمه.

وصفه الإمام النووي[٢] بقوله: "كاد الإحياء يكون قرآنا" وقالوا فيه: "من لم يقرأ الإحياء ليس من الأحياء" ... وغير ذلك من عبارات الثناء على هذا العمل الفذ الكبير.

كم كان عظيماً دور الإمام أبي حامد الغزالي في إحياء الدين في الأمة حتى قامت من كبوتها بعد أن كانت ممزقة بالأهواء، ذليلة باتباع النفس والشهوات؟

وكم تكرر هذا في تاريخنا على أيدي رجال أفذاذ مخلصين أمثال ساداتنا: الشيخ عبد القادر الجيلاني[٣]، والشيخ

---

[١] عاصمة العراق، اتخذها الخلفاء العباسيون مركزاً لخلافتهم فكانت بلد العلم والمعرفة.

[٢] اقرأ ترجمته في الجزء الثاني مفصلة.

[٣] الإمام عبد القادر الجيلاني ولد سنة ٤٧٠ هـ في جيلان، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، دخل بغداد سنة ٤٨٨هـ، وقرأ على أساتذة الفن، ومهر فيها حتى حصلت له اليد الطولى، كان مجاب الدعوة، دائم الذكر، سريع الدمعة، توفي سنة ٥٦١هـ.

أبو الحسن الشاذلي[١]، والشيخ أبو مدين[٢]، والشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي[٣]، والشيخ أحمد بن إدريس[٤]، والشيخ أحمد الفاروقي السرهندي[٥] وغيرهم وغيرهم.

لذلك يقول النبي ﷺ: "يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها[٦]".

من يراهم، ويتعرف عليهم ـ أدنى معرفة ـ يرى قدر هذه الأمة عند ربها أن يبعث فيها أمثال هؤلاء ... كأنهم أنبياء يمشون على الأرض، إلا أنه لانبي بعد النبي الخاتم ﷺ.

---

[١] علي بن عبدالله بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز الشاذلي المغربي، أبو الحسن الشاذلي المغربي، رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، ولد في بلاد غمارة، سنة ٥٩١هـ بريف المغرب، وتفقه وتصوف بتونس، وسكن شاذلة بتونس، فنسب إليها، كان ضريراً، له رسائل في التصوف، توفي ٦٥٦هـ.

[٢] شعيب بن الأحسن الأندلسي التلمساني، أبو مدين صوفي، من مشاهير الزهاد، أصله من أندلس، أقام بفاس، وسكن "بجاية" وكثر أتباعه حتى خافه السلطان المنصور، وتوفي بتلمسان سنة ٥٩٥ هـ.

[٣] محمد بن بهاء الدين بن لطف الله الصوفي الحنفي، ويقال له بهاء الدين زاده، فقيه متصوف، جمع بين آداب الطريقة وعلوم الشرع، له رسائل في التصوف، توفي سنة ٩٥٢ هـ.

[٤] أحمد بن إدريس الحسني، أبو العباس، صاحب الطريقة الأحمدية، المعروفة في المغرب، من ذرية الإمام إدريس بن عبد الله المحض، ولد في ميسور من قرى فاس ١١٧٢ هـ، وقرأ هنا التفسير والحديث والفقه، وانتقل إلى مكة سنة ١٢١٤ هـ، فأقام نحو ثلاثين سنة، ورحل إلى اليمن سنة ١٢٤٦هـ، ومات سنة ١٢٥٣ هـ.

[٥] ستأتي ترجمته ضمن عنوان مستقل في هذا الكتاب.

[٦] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مأة سنة من يُجدِّد لها دينها. (أخرجه أبو داؤد في أول كتاب الملاحم من سننه، باب ما يذكر في قرن المأة) رقم الحديث (٤٢٩١).

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا ـ اليوم : "ساعة مع العارفين" يأخذ بنا في رفق إلى الهند ... قارة الإسلام العريقة ، التي ربما يجهل كثير من المسلمين تاريخ الإسلام بها ، وما أخرجت من رجالات الإسلام العظام الذين أضاءوا سماء الدنيا ، ولا عجب فهم شموس المعارف ومنائر الهدى .

اشتمل الكتاب على نفر قليل فقط من عظماء رجالات الإسلام في الهند ، فإن عددهم لا يتسع له كتاب ، بل يحتاج إلى مجلدات ومجلدات ، وهذا شأن الدين ، أينما حلَّ تفجرت الأرض من تحتها بكنوز العلم والخير والبركة .

ولعل الله سبحانه وتعالى يوفق لمزيد من الكتابات القيمة ـ بلغة الإسلام " العربية " التي تقدم لأبناء الأمة في المشارق والمغارب أبرز العلماء العاملين والأولياء الصالحين بالقارّة الهندية عبر القرون ، وكذلك في غيرها من ديار الإسلام ، فإن الصادقين تظل سيرهم من بعدهم تعبق جو الدنيا بروائح العطر والياسمين ، وتربي الناس على الإيمان واليقين ، وتبث فيهم العزيمة على الأعمال الزاكيات الصالحات .

هم بحق رياحين الدنيا ، ومصابيحها في حالك الظلمات ، وهم القادة الهداة ، بذكرهم تتنزل الرحمات ..

بدأ المؤلف بالإمام الجنيد سيِّد الطائفة ومقدم الجماعة ، ومع أن الجنيد كان بغداديًا إلا أن في ذلك إشارة لا تخفى على القارئ ، وهي أن من جاءوا في الفصول التي بعده هم على نفس الطريق ، طريق التصوف الصادق الذي هو طريق تزكية الأنفس ، ودلالة الخلق على الخالق جلَّ وعلا ، وحسن متابعة النبي صلوات الله وسلامه عليه .

في هذا الكتاب نتعرف على الشيخ الكبير مجدد الألف الثانية الإمام أحمد الفاروقي السرهندي وخلفائه ومدرسته التي أثمرت الخير الكثير الكثير ، فكان من ضمن ما أثمرت شبيه عمر بن عبد العزيز[١] ونور الدين محمود[٢]: السلطان العادل محمد أورنك زيب[٣] .

---

[١] خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ولد سنة ٦١هـ ، كان حفيد مروان ، وكانت أمّه ـ أمُّ عاصم بنت ابن عمر بن الخطاب ، تولى منصب حاكم المدينة المنورة في زمن وليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ، نشأ مثل فتيان مُنَعَّمين ، فكان يعرف بمشيته ، لكن لما تَسَلَّم زمام الحكم تحوَّل كلّياً إلى حياة جديدة ، وجعل يعيش عيشة رجل راكب استظل تحت شجرة ثم راح ، قام بمآثر علمية وإدارية زمن خلافته ، ولفتَ انتباه الشيخ أبي بكر بن حزم قائلاً: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، توفي سنة ١٠١هـ ، ومدة خلافته سنتان وخمسة شهور .

[٢] نور الدين محمود ، الملك العادل ، سلطان الشام ، كان من أحلى أمانيه تحرير بيت المقدس من براثن الغاصبين ، وقد هزم الصليبيين في قلعتي حارم وبانياس هزيمة نكراء ، توفي سنة ٥٦٩هـ عن عمر يناهز ٥٦ سنة ، قال ابن الجوزي : جاهد الثغور وانتزع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة ، وكانت سيرته أصلح من كثير من الولاة ، والطرق في أيامه آمنة ، والمحامد له كثيرة .

[٣] اقرأ ترجمته في هذا الكتاب بشيئ من التفصيل .

وما أدراك ما محمد أورنك زيب ؟!

ثم نلتقي بالإمام المجاهد الشهيد السيد أحمد بن عرفان الذي أوقد جذوة الجهاد ، وقاد المجاهدين حتى لقي ربه في أشرف ميدان ، ميدان الشهادة .

نشأ في بيئة كابرًا عن كابر ، ورضع لبنها الصافي ، لكنه عندما شب استقل عنها ، ربما بحثا عن طريق آخر أكثر إرضاءًا لنفسه ، وربما نفورًا من بعض مظاهر الفساد التي لحقت بالتصوف في عصره !

على أي حال ، فإننا نلاحظ بعض الإبهام في هذه الناحية سواء في هذا الكتاب الذي بين أيدينا ، أو فيما كتب الشيخ أبو الحسن الندوي عنه في كتابيه : " إذا هبت ريح الإيمان " و " الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف ".

فهل كان السيد أحمد متأثراً بالدعوة الوهابية التي نشأت في جزيرة العرب وأصبحت تُشرف على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ؟

يبدو أن هذا ما حدث فعلاً ، وإن كان لمّ يأخذ عن الوهابية حربهم على المسلمين ممن كانوا يعيشون البدع والمنكرات ، لأنه قام فعلاً بجهاد المستعمر الإنجليز في الهند .

لكن محاولة تطبيق الأفكار الوهابية بالقوة على المسلمين في " بيشاور[١] " كانت السبب في النكبة الرهيبة التي تعرض لها السيد ورجاله ، إذ قام عليهم الناس ففتكوا بهم فتكًا شديداً ، وكانت هذه النكبة هي السبب الأكبر في الهزيمة التي مني بها أمام جيش السيخ ، والتي استشهد فيها .

ويؤيد هذا الرأي أن صاحبه الشيخ إسماعيل الشهيد له كتاب اسمه " رسالة التوحيد[٢] " يشتمل على ترديد واضح لعقائد الوهابية في تشريك وتكفير المسلمين بسبب زيارة الأضرحة والتوسل بأصحابها .

هذا مع أن السيد أحمد بن عرفان لم يكن بحال طالب دنيا ولا ساعيًا لملك ، وإنما كانت نيته صادقة في جهاد أعداء الله ، وجمع شمل الأمة ، وإن كان أخطأ الطريق إلى ذلك باتباع عقائد المبتدعة والخوارج ، عندما انخدع بظاهرهم وما ادعوه لأنفسهم من أن دعوتهم دعوة التوحيد[٣] .

لكن الإمام اعتذر بعد ذلك بأجمل كلام ، مما ينم عن صفاء معدنه ، ونيته الحسنة ، وصدقه مع الله فيقول رضي الله عنه :

---

[١] مدينة كبيرة في باكستان ، كانت محطة للقوافل بين الهند و أفغانستان ، وأرضها جيدة ، كثيرة البساتين ، وفيها من المساجد والخانات .

[٢] ألف الشيخ إسماعيل الشهيد كتاباً باسم " تقوية الإيمان " في الأردية قام بتعريبه سماحة العلاّمة أبوالحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله) بإيعاز من الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي صاحب "أوجز المسالك إلى المؤطا للإمام مالك" وهو مطبوع باسم " رسالة التوحيد " .

[٣] هذا رأي قد لا يتفق والحقائق التاريخية .

" وأعود فأقول : إن كان هناك تقصير وقع مني نحو الدين ولا أدريه ، فيجب أن ينبهني عليه هؤلاء الناس بالحكمة والموعظة الحسنة .. وأسأل علماء الوقت الحاضر أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف ـ للناس عامة ولهذا العاجز خاصة (يقصد نفسه) ـ والنهي عن المنكر ، ويدعونا إلى الطريق المستقيم ، وكل مشكلة أو اعتراض يخطر ببالهم أو يتلجلج في صدورهم يجب أن يشافهوني به ، ويقيموا عليه الدليل الشرعي ، ليتمكن هذا الفقير من إصلاحه والانتقال من عبادة النفس إلى عبادة الله وحده ، وهو مستعد للتوبة من كل ما يخالف أمر الله ورسوله في قوله وعمله ، ويثوب إلى الطريق الصحيح ، ولكن الذين يثيرون الخلاف وينالونني بالاعتراض ، إذا لم ينبهوني على ما أقترفه من ذنب ، ولم يحدثوني في هذا الموضوع ، فسوف يعود وبال ذلك عليهم ، وهم مسؤلون عنه ... " انتهى .

رضي الله عن الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد ، فهو يربينا على الرجوع إلى الحق ، كما ربّانا من قبل على حب الجهاد وبذل النفس والمال في سبيل الله .

وهذه فضيلة أخرى تضاف إلى فضائله ، ودرس جديد من دروسه البليغة ؛ ما أحوجنا إلى تعلّمه والعمل به .

فكم من الناس ، إذا اكتشف أحدهم أنه قد خرج عن طريق الله ورسوله ، وأوغل في مسالك الباطل ، وأراد أن يتوقف ليعود إلى الحق تمردت عليه نفسه ، وخوفته من الناس ، ولو كان مراعيا لله وحده ما عبأ بالناس ، ولا بشيء !!

حينئذ يمده الله بعونه وتأييده ..

اللهم أجز الإمام الشهيد السيد أحمد بن عرفان خير الجزاء عما قدَّم وبذل ..

وكذا المؤلف ، الذي منحنا ـ بكتابه هذا ـ ساعات جميلة لا تنسى ، حلّقنا فيها بأرواحنا فوق السحاب ، في أجواء الطهر ، ونعيم القرب ممن أحبهم الله ، فأجزه اللهم خير الجزاء ، ووفّقه إلى المزيد من هذه الكتابات الطيبات الزاكيات المثمرات ..

وصلِّ اللهم على الحبيب الأعظم والنبي الأكرم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه ومحبيه .

وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

محمد خالد ثابت

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي الكتاب

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ...

وبعد .... فهذا الكتاب مجموعة من لمحات سريعة عشتها مع رجال من تاريخ الإسلام ، وساعات حانية من الحب والحنان ، توخيتها في هؤلاء الأعلام من أصحاب القلوب والإيمان الذين يعتبرون بناة التاريخ وصانعي الأجيال ، وكان القصد من ذلك إثارة جوانب روحية تشف بحب خالص لله ولرسوله ، فلم أبحث عن جوانب كثيرة أخرى لهذه الشخصيات كانت موضع اهتمام لدى أصحاب التاريخ والتراجم .

إنني أعتقد أن حاجة الشباب المسلم اليوم إلى دراسة هذا الجانب المهم في حياة العظماء والأبطال ، والتركيز عليه لا تقل عن حاجته إلى إشباع النواحي الفكرية بالعلم والثقافات المتنوعة ، إذ أن الجانب الفكري عندما يلتقي مع الجانب المعنوي يرتفع بصاحبه إلى أسمى درجة من الخلق العظيم ، وأعلى منزلة من القيم الروحية حيث تتضاءل أمامه الدنيا وما فيها من حطام ، يتضاءل في عينه الجاه والمال والمنصب والشرف

العاجل ، وإنما هو ينظر بعين بصيرته إلى لذة ونعيم يعيشهما في الدنيا ويرتجيهما في الآخرة .

والواقع الذي لا ينكره أحد له أدنى معرفة بحقيقة الحياة أن سعادة الأولى والآخرة إنما تتحقق بالجمع بين الجانبين الروحي والمادي ، أو بالتقاء حسنة الدنيا مع حسنة الآخرة ، الأمر الذي لا يدرك بمجرد العلم وكثرة المعلومات وتكدس الثقافات والتفنن في مرافق الحياة ولذائذ الدنيا ، بل إن ذلك يتحقق بالجمع اللائق المتزن بين اهتمامات الإنسان بنفسه وبربه معه .

ولنا في حياة رجال الله الذين جمعوا بين العلم والإيمان ، وعاشوا مع الله ومع الناس في وقت واحد ، لنا في حياتهم غذاء دسم لتربية القلب وتنمية العواطف .

هذه الثقة هي التي دفعتني إلى جمع هذه الساعات في هذا الكتاب ، وهو الجزء الأول الذي يحتوي على ساعات من رجال الهند إلى أنني بدأت هذا الجزء بساعة مع الجنيد البغدادي تيامنًا وتفاؤلا ، عسى أن ينفع الله بذلك دارسيه في مجال البحث عن الحب الصادق الذي يخالط بشاشة قلب المسلم فيصنع المدهشات ، ويحير الألباب .

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]

---

[1] سورة يوسف الآية : ٢١ .

و بالمناسبة يجب علي أن لا أنسى ما لصديقنا الأعز فضيلة الأستاذ الدكتور محمد الحسني [١] رئيس تحرير مجلة البعث الاسلامي من عناية بهذا الموضوع، وإشارات مفيدة حول كتابته ونشره في كتاب مستقل.

وأشكر الأخ العزيز الأستاذ عبد الباري شمس الحق القاسمي [٢] الذي ساعدني في طبع أكثر مواد هذا الكتاب بآلته الكاتبة، فجزاه الله خيراً.

وإن أنس فلن أنسى ما لأخي العزيز الأستاذ محمد فرمان الندوي، من مجهود خاص بالتعليق المناسب، وترجمة الشخصيات التي تضمن ذكرها أثناء تراجم العارفين المذكورين في هذا الجزء الأول من الكتاب، و إنني إذ أشكر الأخ الفاضل على إسداء هذه المنة إلي،

١ـ أديب العربية الكبير ومنشئ مجلة البعث الاسلامي الشهيرة الغراء، توفي سنة ١٩٧٩م، في سن مبكرة من عمره.

٢ـ هو ينتمي إلى ولاية بهار وقد كتب هذا الكتاب أول مرة على الآلة الكاتبة. وكان يدرس في القاهرة، في جامعة الأزهر يوم صدر هذا الكتاب لأول مرة من دار الاعتصام بالقاهرة.

أدعـو الله سبحـانه وتعالى أن يبارك في حياتـه وأعماله الـحسـنة و يـزيـده عـلـما وعملا وفضلا ومعرفة ، ويجزيه بأحسن ما يجزي به عباده المخلصين العاملين .

والحمد لله أولاً وأخيراً ، عليه توكلت وإليه أنيب .

مكتبة الفردوس
مكارم ناغر ، بروليا
لكهنؤ (الهند)

سعيد الأعظمي الندوي
٠٤/٠٦/١٤٢٨هـ
٢٠/٠٦/٢٠٠٧م

أبو القاسم الجنيد بن محمد

سيد الطائفة ومقدم الجماعة (٢١٥هـ - ٢٩٧)

كان أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد ، سيد الطائفة ومقدم الجماعة ، إمام أهل الخرقة وشيخ الطريقة ، وعلم الأولياء في عصره ، وزعيم العارفين في زمنه ، اجتمع له العلم والمعرفة ، والفقه والإيمان ، والبصر والبصيرة ، فأصلح ما فسد ، وأقام ما اعوج ، وجبر ما انكسر، وجمع ما تفرق ، ولمَّ ما انتشر ، حتى فاق العلماء والحكماء والمصلحين كلهم في ذلك الزمن ، وانفرد بالإمامة والسيادة في العلم والمعرفة ، وانتهت إليه الرئاسة في الفقه والإيمان ، قال جعفر الخلدى[1]:

"لم نر في شيوخنا من اجتمع له علم وحال ، غير الجنيد ، إذا رأيت علمه رجحته على حاله ، وإذا رأيت حاله رجحته على علمه ".

---

[1] جعفر بن محمد بن نصر ، أبو محمد الخلدي ، شيخ الصوفية في أيامه ببغداد ، وأعلمهم بالحديث ، كان خوّاصاً يبيع الخوص ، نسبته إلى قصر الخلد ببغداد ، ولم يكن منه ، وإنَّما دعاه الجنيد بالخلدي ، حج ٥٦ حجة ، مولده ووفاته ٢٥٣ـ ٣٤٧هـ ببغداد .

وعن أبي العباس بن سريج[١] أنه تكلم يومًا فأعجب به بعض الحاضرين ، فقال ابن سريج : هذا ببركة مجالستي لأبي القاسم الجنيد رحمه الله .

وقال أبو القاسم الكعبي المتكلم المعتزلي[٢] : ما رأت عيناي مثله ، كان الكتبة يحضرونه لألفاظه ، والفلاسفة لدقة معانيه والمتكلمون لعلمه ".

قال الخلدي : "قال الجنيد ذات يوم : ماأخرج الله إلى الأرض علمًا وجعل للخلق إليه سبيلا إلا وقد جعل لي فيه حظًا ونصيبًا .

أما عبادته وصلواته فكثيرة جدًا ، قد تستحيلها العقول وتستكثرها ، ولكن الذي لا مرية فيه أنه تذوق العبادة فأصبح يشعر بلذة الاتصال بالله سبحانه وتعالى في كل حين ، ويحس بحلاوة اللقاء معه ، واللقاء لا يروق أمام الناس مثل ما يروق في الخلوة ، فكان يخلو بنفسه ساعات طوالا ويناجي الله تعالى ويتقرب إليه ، قال الخلدي : "وبلغني أن الجنيد كان في سوقه ، وكان ورده في يوم ثلاث مأة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة ، وسمعته يقول : ما نزعت ثوبي للفراش منذ أربعين سنة ، ومكث

---

[١] أحمد بن عمر بن سريج البغدادي ، فقيه البصرة والكوفة ، ولد سنة بضع وأربعين سنةً ، تفقه بأبي القاسم عثمان بن بشار الشافعي ، وبه انتشر مذهب الشافعي ، توفي سنة ٣٠٦ هـ .

[٢] عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي ، من بني كعب ، البلخي الخراساني ، أبو القاسم ، أحد أئمة المعتزلة ، كان رأس طائفة منهم ، له آراء ومقالات في الكلام انفرد بها ، وهو من أهل بلخ ، أقام ببغداد مدة طويلة ، ولد سنة ٢٧٣هـ وتوفي سنة ٣١٩ هـ ببَلْخ .

(الجنيد)عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، ويصلي كل ليلة أربع مأة ركعة ".

قال أبو الحسن المحلبي[١] : قلت للجنيد : ممن استفدت هذا العلم ؟ قال : " من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة ، وأومأ إلى درجة في داره .

قال إسماعيل بن نجيد[٢]: كان الجنيد يجيء كل يوم إلى السوق فيفتح حانوته فيدخل ويسبل الستر ويصلي أربع مأة ركعة .

وقال أبو بكر العطار[٣] : "حضرت الجنيد عند الموت في جماعة من أصحابنا ، فكان قاعدًا يصلي ويثني رجله كلما أراد أن يسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله فثقلت عليه حركتها ، فمدَّ رجليه وقد تورمتا ، فرآه بعض أصدقائه فقال: ما هذا يا أبا القاسم ؟ قال: هذه نعم الله ، الله أكبر ، فلما فرغ من

---

[١] أحد تلامذة الشيخ الجنيد ، أما نسبته إلى المحلبي فهي المحلبية بليدة بين الموصل وسنجار وقال صاحب كتاب أخبار الصوفية والزهاد من تاريخ بغداد رقم الصفحة ، ١٢٢ ، الأصل هنا أبو الحسن المحلّمي ، وهذه النسبة إلى محلم بن تميم ، وهو المشهور بالانتساب إليه .

[٢] إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف السلمي النيسابوري ، أبو عمرو ، زاهد عابد ، له جزء في الحديث ، قال ابن الجوزي : كان ثقة ، وكان شيخ الصوفية في نيسابور ، توفي بمكة ٣٦٦هـ ، من كلامه : من أظهر محاسنه لمن لايملك ضره ولا نفعه فقد أظهر جهله ، وكان يقول : من لم تهذبك رؤيته فاعلم أنه غير مهذب .

[٣] محمد بن الحسن بن يعقوب العطار ، أبو بكر ، عالم بالقرآآت والعربية من أهل بغداد ولد سنة ٢٦٥ ـ وتوفي ٣٥٤ هـ .

صلاته ، قال أبو محمد الجريرى[1] : لو اضطجعت ؟ قال : يا محمد! هذا وقت يؤخذ منه ، الله أكبر ، فلم يزل كذلك حتى مات ".

أرأيت هذا الانهماك في الصلاة والاشتغال بالدعاء والعبادة ، إن ذلك قد لا يتيسر لكثير من العباد الزاهدين ، فليس ذلك إلا فضل الله ، يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم ، وبهذه النفس الزكية ، والقلب الصافي يستطيع الرباني أن يوجه المجتمع ويربيه على التقوى ، والمعاني الإنسانية السامية ، والأخلاق الكريمة الفاضلة ، وبهذا اللون من العيش يقدر على تخريج جيل مؤمن قوي الإيمان ، قوي العقيدة ، راسخ العلم ، كبير النفس ، زكي القلب ، وهناك يقوم مجتمع إسلامي تسود عليه روح التقوى والإنابة إلى الله في كل شيء وتستولي عليه النزعة الدينية السليمة التي تذوب أمامها الفروق ، وتتلاشى في نظرها الحدود والثغور والألوان والأوطان ، فلا ترى الفضل إلا في موضع واحد ، هو القلب إذا امتلأ بتقوى الله ، واطمأن بذكره .

---

[1] أبو محمد الجريرى اسمه أحمد بن محمد بن الحسين ، كان من كبار أصحاب الجنيد ، وصحب أيضًا سهل بن عبدالله التستري ، وهو من علماء مشايخ القوم ، أقعد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله وصحة علمه ، مات سنة إحدى عشرة وثلاث مأة ، قال الجريري : أول الأشياء على الله تعالى ثلاثة : ملكه الظاهر ، ثم تدبيره في ملكه ، ثم كلامه الذي يستوفي كل شيء ، وقال : الرجاء طريق الزهاد ، والخوف سلوك الأبطال ، وقال أيضًا : فمن اكتفى بالله صلحت سريرته ، ومن اتقى ما نهى عنه استقامت سيرته ، ومن احتمى مالم يوافقه ارتاضت طبيعته .

وعاش الجنيد في بغداد يصف الدواء للقلوب المرضى، ويدعو الناس إلى ما يصلح فسادهم ويقيم عوجهم، ويجعلهم قائمين بأمر الله، متمسكين بحبله دون أن تعبث بهم الأهواء وتضلهم الاتجاهات والميول الزائفة، فأنار الجوانب المظلمة في حياتهم، وألان القلوب القاسية بتوجيه حلاوة الإيمان ولذة الحنان إليها، وأقام مجتمعًا مثاليًا ملأ الأجواء بنور الإيمان والعقيدة، وقضى على كل داء أصاب النفوس وحَرَّك كل ساكن وأذاب كل جامد من أعضاء المجتمع الذين انعزلوا عن معترك الحياة، وسايروا الأوضاع والظروف وظنوا أن الحياة في الانفصال والانعزال.

وظل الجنيد ينفي هذا الظن الخاطيء، ويزوِّد الناس بزاد التقوى والإيمان، إذ أنه أبصر بنور قلبه مالم يبصره الناس بعيونهم، وأدرك السر في انحراف القلوب فكشفه بقوة الإخلاص، وعزة التفاني في ذات الله سبحانه وتعالى، وهكذا استطاع أن يؤدي واجبه، ويطهِّر المجتمع الإسلامي من كل ما علق به من زيغ وفساد.

من كلام الجنيد رحمه الله :

قيل له: كيف الطريق إلى الله ؟ فقال : توبة تحلُّ الأسرار وخوف يزيل العزة، ورجاء مزعج إلى طريق الخيرات، ومراقبة الله في خواطر القلوب.

وقال : الزهد خلوُّ القلب مما خلت منه اليد، واستصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب، وقال : الخوف توقع العقوبة مع

مجاري الأنفاس ، والخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب ، والتواضع خفض الجناح ولين الجانب .

وقال : اليقين استقرار العلم الذي لا يتقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب ، وقال أيضا : اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب .

وقال : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هيِّن على المؤمن وهجران الخلق في جنب الحق شديد ، والمسير من النفس إلى الله صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . وقال : الصبر تجرع المرارة من غير تعبيس .

وقال : الإخلاص سرٌّ بين الله وعبده ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيمليه ، وسئل عن الحياء فقال : رؤية التقصير ورؤية الآلاء تتولد منهما حالة تسمى الحياء .

قال أبو عبد الرحمن السلمي[1] سمعت جدي إسماعيل بن نجيد يقول : دخل أبو العباس بن عطاء[2] على الجنيد وهو في النزع فسلم عليه ، فلم يرد عليه ، ثم رد عليه بعد ساعة وقال :

---

[1] أبو عبد الرحمن السلمي محمد بن الحسين بن محمد الأزدي ، ولد بنيسابور يوم الثلاثاء ، العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٢٥هـ ، وكان والده شيخا ورعا زاهدًا ، دائم المجاهدة ، له القدم في علوم المعاملات ، توفي أبو عبدالرحمن ، بنيسابور يوم الأحد ، ثالث شعبان سنة ٤١٢هـ ، وكانت جنازته مشهودة .

[2] أحمد بن محمد سهل بن عطاء البغدادي ، أبو العباس الزاهد ، العابد المتأله ، حدث عن يوسف بن موسى القطان ، وحدث عنه محمد بن علي بن حبيش ، وقال : كان له في كل يوم ختمة ، وفي رمضان تسعون ختمة ، مات سنة تسع وثلاث مأة في ذي القعدة ، وكان يقول : قرنت ثلاثة أشياء لثلاث : قرنت الفتنة بالمنية ، وقرنت المحنة بالاختيار ، وقرنت البلوى بالدعاوي .

اعذرني فإني كنت في وردي ، ثم حول وجهه إلى القبلة وكبر ومات .

وقال أبو محمد الجريري : كنت وافقا على رأس الجنيد في وقت وفاته ، وكان يوم الجمعة وهو يقرأ القرآن ، فقلت : يا أبا القاسم ! ارفق بنفسك ، فقال : يا أبا محمد ! ما رأيت أحدا أحوج إليه مني في هذا الوقت ، وهو ذا يطوي صحيفتي .

هذا أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الذي عرفه العالم بالإمام الربانى ، وسيد الطائفة ومقدم الجماعة ، لقد اتصل بالله سبحانه وتعالى وحمل لواء الحب والمعرفة ، وربط حياته بذات الله تعالى وتواضع له ، فرفعه الله ، ورزقه من القبول والخلود ما جعله من الخالدين الأبرار ، والصالحين الأخيار .

لندرس حياته من مرآة الشهادات التي مرت ، ونتبين مكانته من كلامه الذي قرأناه آنفا ، فسنجد فيه ما ندرك به حقيقة التوصل إلى الله ولذة التقرب إليه ، وحلاوة التفاني في حبه وذاته .

الشيخ شرف الدين يحيى المنيري

(٦٦١هـ - ٧٨٢هـ)

في الأسبوع الأخير من شهر شعبان سنة ٦٦١ هـ أنجبت قرية " منير[1] " رجلا عظيما من رجال التاريخ، نابغة في العلم والتقوى، عبقريا في مؤهلاته ومواهبه وفذاً في خدماته الواسعة للعلم والدين، ألا وهو العارف الكبير الشيخ أحمد شرف الدين يحيى الذي اجتمعت فيه صفات كثيرة من علو الهمة والطلب الصادق، وعاطفة الحب، ربته على معان سامية للحياة، ومفاهيم عالية للعلم، وتفكير واسع في النفوس والكون.

أقبل على اكتساب العلم الصحيح، والمعرفة القوية منذ نعومة أظفاره بشغف لا نظيرله في عالم المعاهد والمدارس، وعمق لا مثيل له في دنيا الدراسات والاختصاصات، دخل في الكتاب، ورأى أنّ الطلبة يحفظون متون الكتاب وكلمات اللغة على عادة المدارس الإسلامية يوم ذاك، وذلك ما يستنفد جميع أوقاتهم ويستغرق فرصهم ومواهبم، فكره ذلك منهم، وانتقد هذا الأسلوب من التعليم وتأسف على استعمال قوة الذاكرة في غير محلها، إذ كان يرى أن القرآن هو الذي يجب أن يحفظ ويبذل له الوقت والجهود.

---

[1] قرية في مديرية بتنه عاصمة ولاية بهار (الهند).

ينتمي نسبه إلى زبير بن عبد المطلب الهاشمي القرشي[١]، وكان جده الأعلى محمد تاج الفقيه[٢] من كبار العلماء والمشايخ في عصره، هاجر من مدينة "الخليل" التي كانت من مدن الشام، وانضمت اليوم إلى المملكة الأردنية الهاشمية إلى الهند، وتوطن في قرية "منير" قريبة من عاصمة "بهار[٣]" إحدى الولاية الهندية أيام السلطان شهاب الدين الغوري في القرن السابع الهجري.

ولما انتهت دراسته في كتاب وطنه وقرأ فيه من العلم ما شاء الله أن يقرأ اتفق أن مر على قريته رجل كبير من رجال العلم والتدريس في إحدى رحلاته وهو الشيخ شرف الدين أبو توامة الذي كان يعد في طليعة العلماء والمشايخ في ذلك العصر، فزاره الشيخ أحمد شرف الدين وقضى معه سويعات انكشف له فيها فضله ونبوغه، وكان له تأثير عميق في نفسه إذ رأي فيه عالماً كبيراً،

---

[١] الزبير بن عبد المطلب بن هاشم، أكبر أعمام النبي ﷺ أدركه النبي في طفولته، وكان يعد من شعراء قريش إلا أن شعره قليل، يقال: منه البيتان اللذان أولهما:

إذا كنت في حاجة مرسلا

فأرسل حكيما ولا توصه

[٢] الشيخ محمد تاج الفقيه كان من أجداد المنيري، وكان متمتّعاً بالعلم والفضل والذكاء المفرط والصلاح الكثير، انتقل من الخليل في الشام إلى ولاية بهار، واستوطنها، يقول بعض الباحثين: إنه كان معاصرا لشهاب الدين الغوري وانتشر الإسلام به في قرية منير وضواحيها، ثم راح هو إلى الخليل لقضاء بقية عمره، لكن أسرته أقامت في منير ولم تذهب معه.

[٣] بهار ولاية من ولايات الهند في الجزء الشرقي، قاعدتها بتنة، كانت سابقاً منضمة إلى بنغال، أمّا اليوم فهي تحت نظام جمهورية الهند، اشتهرت هذه الولاية بالعلم والعلماء ومراكز التعليم والتربية، وتوجد في عاصمتها الإمارة الشرعية الإسلامية يرأسها فضيلة الشيخ نظام الدين القاسمي الأمين العام الحالي لهيئة الأحوال الشخصية لعموم الهند.

ورعاً ، تقياً ، فأعجب به وقال : إن هذا الشيخ ممن يجب أن أدرس عليه ، وأكمل دراسة العلوم الدينية على يديه ، واستأذن أبويه ليلازمه إلى مقره حيث يشتغل عنده لتكميل العلوم الدينية والاستفادة منه .

ولما طلب منه الشيخ شرف الدين أبو توامة[1] ملازمته إياه ليتمكن من إتمام دراسة العلوم الدينية والاستفادة منه ، قبل هذا الطلب برحابة صدر، ولما وصل إلى مقره وبدأ الدراسة علم أن الشيخ شرف الدين أبا توامة من أجلة العلماء الربانيين الذي يجمع بين علم الظاهر وعلم الباطن ، يقول وهو يُبدي انطباعاته نحوه : لقد كان الشيخ شرف الدين أبو توامة عالماً ، عظيم الشأن ، غزير العلم يشار إليه بالبنان في البلاد الهندية ولم يكن يدانيه يومئذ من العلماء والمشايخ أحد .

فكان يعد هذه الفرصة نعمة كبيرة من الله ، وكان يعرف قيمتها حتى لم يرض أن تضيع منها لمحة في غير استفادة ، ومما يدل على انهماكه في طلب العلم وشغفه أنه لم يتناول الطعام على المائدة أبداً ، لأن الأكل على المائدة يستغرق وقتاً أطول من الأكل وحده في غرفته ، وهكذا كان يوفر لمحاته ويبذلها في الدراسة والرياضة والمجاهدات .

---

[1] الشيخ شرف الدين أبوتوامة كان من العلماء الكبار في دهلي ، وكان نجما لامعا في حكومة شمس الدين التمش ، فقد كان إليه الرجوع العام في عهد غياث الدين بلبن ، لكنه اضطر إلى هجر البلاد بإيعاز من الحكومة على محاولة جادة للحساد .

يتحدث التاريخ أن الشيخ المنيري جمع كل الرسائل والخطابات التي تصله من أهله وإخوانه في كيسة دون أن يقرأها، وذلك لئلا يكون خلل أو قلق واضطراب مما إذا كان فيها بعض ما يقلقه أو يسلب طمأنينته.

وعندما انتهت دراسته للعلوم الدينية لدى الشيخ شرف الدين أبي توامة أراد أن يرجع إلى وطنه حيث يلقى والديه وإخوانه، فاستأذن الشيخ وأبان عليه ما كان يريده من العودة إلى الوطن، ولكن الشيخ لم يرض بأن يأذن له دون أن يرتبط مع التلميذ النجيب بقرابة ظاهرة مع قرابة العلوم والتقوى، وزوج معه ابنته التي أنجبت له ولداً ذكياً عرف بالشيخ زكي الدين[1] فيما بعد...

ولكن الشيخ أحمد شرف الدين لم يطمئن إلى ما حصله من العلوم الظاهرة وما زالت تحثه شرارة كامنة في نفسه الطموح إلى الزيادة والاستفاضة، همة عالية، وهمٌّ بعيد، وطلب صادق وحب إلهي، لم يأذن له في أي حال أن يكتفي بما تعلمه، ويشتغل في تدريس العلوم كعادة العلماء في عصره وسافر إلى دهلي[2] - مركز العلم والعلماء ومصدر الإشعاع الروحي يومئذ - تاركاً أهله ووطنه.

---

[1] ولد الشيخ المنيري الأكبر، توفي في حياة أبيه، وليس له عمل يذكر.

[2] قاعدة بلاد الهند، ويقال أيضاً لها دِلي بتشديد اللام، وهي مدينة عظيمة الشأن، واقعة على الضفة الغربية من نهرجمنا، وهي قديمة، قيل: مَصَّرها انغ فال من اندرفت سنة أربعين وأربع مأة=

وصل إلى دهلي فوقع اختياره على الشيخ نظام الدين الدهلوي وحضر في مجلسه فرحب به ودار بينه وبين الشيخ كلام حول بعض المسائل العلمية فعرف فيه الشيخ العلم والاطلاع على العلوم الدينية وتأثر بذلك، ورده قائلا: "من سوء حظي أني لا أقدر على تربيتك فإن مكانتك رفيعة" ورجع من دهلي إلى "باني بت[1] " حيث لقي الشيخ أبو علي[2] ولكنه لم ينجح أيضاً فيما أراد من البيعة لما رآه مغلوب الحال لا يقدر على تربيته غيره .

وتسرب إلى نفسه يأس من وجود شيخ يبايع على يده ، وحزن بذلك، ولكن الله تعالى هداه إلى شيخ آخر كان يشغل منصباً عالياً للمعرفة والتقوى في دهلي ، وهو الشيخ نجيب الدين الفردوسي[3] الذي نال عنده ما كان يبحث عنه وتحققت لديه أمنيته ، فبايع على يديه ، ومن ساعته أجازه الشيخ وأعطاه سند

=البكرمية ، وقيل : اختطها دهلو ، وفتحها السلطان شهاب الدين الغوري سنة تسع وثمانين وخمس مأة للهجرة ، واتخذها قطب الدين أيبك عاصمة ملكه ، وبها أبنية عظيمة وقصور شاهقة ، وجوامع فاخرة تُعدُّ من عجائب الدنيا ولا يكاد يوجد نظيرها في الأرض ، ومن آثارها : القلعة الحمراء والجامع الكبير ، ومنارة قطب الدين .

[1] قصبة من مديرية مظفر نجر ، وهي قديمة ، ورد ذكرها في كتاب الوثنيين المقدس مها بهارت وهي مشهورة لأنه كانت بها ثلاث ملاحم كبرى .

[2] اسمه الكامل أبو علي شرف الدين قلندر فاني فتي .

[3] الشيخ نجيب الدين الفردوسي ، الشيخ الصالح ، اسم أبيه عمادالدين الفردوسي الدهلوي ، أحد المشايخ المشهورين بأرض الهند ، أخذ عن الشيخ ركن الدين الفردوسي ، ولازمه مدة حياته ثم جلس على مسند الإرشاد ، وكان صاحب وجد و حالة ، أخذ عنه الشيخ شرف الدين أحمد بن يحيى المنيري ، توفي سنة إحدى وتسعين وست مأة بدهلى.

الإجازة مكتوباً على ورقة ، فتحير به الشيخ أحمد المنيري وقال له: إنني لم أقض معك وقتاً ولا حصلت منك على دروس الإرشاد والسلوك ، فكيف أستطيع أن أتحمل هذه المسئولية الضخمة، وأقوم بواجبي نحو هذا العلم الروحي؟ قال له الشيخ نجيب الدين : إن هذا أمر من عند الله لم أفعله من نفسي ، وإنما هي إشارة غيبية أمرتني بذلك .

ورجع الشيخ أحمد شرف الدين بأحوال عجيبة ، وقلب مليء بعاطفة من الحب والعشق ، ولوعة من الإيمان والحنان ، وإذا به لا يطمئن إلى حال ولا يقرُّ له قرار ، وإنما هي نشوة وهبها الشيخ نجيب الدين بإشارة غيبية ، يقول الشيخ أحمد المنيري : "زرت الشيخ نجيب الدين الفردوسي ، فإذا أنا بوجد من الحب ، ولوعة من العشق تمكن في قلبي ، ولا يزال يزداد ويتضاعف على مر الأيام ".

وعندما مر الشيخ أحمد المنيري في طريقه إلى الوطن على إحدى الغابات ، وسمع أصوات الطاووس اضطرب لذلك ، ووجد قلبه امتلأ حبا وحنيناً ، وعيل صبره ، فتوجه إلى الغابة ليخلو فيها بنفسه في ركنٍ من الأركان ، ويختفي من أعين الناس ، وقد بحث عنه الناس كثيراً ولكن جهودهم ذهبت سدى ، وبقي الشيخ يعيش في الغابة معتزلا عن الناس ، تاركاً الدنيا ومباهجها إلى أن مضت مدة طويلة على هذه الحال الغريبة ، والخلوة المضنية ، يقضي الحياة في الرياضات والمجاهدات والمراقبات ، في

العزلة والإعراض عن الجاه والمال ، وفي الحب والغرام ، والحيرة والهيام ، وكل ذلك أدى إلى بلوغه منزلة عليا من التصوف والإحسان والتقرب إلى الله تعالى والإعراض عن الدنيا والإقبال على الدار الآخرة ، ولكنه استقل هذه المجاهدات الشاقة ، واستهان قيمتها ، يقول في مناسبة :

"إن الرياضات والمجاهدات التي قمت بها لو كان الجبل أداها لذاب من شدتها غير أن شرف الدين ـ يريد نفسه ـ لم يتغير ولم يك شيئاً".

ومن أبرز صفاته وخصائصه التي دخلت في طبيعته هي التفاني في حب الله ورسوله وعدم الاعتداد بالنفس ، ولا شك في أن ذلك من ثمرات المجاهدات والرياضات الشاقة التي قام بها الشيخ أحمد المنيري ، يقول في إحدى المناسبات وهو يتحدث عن أمنيته :

"إن من أمنيتي أن أفنى ، ولا يبقى لي أثر من الآثار، في هذه الدنيا ولا في الآخرة" ويقول : "مازال الشيطان يلعب بي ويغريني حتى ما عرفت نفسي ولا رأيت من الإسلام أثراً في شخصي".

وكتب في إحدى الرسائل التي كان يوجهها إلى إخوانه ومريديه ، يبكي على حاله ويتأسف على ما ضاع من عمره يقول: "يقول العارفون ، والله ما من شئ أحب إلى الله من بكاء العبد على حاله ، فيجب على العلماء والصلحاء أن يتعلموا

البكاء من أويس القرني[1]، إن الذي لا يبكي على حاله ولا يفكر في نفسه إنما هو أحد الغافلين عن يوم القيامة، وقلبه ميت لا يملؤه إلا الحسرات، وما لهذه الأماني الكاذبة التي يحملها كل واحد منا اليوم، فيحب أن يتبوأ مناصب الدنيا العالية ويكون أمره مطاعاً في كل طبقة، وأن تنهال عليه النعم واللذات من كل جانب، ويستقبله الجاه والمال من كل ناحية، ثم هو يدعي مع كل ذلك أن له علاقة بالله تعالى: علاقة الحب والعشق".

إن المنزلة الرفيعة التي بلغها الشيخ أحمد المنيري مكنته من إفادة خلق كثير لا يحصيهم إلا الله، وإرشادهم إلى طريق، كله حق وخير، والذين بلغوا إلى درجة الكمال والمعرفة عن طريقه يربو عددهم على ثلاثمائة رجل.

وكلماته الواضحة وخطاباته التي كان يلقيها في مجالسه العامة في كل يوم تعد من أهم مبادئ الإصلاح والإرشاد، وكانت تحتوي على معانٍ دقيقة ومفاهيم عالية للحياة والإنسان والكون.

أما رسائله التي بعثها إلى إخوانه ومريديه فتحمل من نكات التصوف وحقائق الإحسان ما يحيِّر العقول ويأخذ بمجامع القلوب.

---

[1] أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني، من بني قرن بن ردمان بن ناجية بن فراد أحد النساك العباد المقدمين، من سادات التابعين، أصله من اليمن، يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة، وشهد وقعة صفين مع علي (رضي الله عنه)، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها سنة ٣٨هـ.

أما رسائله التي وجهها إلى بعض الأعيان-وبخاصة إلى القاضي شمس الدين حاكم مدينة جوسه[1]- فإنها تجمع بين غزارة المعاني العميقة والحقائق الدينية وبين قوة التعبير وجمال الأسلوب وعذوبة النغمات ، وهي لا تزال غرة في جبين المكتبة الإسلامية وزينة لذخائر المعارف الدينية والأدبية ، وهي معين لا ينضب على مضي الأيام ، ومدد لا ينفد لمن أراد أن يذكر أو حاول أن يستفيد .

ونظرة واحدة على هذه الرسائل تبدي روحها الخالص ، والدافع الذي يعمل فيها هو دافع الحب والمعرفة والإخلاص الذي لا يوجد له نظير إلا نادراً ، وهو الذي أحدث فيها تأثيراً قوياً ، وجعلها كلمة باقية في عقبه ، فلا يقرؤها أحد إلا ويجد نفسه قد تخلصت من جميع الشوائب ، وتجلى قلبه لإدراك الحقائق العلوية والمعارف الروحية ، إنه يرى في مرآتها ضآلة الدنيا وقصر عمرها ، ويتبين في ضوئها غرورها وسرابها الذي يخدع الأعين والأبصار .

كما يستطيع القارئ لهذه الرسائل أن يقدر بها علو مكانة الأولياء والعارفين في هذه الأمة ، ويستطيع أن يطلع على حقائق الحياة التي عرفوها وتذوقوها واصطبغوا بصبغتها ، فهم الذين تذوقوا الإيمان والمعرفة والحب ، وارتفعوا من حضيض الأرض

---

[1] القاضي شمس الدين كان أحد مريديه ، تولى منصب إشراف مدينة جوسه ، فكانت جوسه موضعاً مشهوراً في عهد الإمام المنيري في ولاية بهار .

إلى أوج السماء ، ومن خسة الأخلاق وظلمة الحياة إلى مكارم الأخلاق ومنابع النور .

أقول : منابع النور ، ولاشك ، فإن هؤلاء العارفين كانوا يسبحون في منابع النور حكمة وعلما ، وإذا صفا القلب من الشوائب وتزكت النفس وتجلت الروحانية أصبح الإنسان أفضل من الملائكة ، وأرفع من جميع الخلق ، إنما هو القلب "تلك المضغة من اللحم" إذا تنور وانكشف عنه الغطاء صار مركزا لكل معنى كريم ، وخلق نظيف ، وعمل جليل وحكمة عظيمة : ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴿٢٦٩﴾﴾[1]

إي والله إنها حكمة وحنان ، ونور وبرهان ، وروح وإيمان ، تتجمع في قلب العارف بالله ، فإذا هو إنسان يحبه الله ، ويحب الله ، وهو الذي يقدر على أن يقوم في خلق الله فيفحص عن الداء بإذنه ، وينقذ القلوب المرضى ، والعقول العفنة من علائق تهوي بها إلى هاوية سحيقة لا منجى منها إلا الله ، إن هذا العارف هو الذي يقوم بجلائل الأعمال وعظام الأمور التي قد ينوء بها العصبة أولو القوة من الرجال ، ولكنه يباشرها وحده دون نظر إلى مساعدة أو حرص على عون ، فتكون مفخرة تخلد في التاريخ ، ومأثرة ينقلها الأجيال والأمم من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان ، ويردد صداها الشعوب الإسلامية بأسرها .

---

[1] سورة آل عمران الآية : ٢٦٩ .

إن هذه الرسائل لا تبحث في موضوع واحد ، ولا تدور حول نقطة واحدة ولكنها تواجه المواضيع الحية كلها ، وتبحث في الحقائق الإنسانية فتحل العقد ، وتفك المعضلات وتعالج المشكلات التي تبقى لغزا من الألغاز عند كثير من الناس .

يقول الأستاذ الكبير العلاّمة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي[1] في كتابه "تاريخ دعوت وعزيمت" وهو يتحدث عن هذه الرسائل وما تحويه من معان ومعلومات غزيرة :

"إن من يحظى بمطالعة هذه الرسائل ودراستها يعلم جيدا أن العلوم الرفيعة والنكت الدقيقة والحقائق العميقة التي تحتوي عليها تلك الرسائل لم تكن نتيجة غزارة علم أو كثرة دراسة ، وإنما هي نتيجة تجارب واسعة شخصية مرَّ بها ، وذوق وإيمان ، وكل ما كتبه الشيخ المنيري حول عظمة الله وجلالة شأنه وغنائه عن الخلق ، وحكمه وعلوه ، وما يتعلق بالمؤمن المخلص من أحوال الخوف والرجا ، وما يعيش فيه العارفون والربانيون من لوعة العشق وحرارة الحب ، ومن الأحزان والأفراح ، وما تجيش به رحمة الله على العباد ، وحاجة العبد إلى التوبة والإنابة دائما ، إنما مرد ذلك كله هو العرفان بأسرار الكون والاطلاع على الحقيقة .

---

[1] العلامة الجهبذ ، المفكر الإسلامي ، القائد المحنك ، المفسر المدقق ، البحاثة العلمي ، الداعية الحكيم ، هو أجلُّ من أن يذكر ، وأعظم من أن يثنى عليه ، صدرت حول شخصيته مئات من الكتب والمجلات والدوريات ، ولد سنة ١٩١٤م ، وتوفي سنة ١٩٩٩م .

أما ما كتبه حول الإنسانية ومكانتها ، والقلب وعظمته والحب وقيمته ، والإنسان وسموه ونزاهته ، وعلمه وفراسته ، وعلو الهمة وقوة الطلب ، فيصلح أن يوضع في مصاف الكتابات العالية التي لا تصدر إلا من القلب ولا تؤثر إلا في القلب كذلك[1].

وفيما يلي نماذج من رسائله ، وبها يتبين مدى قوتها وتأثيرها ، ولربما تكون الترجمة قد أفقدت كثيرا من روائها وقوتها .

يقول في رسالة وهو يتحدث عن استغناء الملك الجبار الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو الذي يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويرزق نعمة الإيمان من يشاء ، ويحرمها من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء :

"هل هناك من يستطيع أن يسأل الله سبحانه عما إذا رزق نعمة لواحد وحرمها آخر ، لماذا فعلت ذلك ؟ كالسلطان في الدنيا عندما يعزشخصا فيجعله من وزرائه وآخر يعينه للكناسة والحجامة ، كذلك إذا أراد الله تعالى أن يرزق عبدا من عباده نعمة الدين يرفعه من حضيض الذل إلى أوج العز ويخرجه ممن لا شأن لهم في الحياة ، ولا يستطيعون أن يرفعوا رأسا إلى أي عز أو رفعة ، فمن الذي يقدر أن يقول :

---

[1] تاريخ دعوت وعزيمت ج٣/٢٤٧ .

أهولاء منَّ الله عليهم من بيننا ، إنه يريد أن يعز قاطع طريق عاش في السيئات ويكسوه لباس الشرف والفخر ، فيفتح قلب فضيل بن عياض[١] للإيمان ويشحنه بنور الهداية ، ولكنه يأبى ذلك على باعورا[٢] الذي لم يبرح مصلاه أربعة قرون وبقي ساجدا عليه إلى مدة أطول لكي يصل إلى درجة العز والقبول ، فيطرده من بابه رغم هذا الانهماك في العبادة والاشتغال بالسجدات ، إنه يحب عمر[٣] الذي هو مكب على عبادة

---

[١] الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي ، أبو علي ، شيخ الحرم المكي ، من أكابر العباد الصلحاء ، كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق ، منهم الإمام الشافعي ، ولد بسمرقند سنة ١٠٥ هـ ، ونشأ بأبيورد ، ودخل الكوفة وهو كبير ، وأصله منها ، ثم سكن مكة ، وتوفي بها سنة ١٨٧م ، من كلامه : "من عرف الناس استراح".

[٢] بلعم بن باعورا ، كان من أهالي الشام قريباً من بيت المقدس زمن موسى بني إسرائيل عليه السلام ، لَمَّا علم الجبارون أن بني إسرائيل سيد خلون الأرض المقدسة ذهبوا إلى بلعم وطالبوا منه أن يدعو على موسى وقومه ، وكان مستجاب الدعوة ، وقيل : إنه كان يعرف الاسم الأعظم ، ثم دعا على قومه نظراً إلى المغريات المادية فطرده الله من بابه .

[٣] عمر بن الخطاب بن نفيل ، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة ، كان طويل القامة ، ضخم الجسم ، كثير شعر البدن ، وقد انحسر شعره عن جانبي رأسه ، أبيض البشرة ، شديد الحمرة ، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره وقت المبعث النبوي ، فكان شديدا على المسلمين ، ودعا له النبي ﷺ بالهداية فأسلم في السنة السادسة من البعثة ، فاعتزبه الإسلام ، وجهر به بإسلامه ، فتعرض له المشركون وقاتلهم وقاتلوه ، وقد عرف في الجاهلية بالفصاحة والشجاعة ، وعرف في الإسلام بالقوة والهيبة ، والزهد والتقشف والعدل والرحمة والعلم والفقة ، وكان مسدد القول والفعل ، وقد روى عن النبي ﷺ خمس مأة وسبعة وثلاثين حديثاً ، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة وبشره بالشهادة ، وكان مقربا إلى رسول الله ﷺ يستشير في المهمات ، شهد معه المشاهد كلها ، وقد صاهره بالزواج من ابنته حفصة أم المؤمنين ، وكان أبوبكر يستشيره كثيرا ، وهو الذي أشار عليه بجمع القرآن ، وقد عهد إليه بالخلافة بعد مشاورة كبار الصحابة ورضاهم ولقب بأميرالمؤمنين ، وقد أظهر عمر في خلافته حسن السياسة والحزم والتدبير والتنظيم للإدارة والمالية ، ورسم خطط=

الأصنام ، فيهديه إلى طريق الحق ولكنه لا يحب العزازيل الملك الذي يشتغل بالعبادة منذ سبعة آلاف سنة ، فيطرده من بابه ، وليس هناك أحد ينكر على الله ذلك أو يسأله عما فعل .

إن نظرة الحب والرحمة تنظر إلى العيوب كمحاسن ، وترى النقص كمالا ، والقبح جمالا ، لقد كانت حفنة تراب ملقاة في الطريق تطؤها الأقدام ، ولكن نظرة واحدة للحب والرحمة حولتها إلى شئ أغلى من الخلق كله ، وقال: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ ﴾[1]

وفي رسالة أخرى يتحدث عن هذا الشأن في أسلوب آخر ، ويقول : "افتح عين البصيرة وانظر إلى حسرة آدم واستغاثة نوح وتأمل في عجز إبراهيم ومصيبة يعقوب ، وغيابة جب يوسف ، والمنشار على رأس زكريا والسيف فوق عنق يحيى عليهم الصلاة والسلام ، وانظر إلى لوعة قلب محمد ﷺ وقلقه واضطرابه ، واقرأ قول الله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴿٨٨﴾ ﴾[2]" .

=الفتح وسياسة المناطق المفتوحة والسهر على مصالح الرعية ، وإقامة العدل في البلاد ، والتوسع في الشورى ، وقد غلبت الدولة الإسلامية في عهده على الفرس والروم وحررت الهلال الخصيب ومصر ، ومصرت الكوفة والبصرة والفسطاط ، ومازالت في صعود وامتداد حتى اغتاله أبولؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة ، وهو يؤم المسلمين في صلاة الفجر ليلة الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة بعد خلافة دامت عشر سنين وستة أشهر ، وكان عمره ثلاثا وستين سنة .

[1] سورة البقرة الآية : ٣٠ .

[2] سورة القصص الآية : ٨٨ .

ويقول في رسالة مستفيضة وجهها إلى الشيخ قاضي شمس الدين المذكور في مطلع الترجمة.

أيها الأخ العزيز! الطريق غير مأمون، والمنزل بعيد، والمطلوب شئ لا نهاية له، ولكن الجسم ضعيف، والقلب حيران، والروح حنينة، والرأس منكس.

فكم من ذخائر الطاعة والانقياد تهب عليها عاصفة، ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[1] فتذهب أدراج الرياح، وكم من صدور عامرة بالحب والحنان يخربها الأمر الإلهي: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾[2] ووجوه يصرفها في اللحد من جهة القبلة، وعارفون يردهم من بابه في أول ليلة من اللقاء، وكم من قلب يقال له: نم كنومة العروس، وآخر يقال له: نم كنومة المنحوس، وأحيانا يردهم أقسى الرد، فلا يقبل منهم أيّ طاعة، وأخرى يقبل قبولا لا ينظر فيه إلى أي معصية ويحق لك أن تنشد:

في وجهه شافع يمحو إساءته

من القلوب ويأتي بالمعاذير

انظر إلى إبراهيم خليل الله كيف يخرج من عبادة الأصنام إلى عبادة الله، واقرأ قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴿١٩﴾﴾[3]

---

[1] سورة الفرقان الآية: ٢٣.

[2] سورة الزمر الآية: ٤٧.

[3] سورة الروم الآية: ١٩.

وانظر إلى ابن نوح "كنعان" كيف يعصي الله ورسوله نوحا من بيته ، واقرأ قوله تعالى :﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴿١٩﴾ ﴾[1] وهذا آدم أبو البشر ،كتب له الخلود حتى لم يؤثر فيه تقصيره وعصيانه ، ولكنه طرد الشيطان من بابه فضلَّ وغوى ، وحمل من اللعنة مالم تغنه طاعاته الماضية ، إنه عندما يبشر طائفة من عباده بقوله : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾[2] فإذا هو يعلن للمجرمين بقوله : ﴿ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[3] وكما أنه يذكر عباده الصالحين ويقول : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٩﴾ ﴾[4] كذلك يذكر العصاة المتمردين ، فيقول ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴿٤١﴾ ﴾[5]

فتذكر أيها الأخ ! ولا تكن من الغافلين ، وأقبل على عمل يكن لك ذخرا ، وكن مع القلب منكسرا وخرابا .

وهكذا يحث أتباعه ومريديه بأنواع من الأساليب المؤثرة والبيان القوي على معرفة النفس ، والاطلاع على الصلة بين العبد والمعبود ، وبين الخلق والخالق ، وتدور هذه الرسائل في أغلب الأحوال حول مواضيع حية ذات تأثير قوي ، فلا يقرؤها أحد إلا ويجد قلبه متفتحا لقبول المعاني السامية والرقيقة من

---

[1] سورة يونس الآية: ٣١ .
[2] سورة يونس الآية : ٦٤ .
[3] سورة الفرقان الآية : ٢٢ .
[4] سورة محمد الآية : ٢٩ .
[5] سورة الرحمن الآية : ٤١ .

الإيمان والتقوى التي تصل القلوب بخالق القلوب وترفع النفوس إلى منزلة أسمى ، ليس وراءها منزلة .

إننا إذا بحثنا في هذا الموضوع لطال الكلام كثيرا ، فنكتفي بهذا القدر الذي ذكرناه ، ونستلفت القارئ إلى أن يتأمل في معاني هذه الرسائل التي لم تصدر إلا من أعماق القلب ، ويفكر فيما كان أهل القلوب يعيشون فيه من حياة مطمئنة لا خوف عليها ولا خطر ، وذلك لما كانوا يتمتعون به من صلة قوية بالله تعالى ، وعلم عميق بحكمته وشئونه وإيمان راسخ بقدرته وعظمته ، وذلك هو الذي يبعثهم على إصلاح الفساد ، وتقويم الزيغ في المجتمع وغرس دوحة الإسلام والسلام في العالم ، وتمكين الأمن والطمأنينة في القلوب .

وفي ٦ شوال من سنة ٧٨٢ هـ استأثرت به رحمة الله بعدما عاش أكثر من قرن يوجه المجتمع ، ويصلح القلوب ويزكي النفوس ، وخلد في تاريخ الهند الإسلامي العامر ذكرا لا يزال موعظة وذكرى للمتقين ، وآثاراً باهرة للعلم والدين ، لولاها لنقصت المكتبة الإسلامية على سعتها وحرمت غرر الفرائد الروحية ، وكان فراغا لا يملؤه الزمان .

هيهات لا يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

الشيخ فريد الدين الأجودهني

(٥٦٩ هـ ـ ٦٦٤هـ)

الفتنة التتارية التي لا شك في كونها شراً ووبالا على العالم الإسلامي قد حملت بعض الخير إلى المسلمين، إذ أنها سببت هجرة بعض الأعلام إلى الهند وتوطنهم فيها ثم انتشار خيرهم وروحانيتهم في أبنائها، ولولا هذه الفتنة العمياء لما جاء هؤلاء الهداة الروحانيون إلى هذه البلاد، ولم يكن لها من مآثرهم الروحية وجهودهم الإسلامية نصيب، ولكان لها شأن غير هذا الشأن.

ولكن شاءت الأقدار أن يقوم التتر بالسلب والنهب في قلب العالم الإسلامي، فيتوزع عباده المخلصون الربانيون إلى البلاد التي كانت في حاجة إلى المصلحين وكانت تنتظر النور الإلهي الذي ينير السبيل ويهدي الناس إلى طريق الحق والعز والنجاح، وكان من بين هؤلاء المهاجرين الذين أقضت هذه الفتنة مضجعهم وأقلقت بالهم الشيخ القاضي شعيب بن أحمد بن يوسف جد الشيخ فريد الدين مسعود[1]، فقد هاجر مع أهله

---

[1] شعيب بن أحمد جد الشيخ فريد الدين، حضر من كابل إلى لاهور في عهد حكومة السلطان شهاب الدين الغوري في هجمة التتر، وأقام في بلدة قصور، فأعجب به السلطان وأسند إليه=

وماله من مدينة كابل إلى مدينة لاهور واتخذها موطناً، وتولى منصب القضاء في مدينة كهتوال من أعمال الملتان التي تقع الآن في باكستان.

وفي نفس تلك المدينة ولد الشيخ فريد الدين مسعود سنة تسع وستين وخمسمائة، وسافر إلى الملتان [1] وهو صبي حيث اشتغل بتحصيل العلم على أساتذة زمانه وقد ساعده الحظ فلقي بها الشيخ قطب الدين بختيار[2] الذي توسم فيه علامات النبوغ والولاية فحثه على اكتساب علوم الدين، كما أعجب به الشيخ فريد الدين أشد الإعجاب مما جعله بايع على يديه، وأراد أن يلازمه إلى مقره دون إتمام الدراسة، ولكن الشيخ قطب الدين منعه عن ذلك.

ولما تمكن الشيخ فريد الدين من إتمام دراسة العلوم الدينية ورد شرعة شيخه قطب الدين في دهلي، فاختار له الشيخ مكاناً يبعد عن صخب الأسواق وجلبة الناس ليتسنى له فيه الذكر والرياضة والبلوغ إلى درجة المعرفة والسلوك في أقرب مدة، وقد كان ذلك فعلا، حتى إذا رأى الشيخ قطب الدين أن تلميذه بلغ إلى درجة عليا من المعرفة والإحسان، وهو الآن يقدر على إرشاد

=القضاء في جوار ملتان، كان له ولد اسمه الشيخ كمال الدين، فرزق الله الشيخ كمال الدين ثلاثة أولاد: عزالدين محمود، فريد الدين مسعود، نجيب الدين المتوكل.

[1] مدينة شهيرة في جمهورية باكستانُ الإسلامية.

[2] ستأتي ترجمة في الصفحات الآتية.

الناس ، وهداية الخلق وتبليغ كلمة الله إلى القلوب شرفه بالخلافة وأجازه ، ثم بعثه إلى مدينة "هانسي[١] " حيث اشتغل بإفادة الخلق وإرشاد الناس وإصلاح القلوب .

يقول العلامة عبد الحي الحسني صاحب نزهة الخواطر(الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام) في كتابه:

" ثم رحل إلى مدينة " هانسي" وأقام بها اثنتي عشرة سنة واشتغل بالرياضة الشديدة والمجاهدة القوية ، فظهرت منه الخوارق والكرامات والتصرفات العجيبة وتقاطر عليه الناس فترك موضعه ، وذهب إلى " كهتوال[٢] " فلبث بها زمانا ".

وما إن أقام في " كهتوال " مدة قليلة إذ طار صيته وتزاحم عليه الناس ، من كل حدب وصوب ، فلم يعجبه ذلك وارتحل منها إلى " أجودهن[٣] " اعتقادا منه أنها قرية لا يزال أهلها منطوين على أنفسهم ، غير مقبلين على العلماء والشيوخ ، وربما لا يتيسر لهم المعرفة به ، والتزاحم عليه ، ولكن خاب رجاؤه في ذلك وبدأ الناس يأتون إليه ، ويجتمعون حوله ، ويلتفون به ، وتزايد إقبال الناس عليه في عدة أيام إلى حد أن الزائرين لا ينقطعون إلى الليل فيبقى الباب مفتوحا إلى نصف الليل .

---

[١] بلدة ذات سور وقلعة قديمة من أعمال حصار تابعة لولاية "دهلي" فتحها السلطان شهاب الدين سنة ١١٩٢ م .

[٢] كهتوال ، الأصل : كهوتي والا ، قرية قريبة من ملتان بباكستان .

[٣] أجودهن : بلدة من باكستان في مديرية منتغمري تابعة لولاية بنجاب ، وهي واقعة على شبه جزيرة تكتنفها شعبتان من نهر كره ، تبعد ١٨٠ كيلو متراً عن مدينة أمرتسر .

وألقى الله تعالى في روع الشيخ فريد الدين أن يشتغل بإفادة الخلق وإجابة طلبهم إلى إصلاح النفوس وتزكية القلوب فأقبل على الفحص عن أدواء المجتمع وأمراض القلوب وتفقد الوضع الذي كان الناس يعيشون فيه ، فوجد القلوب ظمأى إلى تعاليم الإسلام ووجد الناس حريصين على تعلم الدين ، ورأى المجتمع في حاجة إلى من يرشده إلى طريق أقوم ، ومنهاج أفضل للحياة .

فأخذ الشيخ فريد الدين هذه المسئولية على عاتقه ، وبايع الناس على الإيمان والتفاني في سبيل الله ، فلم يزل يتزايد الإقبال عليه ، ويأتيه الناس من كل فج ليبايعوه ويعاهدوه على الإسلام ، فاستفادوا منه علم الباطن والتزكية الذي ساعدهم على إنشاء مجتمع إسلامي سليم وإصلاح نزعات الجاهلية والضلال والوثنية والشرك التي كانت منتشرة في ذلك العهد بوجه عام .

إن الشيخ فريد الدين يعتبر بحق مجدد الطريقة الجشتية التي أسسها الشيخ معين الدين السجزي[1] في القرن السادس الهجري .

وهو الذي قام بريٍّ هذا الغراس الروحاني بروحانيته القوية ومعرفته الكبيرة ، وعلو كعبه في العلوم الإلهية الربانية التي تصل العبد بربه ، وتربط حياته برباط قدسي متين ، وقد خلف لدعوته تأثيراً أبلغ في القلوب لا يزال يلهب القلوب الجامدة ، ويشعل في النفوس شعلة الإيمان واليقين .

---

[1] اقرأ ترجمته في هذا الكتاب تحت عنوان مستقل .

وبهذا التأثير الإيماني العميق أثمر غراس الدعوة الإسلامية في بلاد الهند ، وآتى أكله كل حين بإذن ربه ، فقد نشأت جماعة من الدعاة والمربين الإسلاميين الذين كانوا أساس الصرح الإسلامي في الهند ، وبفضلهم بقيت كلمة الله تعلو ودعوة الإسلام تأخذ مكانتها اللائقة في الهند ، ولولا فضلهم وجهادهم ولولا تضحياتهم وإيثارهم لما كان الإسلام يتمتع بأتباعه ومعتنقيه في بلاد وثنية خالصة ، ولم يكن للجيل الإسلامي إلا اسمه أو رسمه ، ولكانت المعابد والمعاهد الإسلامية الدينية قد تحولت إلى آثار تاريخية ومتاحف أثرية يزورها السياح .

والحياة التي عاشها الشيخ فريد الدين كلها فقر وزهد ، وكلها رياضة ومجاهدة ، لا تتيسر لكل من تصدى للدعوة وقام بها ، إنها حياة مثالية رائعة ، تستطيع أن تدرك بها نسمات الجنة في الدنيا ، وتنال الفضل الرباني في كل حين .

يقول مؤرخه الشيخ محمد مبارك العلوي[1] في كتابه "سير الأولياء" : كان يغلي ثمر الأراك في قدر فيأكله الشيخ فريد الدين ويوزعه بين الفقراء والخدم ، وذات مرة جيء بالطعام وهو صائم ، فلما أراد أن يجعل اللقمة في فيه إذا هو أمسك ، وقال : إني لمست اليوم في هذا الطعام شيئاً يمسكني عن الأكل ، فأجاب

---

[1] محمد بن مبارك الكرماني ، ولد في دهلي ، كان اسم جده محمد بن محمود ، سكن كرمان ثم انتقل إلى أجودهن وتشرف بالشيخ فريد الدين كنج شكر ، فلما توفي الشيخ المذكور سعد بخدمة الشيخ نظام الدين الأولياء ، فلازمه ملازمة طويلة وتوفي سنة ٧١١هـ ، ودفن في دهلي .

الخادم : إن الملح الذي ألقيته في الطعام كان مستدانا ، فقال : إذن لا يجوز لي أكله .

والقصص من هذا الشأن كثيرة ، وكلها تدل دلالة واضحة على أن هذا الشيخ برغبته عن الدنيا وما فيها وإعراضه عن الجاه والمال والمنصب والسلطان قام بأعمال جليلة وإصلاحات عظيمة في تاريخ الهند الإسلامي و سجّل صفحة رائعة خلدها الدهر ، وأبقاها التاريخ للجيل المسلم الجديد .

ومرة بعث إليه السلطان ناصر الدين محمود[1] هدية من المال والعقار وذهب بها إلى حضرة الشيخ نائبه غياث الدين بلبن[2] فلما قدم إليه الهدية نظر الشيخ إلى اليمين والشمال فأخذ

---

[1] ناصر الدين محمود بن شمس الدين الألتمش ، أنموذج الخلفاء الراشدين وكان أصغر أبناء والده ، وأكبرهم في الفضل والصلاح ، قام بالملك بعد ابن أخيه علاء الدين مسعود في سنة أربع وأربعين وست مأة ، فنادى برفع المظالم ، وأظهر من العدل والكرم ، وكان عادلا فاضلا ، ورعا متعبدا ، ذاحلم وأناة ورأفة ، راغبا إلى الخيرات مع الزاهدين والتقلل والتقشف ، له عناية خاصة بالأدب ، ومعرفة حسنة بالكتابة ، مؤثر للعدل والإحسان ، وقضاء الحوائج ، ولم يزل أمره مستقيماً إلى عشرين سنة ، كانت وفاته في سنة ٦٦٤ هـ .

[2] غياث الدين بلبن ، الملك المؤيد المنصور ، السلطان الصالح ، كان الأتراك الفراخطائية جلبوا في صغر سنه إلى بغداد ، فاشتراه جمال الدين البصري سنة ٦٣٠هـ ، وأتى به إلى الهند ، فاشتراه منه السلطان شمس الدين ألتمش ، فرباه في مهد السلطنة وزوجه بابنته ، فتدرج في الإمارة ، وجعل " أمير شكار" في عهد رضية بنت ألتمش ، وبعد قليل استقل بالملك ودام عليه عشرين سنة ، كان من خيار السلاطين ، عادلا فاضلا حليما كريماً ، بذل جهده في تعمير البلاد ، وكان محبا لأهل العلم محسنا إليهم ، يتردد في كل أسبوع بعد صلاة الجمعة إلى بيوت الشيخ برهان الدين البلخي وغيرهم ، وكان لا يداهن في العدل والقضاء ولايسامح أحدا ولوكان من ذوي قرابته ، كانت وفاته سنة ٦٨٦هـ بدهلي .

هدية المال ووزعها بين الفقراء وذوي الحاجة من ساعته ، و رد هدية العقار قائلا: إنها لا تليق بنا .

وكان السلطان غياث الدين بلبن يحب الشيخ فريد الدين ويبجله ويعتقد أن دعاء الشيخ هو السبب في حصول العز والجاه له ، فكان يرى من سعادته أن يقف أمام الشيخ موقف الخادم الحقير ، ويترقب الفرص ليقوم فيها بخدمة خدم الشيخ وأتباعه .

وقد كتب إليه الشيخ فريد الدين كتاب توصية عندما ألح عليه بعض خدمه :

"رفعت قصته إلى الله ثم إليك ، فإن أعطيته فالمعطي هو الله وأنت المشكور ، وإن لم تعطه شيئاً فالمانع هو الله وأنت المعذور" .

ومن كلامه :

إن الله سبحانه يستحي من العبد أن يرفع يديه ويردهما خائبتين ، ومنه أن الصوفي يصفو له كل شيء ولا يكدره شيء ، وقال : الصوفي من رضي بالموجود ولا يسعى بطلب المفقود ، وقال : لو أردتم أن تبلغوا درجة الكبار فعليكم أن لا تلتفتوا إلى أبناء الملوك ، وقال : أرذل الناس من يشتغل بالأكل واللباس[1] .

ومما يمتاز به الشيخ فريد الدين عن معاصريه هو ما كان يتمتع به من عاطفة التفاني في حب الله ورسوله ، ولوعة العشق الرباني التي كانت تشعل فيه جذوة الإيمان والإخلاص وشرارة

---

[1] نزهة الخواطر ج ١٣٢/١ .

الحب والحنان ، فلما يوجد لها نظير في الشيوخ الآخرين في عهده ، تلك هي ميزة جعلته يربي الشيخ نظام الدين[١] والشيخ علاء الدين علي صابر[٢] اللذين بلغا إلى ذروة العز والمجد ، وقاما بخدمات عظيمة في حقل الدعوة الإسلامية التي كانت بحاجة ماسة في ذلك العصر إلى أولياء مخلصين يضحون في سبيلها كل جهد وطاقة ، ويستنفدون في تقويتها وتبليغها جميع ما يملكونه من مواهب وصلاحيات ، وقد نالت الدعوة الإسلامية بفضل هذا الشيخ العظيم جنوداً من رجال أكفاء ، وتأصلت جذور الطريقة الجشتية في الهند ولا تزال تؤدي دورها في خدمة الدين الحنيف .

توفي سنة ٦٦٤هـ وعمره ٩٥ سنة .

[١] العارف الكبير نظام الدين أولياء أنظر ترجمته في الجزء الثاني لهذا الكتاب .

[٢] كان من أحب تلاميذ الشيخ فريد الدين ، قد تكلف مجاهدات من صباه ، ولد سنة ٥٩٢هـ وتوفي سنة ٦٩٠هـ ، تاريخ وفاته لفظ "مخدوم" ، وقبره في كلير من مديرية سهارنفور .

الشيخ معين الدين السجزي

(٥٣٧هـ - ٦٢٧هـ)

شاءت الحكمة الإلهية أن تتحرر بلاد الهند من ربقة الوثنية والشرك ويجد الإيمان والإيثار، والعقيدة والدين طريقا سهلا إلى ربوعها وبقاعها، وشاء القدر الإلهي أن تعم في أرجاء هذه البلاد كلمة الإسلام وتنتشر في أنحائها دعوة محمد عليه الصلاة والسلام.

فقد شهدت الهند في القرن السادس الهجري فتنة عمياء لا تفرق بين الخير والشر، ولا تميز الحق من الباطل، وعمت فوضى فكرية واجتماعية في البلاد، لم تترك للناس مذهب الخير والفضيلة، ولم تدع لهم علالة للتفكير في الحياة الإنسانية وصلتها بالله تعالى، وتسربت إلى النفوس عقائد فاسدة، وعادات سيئة جعلت الحياة مجموعة من الخرافات الجاهلية.

دخل السلطان محمود الغزنوي[1] في الهند فاتحا وأخضعها للإسلام وأسس دولة قامت على مبدء العقيدة والتقوى كان الإسلام فيها دين الدولة الرسمي ولكن تم هذا التأسيس على يد

---

[1] محمود الغزنوي السلطان يمين الدولة، فاتح الهند، أحد كبار القادة، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وكانت عاصمة سلطنته غزنة، ولد سنة ٣٦١هـ، توفي ٤٢١هـ.

السلطان شهاب الدين الغوري[١] في القرن السادس الهجري ، كما قدر الله تعالى للشيخ معين الدين السجزي الجشتي أن يقوم بغرس الإيمان في قلوب الناس وفتحها للإسلام ، وهكذا قامت في الهند دولة روحية لا تضارعها دولة مادية في السلطان والقوة والتأثير ، وتم فتح هذه البلاد الروحي على يد الشيخ معين الدين وهو صاحب الفضل في إنشاء مجتمع إسلامي سليم وتعمير هذه البلاد بعد إقفارها .

ولد الشيخ معين الدين سنة ٥٣٧ هـ ببلدة "سجستان[٢]" ، وسافر إلى سمرقند[٣] حيث حفظ القرآن وقرأ من العلم ما أمكنه ، ثم سافر إلى بلاد أخرى ودخل قرية هارون من أعمال نيسابور[٤] وأدرك بها الشيخ عثمان الهاروني[٥] فلازمه وأخذ

---

[١] شهاب الدين الغوري مؤسس الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية ، كان ينتمي إلى غورستان في أفغانستان ، وكان أخوه غياث الدين الغوري حاكم غورستان فورثه شهاب الدين في الطموح والفتوة ، وقد تصدى للهجوم على الهند منذ بداية ٥٧٥ هـ إلى ٥٨٦ هـ حتى هزم برتهوي راج سنة ٥٨٨ هـ مع مأة وعشرين ألف مقاتل ، لم يرزق الغوري ولداً سوى بنت ، قد حكم زهاء خمس وثلاثين سنة ، وكان له أربعة مماليك : قطب الدين أيبك ، محمد بن بخت الخلجي ، التمش وناصر الدين قباشه ، وقد رباهم مثل أولاده ـ ، كان رحيما ، ربّانيا منصفاً يجالس العلماء والأولياء العظام ويعده مفخرةً لنفسه ، رحمه الله .

[٢] ناحية كبيرة قريبة من هراة وأرضها كلها رملة سبخة .

[٣] مدينة في الجمهورية الأزبكية الروسية خربها جنغيز خان سنة ١٢٢٩ م ، ثم استوى عليها تيمورلنك ، وجعل كرسي ملكه فيها ، وفيها قبره .

[٤] مدينة إيرانية غربي مشهد وعاصمة خراسان قديماً ، من مراكز الحضارة الإسلامية .

[٥] الخواجه عثمان الهاروني كان من مستر شدي الحاج شريف الزندي ، وكان بارعا في الشريعة والطريقة ، وإمام الأبدال والأقطاب ، وقد ظهرت له كرامات وكشوف بممارسة الأذكار القرآنية والأدعية النبوية ، ولد في هارون سنة ٥٢٦هـ ، وتوفي ٦١٧هـ .

عنه الطريقة ، وصحبه عشرين سنة ، ثم قدم الهند وأقام بمدينة لاهور[١] ما شاء الله أن يقيم ، ثم قدم دهلى ، ومنها توجه إلى أجمير[٢] وسكن بها ، فأسلم على يديه خلق كثير ، وله من الكرامات والمناقب ما يعجز عنه البيان ، جاء الشيخ معين الدين والهند غارقة في عقائد فاسدة وتقاليد منكرة ، وعادات سيئة ، وكان أولياء الشيطان يلعبون بعقول الناس وأفكارهم ، إنهم أقاموا في الناس طبقات متعددة ودرجات مختلفة ، سببت تفاوتًا بين الطبقة والطبقة ، والفرد ، والفرد ، واللون واللون ، فالطبقة العليا لا ترى للطبقة الدنيا حق الحياة والعيش ولا تسمح لها بالبقاء في المجتمع كالبشر لهم عزتهم وكرامتهم ، وكان أصحاب السلطة والحكم يصبون على الرعايا من الظلم والجور ما تقشعر منه الجلود .

ولكن الأوضاع تغيرت بفضل هذا الشيخ الرباني ورجع المنكر أدراجه عندما بدأ عمله في مجتمع العصر ، فقد روى لنا التاريخ أن الهند كانت تحت برتهوى راج[٣] والي أجمير ودهلي

---

[١] مدينة باكستان ، عاصمة بلاد بنجاب في الماضي ، من أقدم المدن الهندية ، زارها هيون شينغ الصيني الرحالة سنة ٦٣٠ م ، وذكرها البيروني في كتاب الهند ، فتحها السلطان محمود الغزنوي ١٠٠٨م ، وضمها إلى المملكة الهندية في شرق نهر السند ، ثم فتحها السلطان شهاب الدين سنة ١١٨٦ هـ .

[٢] مدينة قديمة ذات سورمبني بالحجارة ، وموقعها في منحدر وادٍ كثير الصخور ، تقع من دهلي إلى الجنوب الغربي ، وهي في ولاية راجستهان .

[٣] برتهوي راج ، كانت في دهلي قوم تقلدت أمور الحكم ، وهي تتفرع إلى سلالتين توران وجوهان ، فقد حكم دهلي ثمانية ملوك لتوران ، ثم سيطر عليها ملوك جوهان ، وهم ستة ،=

في عصر الشيخ معين الدين ، وكان هذا الوالي يتمتع بقوة عظيمة وسلطة نادرة حتى إنه لم يتشجع أحد من الملوك أن يقوم بمقاومته ويتحارب معه إلى أن جاء السلطان شهاب الدين الغوري وشن عليه حملة شعواء فانهزم لأول وهلة بكثرة جنود المخاصمين ولكنه لم يتقاعس ولم ييأس واستدعى الشيخ معين الدين لنجاحه وانهزام عدوه وقام بحملة أخرى مع مائة ألف مقاتل ولم يكتف الشيخ في هذه الحرب الحاسمة بالدعاء ، وإنما شارك السلطان في القتال مع العدو وغلب عليه ورجع فاتحاً منصوراً .

ولم يكن ذلك فتحاً للسلطان شهاب الدين ولا فتح الهند فقط ، بل كان فتح القلوب إيذانًا بأن كلمته هي العليا ، وكان النواة الطيبة لعمل الدعوات الإسلامية في المستقبل ، واللبنة الأولى لبناء مجتمع صالح أفضل في هذه الديار ، فازدهر الإسلام في الهند ، وارتفعت كلمته بعد أن حاول المتزمتون الرجعيون اقتلاع آياتها ومحو معالمها من القوالب والقلوب .

=فالآخر منهم كان اسمه برتهوي راج ، إنه اتخذ عاصمة بلاده أجمير ، فكانت له مناوشات دموية امتدت إلى مدة ، فقتل برتهوي راج سنة ٥٨٨ هـ إنه كان من أولاد سوميشور .

ولما تحقق للشيخ معين الدين ما أراده من اقتلاع جذور الفتنة التي كانت تعانيها هذه البلاد وتمر بها في رحلتها الطويلة وتاريخها المليء بالبطولة والنجدة والشهامة ، أقبل على إصلاح الأوضاع وتقويم العادات ، وتصحيح العقائد حتى أسلم على يده خلق لا يحصيها إلا الله ، واهتدى عن طريقه ألوف مؤلفة من بلاد الهند وما والاها من البلدان وساد في المجتمع الهندي الإسلامي جو من الطمأنينة والهدوء ورجع الضلال طريقه بعد أن تمكن في قلوب الناس واستقر في نفوسهم واحتل مكانه إيمان بالله ورسوله ، ووقر فيهم الحق ورسخت تعاليم الإسلام في القلوب ما تمكن به الشيخ من تحويل الحياة من طريق إلى طريق ، ومن حالة نزعات الكفر والباطل إلى نزعات الخير والحق .

يتحدث الشيخ محمد مبارك العلوي في كتابه " سير الأولياء " عن الشيخ معين الدين ، فيقول : كانت بلاد الهند إلى أقصى حدودها الغربية مأوى الكفر والوثنية ، فقد كان المتمردون ينادون بـ " أنا ربكم الأعلى " ويشركون مع الله آلهة أخرى ويسجدون للحجارة والتراب والشجر والدواب ، أقفلت ظلمة الكفر قلوبهم ، غافلين عن الدين والشريعة ، جاهلين عن الله والرسول ، ولم يعرفوا القبلة ولا سمعوا صوت الله أكبر قط ، إنهم كانوا يتخبطون في المجاهل والضلالات ، إذ جاء الشيخ معين الدين فانقشع السحاب وتبدد الظلام ، وسطع نور الإسلام وبدل الأرض غير الأرض ، واختفى الشرك والمشركون في غياهب

الزمان ، وقامت المساجد والمنابر التي ارتفع منها صوت الله أكبر ، وكل من تمتع بنعمة الإسلام في هذه البلاد ويتمتع بها إلى يوم القيامة يزيد في حسنات معين الدين ويسبب له أجراً مستمرًا إلى يوم الدين .

يقول مؤلف " سير الأقطاب " [1] : " ومن فضله انتشر الإسلام في الهند ، وتبددت ظلمات الكفر ـ كما يقول أبو الفضل في كتابه " آئين أكبرى " وهو يتحدث عن الشيخ معين الدين : " إنه أقام في أجمير حيث أضاء شمع الإسلام ونوَّر القلوب بنور الإيمان ، ومن بركاته ويمن طالعه دخل الناس في دين الله أفواجًا ، وتشرفوا بنعمة الإسلام " .

إن الهند وكل من يعيش فيها من المسلمين يدين لهذا الشيخ العظيم فليس أثر من آثار الحياة الإسلامية ، ولا معلم من معالمها إلا ويرجع فيه الفضل إلى الشيخ معين الدين ، وإن التاريخ لا يستطيع أن ينسى أياديه على هذه البلاد على مر الأيام والليالي ، وإنما هو ممن خلدوا على صفحات الدهر ذكريات ومفاخر يزيدها الأيام صفاء وجلاء .

وقد خلف الشيخ معين الدين في أعماله وجهاده ودعوته الشيخ قطب الدين بختيار الذي أقام في دهلي وقام بدعوة الإسلام الحنيف في الناس ، واستفاد منه خلق كثير وامتدت

---

[1] الهدية بن شيخ عبد الكريم بن حكيم شيخ بينا جشتي العثماني ، صنف كتابه " سير الأقطاب " سنة ١٠٣٦هـ ، في عهد المَلِك شاهجان .

الطريقة الجشتية إلى أن بلغ ذروة العز والقبول واستفاد منها العالم بأجمعه ولا يزال.

توفي الشيخ معين الدين سنة ٦٢٧هـ بعدما قضى حياة حافلة بجلائل الأعمال وعظائم الأمور واشتغل في توجيه الخلق وإرشاد الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور نحو نصف قرن، وقد تأصل غراس دعوته وجهاده في أرض الهند، وأثمر ثمارًا يانعة اجتناها خلفاؤه من بعده وأضاؤا الطريق لمن خلفهم.

الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني

(٥٦٦هـ ـ ٦٦٦هـ)

إذا كان تاريخ الهند الإسلامي يزخر بذكر أولئك العارفين ورجال الله الذين جمعوا بين علم الظاهر وعلم الباطن، وبين معرفة الخلق ومعرفة الخالق، وإذا كان التاريخ يحمل مادة غنية خصبة من القصص الروحانية والصلة الأصلية بالله تعالى التي تغذي القلب، وتقوي العاطفة، وترقق الحس، وترهف الشعور، فلا شك أن هناك أمثلة كثيرة مما يحمل في جنبه درسًا كبيرًا وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهي أمثلة لا ينفد مددها، ولاينضب معينها.

إن الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني لم يكن وليًا عارفًا فحسب، ولم يكن ممن جمعوا بين العلم والإيمان، وبين المعرفة والحنان فقط، بل إنه كان في جنب ذلك من أغنى الناس في زمانه، ومن أثرياء أهل عصره، فقد رزقه الله مع العلوم والإيمان أموالا عظيمة، ونقودًا طائلة لينفقها في سبيل الله ويمثل في شخصه نموذج المؤمنين الصادقين الذين قال الله تعالى فيهم﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾[1]

---

[1] سورة البقرة الآية: ٢٦٢.

ولد الشيخ بهاء الدين زكريا بقلعة كوت من قرى ملتان، سنة ست وستين، وقيل: ثمان وسبعين وخمس مأة، وأمه بنت الشيخ الكبير حسام الدين الترمذي، أحد كبار العلماء والشيوخ في زمنه، ولما بلغ الشيخ بهاء الدين الثانية عشرة من عمره توفي والده فسافر إلى بخارى حيث اشتغل باكتساب العلم من كبار الأساتذة والشيوخ، ثم سافر إلى الحجاز فحج البيت وزار مسجد الرسول في المدينة المنورة وأقام بها خمس سنين يأخذ فيها الحديث الشريف عن الشيخ كمال الدين محمد اليماني[1] حتى علا كعبه، وانتشر صيته في فن الحديث، واشتهر في الناس بلقب المحدث، وجعله الله إماماً كبيراً، وعالماً خبيراً، ومحدثاً شهيراً، انتفع به الخلق، واهتدى به الناس إلى طريق الحق والعلم.

وعندما تم له في الحجاز ما أراد من الحج والزيارة وأخذ العلم، توجه إلى القدس فزار المسجد الأقصى ومشاهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن القدس عاد إلى بغداد باحثًا عن من يبايعه، ويتخذه مرشداً يكتسب منه علم الباطن، ويقتبس منه قبسة من أنوار العلوم الروحانية، حتى حقق الله أمنيته هذه على يد الشيخ الكبير شهاب الدين عمر بن السهروردي صاحب العوارف[2]، فنهل من مناهل علومه وعلَّ، واستطاع في مدة قليلة

---

[1] كمال الدين محمد اليماني مدرس المسجد النبوي بالمدينة المنورة، أخذ عنه الشيخ بهاء الدين درس الحديث واستفاد منه استفادة كاملة.

[2] الشيخ شهاب الدين عمر السهر وردي ولد في سنة ٥٣٩هـ، وأخذ العلم من عمه والشيخ الكبير عبد القادر الجيلاني، فقال عنه الجيلاني: ياعمر! أنت آخر المشهورين بالعراق، كان اسم=

أن يبلغ إلى درجة الإرشاد والسلوك العليا ، وأن يتهيّأ لإفادة الخلق الغافلين ورجع إلى ملتان ، إلى وطنه الذي بدأ منه رحلته العلمية بعدما أتم دراسته للعلوم الظاهرة والباطنة ، وجمع من الفضائل والعلوم مالم يدركه أحد في زمنه ، رجع الشيخ بهاء الدين[1] إلى ملتان ناجحًا مسروراً ، مغتبطا على ما آتاه الله من ثروة العلم والعمل ، ورزقه الله من نعمة فهم الدين ومقتضياته ، واشتغل بإرشاد الناس وهداية الخلق إلى سبيل كلها خير وصلاح ، كأنه ينادي بلسان الحال ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[2]

=والده محمد بن عبد الله ، تبحر في التفسير والحديث والفقه والفنون الأخرى ، تصدر مسند عمه سنة ٥٦٤هـ ، وأفاد الناس من علمه الغزير واطلاعه الواسع ، ، وتجاذب الحديث حول الصوفية ، كان من كبار خلفائه الشيخ نجم الدين علي ، والشيخ نورالدين مبارك ، والشيخ جلال الدين التبريزي وغيرهم ، من مؤلفاته : جذب القلوب في مواصلة المحجوب ، عوارف المعارف ، أعلام الهدى ، توفي في سنة ٦٣٢هـ .

[1] زكريا بن محمد بن علي القرشي الأسدي ، الشيخ الإمام العالم المحدث ، شيخ الإسلام بهاء الدين بن وجيه الدين الملتاني المتفق على ولايته وجلالته ، ولد بقلعة " كوت كرور " من أعمال ملتان يوم الجمعة ٢٧من رمضان سنة ست وستين وخمس مأة ، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره توفي والده ، فسافر إلى بخارى وأخذالعلم بها عن كبار الأساتذة ثم سافر إلى الحجاز فحج وزار وأقام بالمدينة المنورة خمس سنين ، وأخذ الحديث عن الشيخ كمال الدين محمد اليماني ثم رحل إلى القدس الشريف وزار المسجد الأقصى ومشاهد الأنبياء ، ثم رحل إلى بغداد وأخذ الطريقة عن الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي ، ثم إلى ملتان وتصدر للإفادة ، فرزق من القبول مالم يرزق أحد من المشايخ ، وكان قدمنحه الله أموالا غزيرة ، إنه كان رئيس الأولياء ، ببلاد الهند ، وكان عالما بالعلوم الظاهرة ، صاحب أحوال ومقامات من مكاشفات ومشاهدات ، ومن وصاياه : سلامة الجسد في قلة الطعام ، وسلامة الروح في ترك الأنام ، وسلامة الدين في الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام ، كانت وفاته يوم الخميس سابع صفر سنة ست وستين وست مأة ٦٦٦هـ ، له مأة سنة من العمر ، وصلى عليه ولده صدر الدين محمد ، ودفنوه في حصار ملتان .

[2] سورة النحل الآية : ١٠٨ .

يحكي التاريخ أن الشيخ بهاء الدين زكريا حينما بدأ عمله وجهاده من الإرشاد والهداية التف حوله جمع عظيم من خلق الله ، وتهافت عليه الناس من كل قرية ومدينة تهافت الظمآن على الماء ، وكان ذلك من أجل ما رزقه الله من القبول مالم يرزقه أحدًا من المشايخ والعلماء في عصره .

كما منحه الله تعالى كنوزاً من الأموال والعقار يستعين بها في خدمة العلم والدين وينفقها على المستحقين من طلبة العلم والفقراء والمساكين ، وبذلك جمع بين فضيلتين : فضيلة التعليم والتوجيه ، وفضيلة إنفاق المال فيما تدعو إليه الحاجة الدينية ، وتقتضي به الظروف والأحوال ، وهي لا شك مأثرة عظيمة خالدة على صفحات الدهر يقل نظيرها في التاريخ .

إن للشيخ زكريا بن محمد شأناً أي شأن في السلوك والمعرفة ، فقد قام بالبيعة والإرشاد قياماً لم يوفق إليه أحد من معاصريه ، وهو مع ذلك كان محدثاً كبيراً ، يعلم أتباعه ومريديه علم الحديث والفقه ويدرسهم بنظام وترتيب ، فكان يتخرج من مدرسته طلاب يجمعون بين علوم الكتب وعلوم السلوك والمعرفة ، وبين العلم والعمل ، وكانوا خير نموذج لمن يطلب العلم كي يعمل به ، ويطبقه على حياته .

يقول الشيخ محمد نور الحسن في كتابه " سلسلة الذهب ": "إنه كان رئيس الأولياء ببلاد الهند ، وكان عالمًا بالعلوم الظاهرة ، صاحب أحوال ومقامات من مكاشفات ومشاهدات ، مرشدًا

يتشعب منه كثير من طرق الأولياء، وله في الإرشاد وهداية الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة ومن النفسانية إلى الروحانية شأن كبير".

ومن وصاياه: إن الواجب على العبد أن يعبد الله بالصدق والإخلاص وذلك بنفي الأغيار، ومحو الأشخاص في العبادات والأذكار، ولا سبيل إليه إلا بتحسين الأحوال، ومحاسبة النفس في الأقوال والأفعال، فلا يقول ولا يفعل إلا عند الحاجة، ويقدم لكل قول وفعل الالتجاء إلى الله، والاستعانة به ليرزقه الله عز وجل خير العمل.

ومن وصاياه لبعض أصحابه: عليكم بدوام الذكر، وبالذكر يصل الطالب إلى المحبة، والمحبة نار تحرق كل شيء دنس، فإذا تحققت المحبة كان الذاكر ذاكرًا مع مشاهدة المذكور، وهذا هو الذكر الكثير الموعود به الفلاح في قوله تعالى ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]

ومنها: "سلامة الجسد في قلة الطعام، وسلامة الروح في ترك الأنام، وسلامة الدين في الصلاة على محمد ﷺ"[2].

وحياته كلها مرآة صافية تتجلى فيها جميع مخايله الإنسانية الرفيعة التي تغذي العقل والعاطفة بغذاء روحي دسم يتمكن به

---

[1] سورة الجمعة الآية: ١٠.

[2] نزهة الخواطر ج ١٥٨/١، وقد طبع هذا الكتاب في حُلّةٍ قشيبة باسم: "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" في ثمانية مجلدات من دار عرفات رائ بريلي (الهند)، وصدرت طبعته الجميلة من دار ابن حزم بيروت لبنان، في ثلاثة مجلدات سنة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩ م.

الإنسان من إسعاد الحياة ، وترفيه العيش وتطهير النفس وتزكية القلب ، ويستطيع أن يرى حياته في هذه المرآة فيزينها بإزالة كل دنس ، واستعمال كل زينة ، فإن الإيمان القوي يزكي الحياة ويجليها حتى يجعلها مرآة صافية لكل مؤمن كما جاء في الحديث الشريف:"المؤمن مرآة المؤمن [1]".

ونستطيع أن نقوم أمام هذه المرآة الصافية فنطلع على ما ينقصنا في الحياة وما أصابنا من المكروه والأذى فنتطهر من جميع ذلك ونصلح كل عوج وفساد .

توفي الشيخ بهاء الدين زكريا بعدما عاش مأة سنة كوامل ، يصلح ويقيم ويوجه ويرشد ، طوال عمره ، واستأثرت به رحمة الله سنة ٦٦٦ هـ ، ودفن في حصار ملتان القديم رحمه الله ورضي عنه [2] .

[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوط من ورائه ، باب في النصيحة والحياطة سنن أبي داؤد ، كتاب الأدب :٤٩١٨ .

[2] استفدنا في هذا المقال من كتاب نزهة الخواطر ج/١ للعلامة عبد الحي الحسني رحمه الله .

الشيخ قطب الدين الكعكي

(توفي عام ٦٣٣هـ)

في عهد السلطان شمس الدين الألتمش أشرقت دهلي عاصمة بلاد الهند بقدوم الشيخ قطب الدين الكعكي، ذلك الرجل الكبير الذي كان بمثابة منارة نور يهتدي بها السالكون في ظلام الليل الحالك، ويستنيرون بها الطريق إلى منازلهم، إنه لم يكن منارة نور لعامة الناس فحسب، بل وقد عم ضياؤها حتى وصل إلى البلاط والملك والسلطان واستضاء الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم، فقد كان الكل في حاجة إلى النور بعدما عاش في الظلام دهرا، وكان الجميع ينتظر انبثاق الفجر بعدما طال عليه الليل بظلامه.

وبينما كان الشيخ معين الدين السجزي يبلغ رسالة السماء إلى أهل الأرض في أجمير، وينور القلوب المظلمة بنور الإيمان والمعرفة والحب كان الشيخ قطب الدين الكعكي يشحن القلوب إيمانا ومعرفة في دهلي ويرشد التائهين إلى سبيل الأمن والعزة، فكم من قلوب أنارها بنور الحق، وكم من عقول صقلها بمعرفة الله عز وجل، وكم من أذهان مغلقة فتحها للإيمان واليقين.

إنه كان من كبار أولياء الله أجازه الشيخ معين الدين السجزي وهو لم يتجاوز سن العشرين، فانقطع إلى الله سبحانه

بقلبه وقالبه ، واشتغل بدعوة الخلق إلى الله وتربية الناس على معان كريمة من الإيمان واليقين والتقوى حتى أنشأ جيلا مسلمًا ، داعيًا إلى كلمة الإسلام ، عاكفاً على عبادة الله ، مشتغلا في نشر رسالة الإسلام ، وتنفيذ شريعته في المجتمع الإسلامي .

ولد الشيخ قطب الدين الكعكي في " أوش[١] " وتوفي والده وهو ابن سنة ونصف فلم يحظ بعطف والده كمال الدين الكعكي ، ولّما بلغ الخامسة من عمره دخل الكتاب وتتلمذ على يد الشيخ أبي حفص المعلم الأوشي ثم ارتحل إلى بغداد وأدرك الشيخ الكبير معين الدين السجزي في مسجد الفقيه أبي الليث السمرقندي[٢] فلازمه مدة من الزمان وفاز منه بالخلافة .

وقدر الله له أن يهاجر بلاده إلى الهند ويتخذها موطناً فسافر إليها مغادرًا كل شيء من الأهل والمال ، وذلك في عصر أصيب فيه العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، بالفتنة التترية التي تقشعر من ذكرها الجلود ، والتي لا تزال تعد أبشع جريمة ارتكبها الهمج الرعاع وتذكر في التاريخ بأقبح ذكر ، ولعل ذلك هو الباعث على مغادرة بلاده إلى بلاد الهند التي كان يحكمها فتى شهم من الفتيان المسلمين وكانت له مواقف محمودة في خدمة

---

[١] مدينة بنواحي فرغانة في حدود ما وراء النهر .

[٢] الإمام الفقيه المحدث الزاهد ، أبو الليث ، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي ، صاحب كتاب : " تنبيه الغافلين " يروي عن محمد بن الفضل ، وروى عنه أبو بكر محمد بن عبد الرحمن الترمذي توفي ، في جمادى الآخرة سنة ٣٧٥ هـ .

العلماء والمشايخ لأجل بث الدين الحنيف في الهند الوثنية أعني به السلطان شمس الدين الألتمش .

ولكن العامل الأقوى في هجرته إنما هو وجود شيخه الكبير معين الدين في الهند فهو الحافز الأصلي على ما اختاره الشيخ قطب الدين من هجرة الوطن وترك الأهل والأصحاب ، فلما وصل إلى دهلي أقبل عليه الناس بعدما رأوا فيه عارفًا كبيرًا وعالمًا زاهدًا والتفوا حوله وتلقوه بقبول حسن .

واجتمع عنده حشد كبير من مريديه ومحبيه ، ولم يزل يتزايد إقبال المسلمين عليه حتى وجد ذلك في نفس شيخ الإسلام نجم الدين الذي كان من كبار أولياء الله والعارفين في دهلي آنذاك[1] ، وشكا ذلك إلى الشيخ معين الدين حينما جاء إلى دهلي لزيارة تلميذه ومريده الشيخ قطب الدين ، فطلب منه أن يغادر دهلي إلى أجمير حيث يشتغل في إفادة الخلق وإرشاد الناس ، وقال له : إني سأكون لك خادمًا مطيعًا واقفًا لخدمتك في كل حين .

لقد قال ذلك الشيخ معين الدين رئيس العلماء والشيوخ وإمام العارفين في عصره ، لتلميذه ومريده الشيخ قطب الدين ،

---

[1] نجم الدين علي برغش : كان أول من ساهم في نشر الطريقة السهروردية في العجم ، وكان من كبار خلفاء شهاب الدين السهروردي ، كانت خوارزم مسقط رأسه ، ويلقب بالطامة الكبرى ، لأنه كان شغوفا بالمناظرة والجدل ، فكلما ناقش أحدا فضحه أمام الناس بالحجج القاطعة ، كانت وفاته ١٠ جمادى الأول سنة ٦١٠هـ في خوارزم ، كان من أكبر خلفائه الشيخ مجد الدين البغدادي وبابا كمال الجنيدي .

إنه لم يسمح بما أبداه من عواطف الخدمة والوقوف عنده كتلميذ خاشع ، ولم يحتشم بهذا التواضع أمامه ، وكيف يحتشم وقد بلغ ذروة عليا من الإحسان والمعرفة ، وكيف يستحي وهو يعتقد أن التلميذ فاقه بدرجات وسبقه في مجال المعرفة والولاية والسلوك ، وكيف لا يعترف بعجزه وضعفه وهو عبد خاشع يزن الأشياء في ميزان قبولية الله ورضاه ، إنه ينظر إلى الشيخ قطب الدين ذلك التلميذ الذي علمه مبادئ السلوك والمعرفة وأجازه في مسجد الفقيه أبي الليث السمرقندي في بغداد بمنظار علمه ومعرفته ويجده متبوءاً منصبًا أعلى من منصبه وشاغلا أكبر فراغ في سبيل خدمة الدين وتبليغ رسالة الإسلام ، وهو مع ذلك لا يحب أن يكتئب من أجله شيخ الإسلام نجم الدين ، ولا يرضى بحدوث أدنى اختلاف في جماعة العارفين وصفوفهم ، لأن ذلك يؤدي إلى فساد المجتمع واضطراب الأحوال ، توسم الشيخ معين الدين كل ذلك ، ولم يرد أن يطلع الشيخ قطب الدين على شكوى شيخ الإسلام فيجد الحزن والكآبة إلى قلبه سبيلا.

ولكنكم هل تعرفون كيف ردّ الشيخ قطب الدين على شيخه معين الدين عندما طلب إليه مغادرة دهلي إلى أجمير حيث مقره ، وعرض عليه خدمته ، قال الشيخ قطب الدين :

"ياسيدي ! إنني لست أهلا للوقوف أمامك فضلا عن الجلوس عندك " فأمره الشيخ معين الدين بالسفر إلى أجمير وأطاعه وسار معه وما أن خرجا من المدينة إذ قامت في دهلي

قيامة وارتفع الضجيج والعويل على مفارقة الشيخ قطب الدين مدينة دهلي وتبعه الناس ومعهم السلطان شمس الدين ليسترجعوه إلى دهلي ، وكانت أصوات البكاء والصراخ ترتفع ، ولما رأى الشيخ معين الدين أن الله تعالى قد وضع للشيخ قطب الدين قبولا عامًا في قلوب الناس ، وهم لا يستطيعون أن يحتملوا فراقه ، علم أن ذلك أمر من عند الله ، ورد الشيخ قطب الدين إلى دهلي قائلا :

"اذهب يا شيخ بختيار! إلى حيث جئت وأقم هناك ، فإن خلق الله مضطرب لفراقك ، ولا يجوز لي أن أحزن القلوب وأتركها على مضض ، فارجع فقد تركت هذه المدينة (دهلي) تحت خدمتك ورعايتك " وشكر الناس والسلطان للشيخ معين الدين على هذه المنة ، ورجع الشيخ معين الدين إلى أجمير ، ورجع الشيخ قطب الدين إلى دهلي ، حيث اشتغل بإفادة الناس وإرشاد خلق الله وخدمة الدين الحنيف وإعلاء كلمة الحق مستغنياً عن السلطان مقتنعا بما رزقه الله من القبول الحسن مع الفقر وشدة الحال فلم يعد فقير ولا غني ولا أمير ولا رعية إلا وقد خضعوا أمامه ، وتعلموا منه دين الله .

يقول الشيخ عبد الحق المحدث[1] صاحب "أخبار الأخيار" "إنه شغل الدنيا كلها باهتمام دعوته، ودعا له العلماء والأمراء والأئمة جميعا"، أما سلطان شمس الدين الألتمش فقد كان من أكبر الملوك في عصره ودانت له بلاد الهند كلها ولكنه كان يستأذن على الشيخ قطب الدين ويدخل زاويته الفقيرة ويسلم عليه تسليم العبد المطواع لسيده، ويكبس رجليه ويخدمه ويبكي حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف.

إن عمل الدعوة والتجديد في حقل الدعوة الإسلامية كان أصعب شيء في عصره اجتمع فيه رؤوس علماء العالم الإسلامي وأساتذته وشيوخه وأولياؤه في مركز الهند (دهلي)، وكان أصعب من ذلك عمل التربية والتعليم، وهداية الحكومة الإسلامية الوليدة دون حرص على منصب مهما كان عاليا، ولا نظر إلى الجاه والمال مهما كان كبيرًا، ودون إثارة سخط أو خلاف بين صفوف العلماء والمشايخ

---

[1] عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي، شيخ الإسلام واعلم الأعلام وحامل راية العلم والعمل في المشايخ الكرام، أوّل من نشر علم الحديث بأرض الهند تصنيفاً وتدريساً، ولد في شهر المحرم سنة ٩٥٨هـ بمدينة دهلي، وقرأ القرآن في شهرين أوثلاثة أشهر ثم تعلم الكتابة والإنشاء في شهر واحد، بعد ما أخذ قسطا وافرا من العلم، سافر إلى مكة المكرمة سنة ٩٩٦هـ، وأقام بها ستة أشهر أخذ الحديث بمكة عن الشيخ عبدالوهاب بن ولي الله المتقي، وبالمدينة من الشيخ أحمد بن محمد فأجازا إجازة كاملة وأثنيا عليه، قال القنوجي في "الحطة بذكر الصحاح الستة": إن الهند لم يكن بها علم الحديث منذ فتحها الإسلام بل كان غريبا كالكبريت الأحمر حتى منّ الله على الهند بإفاضة هذا العلم على بعض علمائها كالشيخ عبد الحق الدهلوي، توفي سنة ١٠٥٢هـ.

وتوجيههم إلى نقطة الاتحاد وجمعهم تحت راية توحيد الصفوف والعمل للإسلام بإخلاص النية لله.

ولكن الأسلوب الذي اتخذه الشيخ معين الدين أرضى الجميع وجعل القلوب مقبلة على خدمة الإسلام، وخلفه في ذلك الشيخ قطب الدين وسار بنفس ذلك الأسلوب حتى استطاع أن ينشىء طائفة من الدعاة المخلصين في الهند، ويوطد الطريقة الجشتية التي أسسها الشيخ معين الدين لأغراض دينية بحتة وأهداف إسلامية خالصة، ونجح في مهمة الدعوة والإرشاد إلى حد كبير.

ولو أمهله الزمان ولم يفاجئه الأجل بعد وفاة شيخه معين الدين بمدة قريبة لكان ما تركه من المعالم والآثار وما خلفه من دعاة مرشدين وجماعة ثائرين على كل منكر أضعاف ما كان، ولكنه توفي وهو ابن الخمسين سنة أو ما يزيد قليلا، وخلفه في عمله ودعوته وجهاده الشيخ مسعود فريد الدين الأجودهني، الذي يعتبر بحق متمم الطريقة الجشتية في الهند.

الشيخ أحمد السرهندي

(٩٧١هـ ـ ١٠٣٤هـ)

اختار الله من بين خلقه من يكون مجددا يخلف في تاريخ الهند الإسلامي قصة طويلة لجهاده ومجاهداته، وسلسلة بعيدة من مآثره ومفاخره، فبعثه الله وليا بلغ من الولاية منزلة لا يرام فوقها، وعارفا وصل من المعرفة درجة لا يتصور وراءها، ولولا هذا الشأن الذي ناله، وهذه العزة التي أدركها لم يفتخر بها التاريخ الإسلامي ولم يَجْرِ ذكره على ألسنة الناس رجالا ونساء، شبابا وكهولا.

وكم سمعنا وقرأنا اسم مجدد الألف الثاني، الذي حارب أكبر قوة على وجه الأرض وقام ضد أعظم إمبراطور[1] في عصره، والذي يعد رئيس العلماء والعارفين، وسيد الأولياء والربانيين في الألف الثاني للهجرة، إنه كان نموذجًا كاملا لعالم قوي الإيمان عظيم الجنان، ومثالا نادرًا لولي أحب الله ورسوله بجميع قلبه، فأتى بالمعجزات وصنع من العجائب ما يدهش العقول، ويحير الألباب.

---

[1] الإمبر اطور "أكبر" بن همايون الذي كان من أكبر الملوك في عصره، حكم الهند في فجر القرن الحادي عشر، أكبر بن همايون بن بابر مؤسس الأسرة المغلية، تولى أكبر منصب الخلافة سنة ١٥٥٦م، وابتدأ بخلافته عهد جديد، وقد خاض المعارك وأخضع الجبابرة والطغاة، وتوفي سنة ١٦٠٥م في آجره (الهند).

في بداية القرن الحادي عشر الهجري كان المجتمع الإسلامي في الهند خاصة والعالم الإسلامي عامة قد أصيب بخور في عقيدته ، وضعف في إيمانه ، ونكسة في دينه لم يكن هناك من يأخذ بيده ، وينبهه من رقدته ، ولم يكن هناك من يذكّره بمجده التليد ، ومكانته السالفة ، فقد تسربت القوى الباطلة بجميع أنواعها في المجتمع الإسلامي وقامت على قدم وساق لتعمل عملها في هدم صرح الإسلام ، وبناء صرح الإلحاد والكفر على أنقاض التراث الإسلامي ، وتمتعت هذه القوى الباطلة بحماية الدولة ورجال السلطة فتضاعفت قوتها ، وتقوت كلمتها ، وخيف على الدين من الضياع وعلى المسلمين من الإلحاد السافر .

وتفاقم خطر الكفر والارتداد في المسلمين بوجه عام ، الذي أقلق الشيخ أحمد وأقض مضجعه ، وبدأ يفكر في دفع هذا الخطر العظيم واقتلاع جذوره لتكون كلمة الله هي العليا وتعود إلى المجتمع الإسلامي الهندي ثروة الإيمان والمعرفة ويسود عليه جو من العز والطمأنينة ، إنه أراد أن يحارب هذه القوى الباطلة بسلاح الإيمان وخاض هذه المعركة : معركة الكفر والإسلام ، ومعركة العقيدة والإلحاد ، وواجهها بجنة من الصبر والإيمان القوي ، حتى زحزح كل طاقة قامت أمامه وأخفت كل صوت ارتفع ضده ، ووطيئ كل فتنة بأقدامه ، وخاف منه الملوك والأمراء على ملوكيتهم ورئاستهم فعذبوه بأنواع من التعذيب ، ونكلوه بضروب من الأذى ، ولكنه احتمل كل عقاب وعذاب بغاية من

الصبر والجلادة ، وثبت على مبدئه كالجبل الراسي الذي لا يتزحزح عن مكانه ولا ينحرف عن دعوته ، ولا يحيد عن قوله .

كان الشيخ أحمد حاجة المجتمع الإسلامي في حين أحوج ما كان إليه ، فصادف فيه من يأخذه بيده وينقذه من مهازل الإمبراطورية العفنة ومخاذل الأمراء المتسلطين الذين حاولوا أن يلعبوا بالدين ، ويستهزئوا بالعقيدة ، حتى تذهب هيبة الإسلام من قلوبهم ويبقى الشعب المسلم في الهند أداة تقوم بدعاية البلاط الكاذبة ، وتعبير السلطة بالإسلام اسمًا لا حقيقةً ، حتى تجرؤوا على أن يشتروا الشيخ أحمد بدراهم معدودة ليستغلوه في تضليل المسلمين وتشويه العقيدة الإسلامية ، وذلك لما كانوا يرون من إقبال المسلمين عليه ، وقبوله عند أكثر طبقاتهم آنذاك .

في هذا العصر المظلم الذي بلغ من الجهل والسفاهة والظلم والجور والطغيان درجة لا نتصور فوقها ، وفي مثل هذا المحيط الأسود الذي كان يحارب العقيدة والدين ويخترع دينًا جديداً ، وعقيدةً جديدة ، وكلمة جديدةً إزاء الدين الإسلامي ، كان من الصعب جدا أن يقوم فيه رجل ضعيف لا يتمتع بالرجال والسلاح والجنود بمقاومة الملك والجنود ، ويعلن في الناس بأنه لن يرضى بما ارتضاه الناس خوفاً من البلاط وفرَقًا من الجنود والسلاح ، إنه لن يرضى أبداً بأن الإسلام يخذل ، وكلمة الله تفقد عظمتها ومكانتها ، ويرى أن ملكًا ملحداً يرد الناس عن دينهم ،

ويصرفهم عن عقيدتهم ، ويرى أن علماء عصره يساعدون الملك الجبار في تشويه وجه الدين ويوافقونه على ما يقول ويأمر .

وكان الدين الإسلامي في الهند وما والاها من البلاد يفقد قوته ومكانته للأبد ويحتل مكانه دين جديد ليس من الإسلام في شيء ، وهو دين "أكبر" ، وكلمته التي فرضها على رعيته ، وأعلن فيهم الله أكبر ، معناها أن الإمبراطور " أكبر " هو الله ، ويعترف بذلك جميع من بحضرته فيسجدون له وينكسون أمامه ويطلبون منه ما يطلب من الله ، بدت تقاليد وعادات وعقائد فاسدة تتحكم في الناس وتحل فيهم محل عقيدة دينية .

ولكن الأسلوب الذي اختاره الشيخ السرهندي لدعوته إنما هو أسلوب جذاب عميق التأثير ، قوي الفعل ، وهو طريق الرسائل التي كان يبعثها إلى كبار العلماء ، والوزاء ورجال الدولة والجيش والتي كانت ولا تزال كنوزاً من المعارف والحكم ، فقد تحمل في جنبها معاني عظيمة رائعة للحكمة والمعرفة تُنير السبيل ، وتزيح الباطل وتهيئ في النفس مجالا لقبول الحق والعبرة به .

اتصل الشيخ بالبلاط وأركان الدولة عن طريق الرسائل ، فنال منهم إجلالا وإكراما لقوله ولدعوته ، ووجدهم يحلونه محلا رفيعًا ومكانة عالية ، فازداد نشاطه في المراسلة مع رجال الدولة والجيش ، حتى بايعه منهم عدد كثير ، وأحبوه حباً جماً من صميم قلوبهم لما رأوا فيه من مقت وكراهية للدنيا وحطامها ،

وإقبال على الله والآخرة وانقطاع إلى عمل جدي مثمر لا يعرفه علماء ذلك العصر.

فكانت رسائل الشيخ السرهندى من أبلغ الطرق للدعوة والإرشاد وأعظمها تأثيرًا في القلوب، لما كانت تحتوي على معانٍ جميلة ومفاهيم عالية من الإيمان واليقين تصدر من قلب مخلص وتأخذ بمجامع القلوب ولا تلبث دون أن تؤثر فيها أعمق التأثير، ولا تزال هذه الرسائل مصدرًا للدعاة والعاملين المخلصين، ورائدًا للباحثين عن الحق، والسالكين في جادة السلوك والمعرفة وزينة للمكتبة الإسلامية الزاخرة، وهي في ثلاثة مجلدات كبار باللغة الفارسية البليغة.

يقول في رسالته: "واحزناه، واحسرتاه، وامصيبتاه! إن أتباع محمد وهو محبوب رب العالمين ـ غرباء مهانون في بلادهم، وأعداؤه مكرمون، إن الباطل بارز منصور، وإن الحق مخذول مستور".

ويقول في رسالة أخرى: "لقد أتى على الإسلام والمسلمين حين من الدهر في هذه الديار ـ يعني به عهد الملك أكبر ـ إذا عمل مسلم بحكم شرعي يسجن ويعاقب ويهان ويعذب، الديانات كلها حرة ممتعة بكل حق، لقد شمت بالمسلمين الأعداء وسخروا منهم وأصبحوا هدفاً لكل تجريح وإهانة.

وقد كان شديد الحرص على اتباع السنة، عظيم الكراهية للبدعة، كبير الاجتناب من كل مالا يوافق السنة المطهرة، فكان

من دأبه أن يهتم بالعمل بالسنة في كل حين وآن ، حتى في الأكل والشرب والقعود والقيام والمشي والمنام ، لم ير منه قول أو عمل يخالف السنة طوال عمره ، ويروى أنه طلب مرة من أحد مريديه حبات من قرنفل فلما جاءه بست حبات كره ذلك منه ، وظهر أثره في وجهه وقال في لهجة الكراهية مع الأسف : إن صاحبنا لم يعرف حتى الآن أن مراعاة عدد الوتر سنة ، إن الله وتر يحب الوتر[1] ، وقال : إنني عندما أتوضأ أهتم بغسل الوجه الأيمن أولا لأن التيمن سنة[2].

ولم تمض لمحة حياته إلا في العبادة والدعاء وإرشاد الخلق والدعوة إلى الله والمثابرة على السنن والنوافل والتلاوة والذكر ، وما كان ينام في الليل إلا قليلا ، كان يستيقظ كل ليلة منذ انتصافها ، ويشتغل بالنوافل والدعاء والتوبة والإنابة والذكر إلى وقت الصبح ، وكان يوزع الطعام على الفقراء والمساكين عند فراغه من صلاة الضحى ويحضر مائدته من العلماء والصلحاء والحفاظ ، كل يوم ممن يبلغ عددهم نحو مأة شخص ، وكلما جاء مبلغ من المال وزع منه جزءا على المستحقين كما كان يهتم بأداء حقوق العباد فيعود المرضى ويصلي على الموتى ويربي الأولاد

---

[1] عن علي رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : يا أهل القرآن ! أوتروا ، فإن الله وِتْرٌ يحب الوتر ، سنن أبي داؤد ، كتاب الوتر ، باب استحباب الوتر (١٤١٦).

[2] عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يحب التيمن ما استطاع في شأنه كله ، في طهوره و ترجله وتنعله ، صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب في دخول المسجد وغيره ، (٤٢٦).

والأهل ومريديه تربية حسنة ويؤدي حقوقهم وواجباتهم بوجه أحسن ويقوم بالتدريس والفتيا ما يستفيد منه خلق كثير.

انتشرت عقائد الشيعة في عصره لما كان الإمبراطور جهانكير[١] قد فتح لهم بابه وألان لهم جانبه، وكانوا ذوي حظوظ لديه، فيلتفون حوله ويعينونه في نشر العقائد الفاسدة، فرد الشيخ السرهندي على عقائدهم الباطلة وأزاح الستار عن مكرهم وخداعهم، وثار عليهم بما كانوا يفعلون من محو تعاليم الدين ونشر الإلحاد والفسق حتى أثار ذلك غضب الشيعة، فقاموا بدسيسة لدى الملك وحرضوه على أن يزج الشيخ في السجن، ففعل وأودعه في السجن ومكث فيه سنتين، يدعو السجناء إلى الإسلام، حتى أسلم على يديه في السجن مئات من الوثنيين.

يقول الدكتور آرنلد[٢] في كتابه PREACHING OF ISLAM : " لقد كان في عهد الإمبراطور جهانكير الذي حكم الهند من ١٦٠٥ م إلى ١٦٢٨ م عالم ديني من أهل السنة يسمى

---

[١] أبو المظفر نور الدين جهانكير، ولد سنة ٩٩٧ هـ، تولى الحكومة حينما كان عمر أبيه" أكبر" ٦٥ من عمره السابع والثلاثين، وتوفي سنة ١٠٣٦هـ، دفن على شاطئ نهر راوي في لاهور، كان فيه نوع من سلامة القلب وحسن السيرة ورسوخ العقيدة.

[٢] البروفيسور آرنلد كان أستاذاً في جامعة على جراه الإسلامية أترابراديش (الهند)، فقد صحب العلاّمة شبلي النعماني في رحلته إلى مصر والشام، إلاّ أنه لم يكن رفيقاً في سفره، قد تعلّم العلاّمة شبلي منه اللغة الفرنسية وتعلّم الدكتور أرنلد منه اللغة العربية، فكتاب آرنلد قد ترجمه الدكتور عنايت الله باسم " دعوت إسلام " بالأردوية وطبع عن محكمة أوقاف بنجاب، لاهور.

بالشيخ أحمد المجدد وكان معروفا برد العقائد الشيعية بصفة خاصة ، وبينما كان الشيعة مسيطرين على البلاط ، أرادوا أن يسجن الشيخ أحمد وتحققت رغبتهم هذه إذ ألقاه جهانكير في السجن ومكث فيه سنتين يبلغ إلى السجناء دعوة الإسلام حتى أسلم على يديه مئات من الوثنيين ".

كما جاء في دائرة المعارف ENCYCOPAEDIA OF RELGION AND ' ETHICS ، في سياق البحث عن تبليغ دعوة الإسلام في القرن السابع عشر المسيحي: كان في الهند عالم ديني اسمه الشيخ أحمد المجدد سجن ظلماً وعدواناً ، فقام في السجن بتبليغ رسالة الإسلام إلى السجناء الوثنيين حتى أسلم منهم عدد كبير يربو على مئات ".

ولم تراوده فكرة كسب المعاش أبدا بينما عاش في عهد أعظم ملك في الدنيا ، ذلك الإمبراطور العظيم الذي حاول استرضاءه بأنواع من الحيل ، ولكنه أبى كل ذلك بشدة وتناوله بنقد لاذع على ما كان يبيحه من أمور لا يقرها الإسلام .

عاش الشيخ أحمد السرهندي حياة نظيفة لا يشوبها شيء من الدنيا ، فقد رغب عنها وعن كل مافيها رغبة كاملة وأقبل على الله والآخرة إقبالا من قلبه وقالبه وأقام على الناس حجة على أن غاية خلق الإنسان هي أن يعيش في الدنيا ليمهد السبيل للآخرة ويقدم للغد من يومه زادا يساعده في النجاح الأبدي الذي لا نجاح فوقه .

إن الشيخ أحمد مضى إلى الآخرة ولكنه خلف سلسلة من أعمال وجهاد استفادت منها الأمة الإسلامية ، ولا تزال تستفيد منها واهتدى بها وبأصحابها من بعده خلق كثير لا يحصيهم إلا الله ، وطريقته في التصوف التي كانت تسمى بالطريقة الجشتيه قوي التأثير جداً ، نالت من القبول مالم تنله أي طريقة أخرى ، فقد نمت وانتشرت في العالم الإسلامي كله من نواحى الترك إلى أقصى ثغر بالمشرق بل وإلى المغرب الأقصى مثل " فاس[١]" وغيرها كما ذكره محمد بن عبد الرحمن الفاسي[٢] في كتابه " المنح البادية" وكان الشيخ خالد الكردي[٣] من خلفائه الذي انتشرت به هذه الطريقة في العالم الإسلامي مثل العراق والشام .

وقد رزقه الله تعالى أربعة أولاد ، كلهم من أولياء الله الكبار فقد ظهرت على أيديهم كرامات وإرشادات تندهش منها العقول ، واهتدى بهم خلق كثير من بعده ، بخاصة بلغ الشيخ

---

[١] مدينة مشهور كبيرة على برِّ المغرب من بلاد البربر ، وهي حاضرة البحر ، وأجَلُّ مدُنه قبل أن تُختَطَّ مَراكَشُ : إليها يُنْسَب الشيخ علاّل الفاسي .

[٢] محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر ، أبو عبد الله الفاسي ، فاضل من أهل فاس ، من كتبه : المنح البادية في الأسانيد العالية "و" الكوكب الزاهر في سير المسافر "و" كشف الغيوب عن رؤية حبيب القلوب " واختصر " الإصابة " إلى حرف العين .

[٣] الشيخ خالد الرومي الشهرزوري ، أحد الفضلاء الأكراد ، الذي بلغه صيت الشيخ غلام علي وإرشاده وتربيته في بلاده ، فشد رحله في شوق وحنين واضطراب ، وقطع المفاوز والمسافات الشاسعة حتى وصل في مدة عام كامل إلى دهلي ، فألقى رحله في زاويته ، ولزمها إلى أن أكرمه الله سبحانه وتعالى بعد التربية والسلوك بالإجازة والخلافة ، كان العلامة ابن عابدين من تلاميذ الشيخ خالد الرومي .

محمد معصوم ابنه الثالث درجة عليا من الكمال والمعرفة والربانية حتى يقال: إن عدد مريديه يربو على تسعمائة ألف من الناس.

وله مؤلفات كثيرة تزخر بالعلوم والمعارف والحقائق والرموز، ولا سيما رسائله الرقيقة التي جمعت في ثلاثة مجلدات تعد من أبلغ الرسائل وأعمقها تأثيرًا في القلوب، وهي تصور شخصيته القوية المؤمنة التي يفتخر بها التاريخ الإسلامي في العالم أجمع.

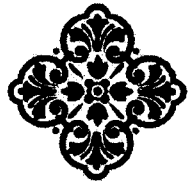

الشيخ محمد معصوم السرهندي

(١٠٠٧هـ ـ ١٠٧٩هـ)

يسعدني في هذه اللحظة أن أتحدث عن الشيخ محمد معصوم السرهندي بعدما تحدثت عن والده الشيخ أحمد السرهندي، ذلك الشيخ الكبير الذي ربى ولده في مهد من الإيمان والعمل وفي جو من الصلاح والتقوى فترعرع رجلا كاملا قويت صلته بالله تعالى ونشأ عارفاً كبيراً اهتدى به خلق كثير وبايعه الناس على الإيمان والإسلام.

إنه نجل الشيخ الكبير مجدد الألف الثاني الذي دعاه الناس بـ "العروة الوثقى"، وكان عروة وثقى لا شك في ذلك، فقد خلف والده في الإيمان والتقوى، وفي إصلاح المجتمع وتزكية القلوب وفي المعرفة والربانية، واستطاع بذلك أن يبلغ رسالته إلى الآلاف من الناس وينور الطريق لعدد ضخم من التائهين وقام بنشر تعاليم النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بعدما كان الناس قد نسوها وأعرضوا عنها، ونهض بإحياء السنن التي كان الزمن قد طواها، واتصل في سبيل ذلك بكل مركز من المراكز واتصل بالملوك والأمراء والشيوخ والعلماء، وقابل كل شخصية في عصره، سواء كانت شخصية السلطان والإمبراطور أو شخصية العلماء والمشايخ أو كانوا عامة الناس ممن لا شأن لهم، وأحدث فيهم تأثيراً عميقاً لدعوته وإخلاصه وجهاده ونصحه.

ومما لا شك فيه أنه كان وارثا لثروة الإيمان التي خلفها الشيخ أحمد السرهندي ، وأمين سره الذي أودعه في نفسه ، فقد شرح الله صدره لبيان العلوم والمعارف الإلهية التي تصل الإنسان بالخالق ، وتُقرِّبه إلى الله سبحانه وتعالى ، إنه اقتفى آثار الشيخ المجدد في الدعوة والجهاد فسدَّ كل ثلمة حدثت بعده ، وأصلح كل فساد نشأ في المجتمع ، ولم يزل قائما بإنارة الطريق وإضاءة القلوب وإعلاء كلمة الحق ورفع شأن الدين نحو نصف قرن ، ولم يدع ناحية من نواحي الحياة والعلوم الإلهية إلا ضرب فيها بسهم أوفر ونصيب أكبر وأزاح الستار عن وجه كل بدعة دخلت المجتمع والحياة ، وعن كل سيئة أحاطت بخاصة الناس وعامتهم .

ولد الشيخ محمد معصوم السرهندي في ١١ شوال ١٠٠٧ هـ يوم الاثنين ، وكانت ولادته فاتحة عهد جديد للشيخ أحمد السرهندي إذ أقبل على تحصيل العلوم التي رفعته إلى منزلة عليا من الإحسان والسلوك والمعرفة ، يقول في إحدى المناسبات : " إن ولادة محمد معصوم حملت إليَّ سعادة وبركة ، فقد قدر الله لي بعد ذلك بشهور أن زرت الشيخ الكبير الخواجه باقي بالله[1] وبايعت على يده وهنا وفقني الله لتحصيل هذه العلوم الروحية والتقرب إليه " .

---

[1] الخواجه الباقي كان من مريدي الشيخ خواجكي الكيني ، ويتصل بالشيخ بهاء الدين النقشبندي ، إنه دعا قبل وفاته جميع أبنائه ونصحهم نصيحة ، توفي ١٠١٢هـ ، وكان عمره أربعين سنة ، وقبره في دهلي .

ومنذ بداية عمره كان يحضر مجالس والده الشيخ أحمد ويستفيد من دروسه ومواعظه في الإرشاد والإحسان، وكان يتقنها ثم يعمل بها ويصوغ حياته في قالبها، يروي الخواجه محمد هاشم[1] في كتابه " زبدة المقامات " عن الشيخ أحمد السرهندي إذ سمعه يقول : " إن محمد معصوم في اقتباسه لنسبتنا وطريقنا واستفادته منها يماثل صدر الشريعة [2] صاحب " شرح الوقاية " في حفظه وإتقانه ما كان يؤلفه جده بلا تأخير " وكان الشيخ المجدد يقول لولده الشيخ محمد معصوم :" يا بني! إنك فينا مرجو، ونحن في حاجة إلى أن نستخدمك في أعمال جليلة وننتظر فراغك من دراسة العلوم لهذه الأعمال ".

وحقق الله أمنية الوالد فبرع الشيخ محمد معصوم في العلوم العقلية والنقلية، وهو لم يتجاوز سن السادسة عشرة، وحفظ القرآن بعده في ظرف ثلاثة أشهر فقط وقيَّض الله له اكتساب المعارف الربانية في إشراف والده العظيم، حتى تمكن من اجتياز مراحل السلوك والنجاح فيه في مدة قليلة، وتشرف بالخلافة والإجازة لإرشاد الناس وإصلاح الأحوال.

---

[1] اسمه الكامل الخواجه محمد هاشم الكشمي، وكتابه هذا " زبدة المقامات " بالفارسية، طبع في " محمود بريس " لكناؤ.

[2] عبيد الله بن مسعود بن تاج الشريعة، وهو صدر الشريعة الأصغر البخاري الحنفي، من علماء الحكمة والطبيعيات وأصول الفقه والدين، فقيه، دفن في شرع آباد بخارا عام ٧٤٧هـ - المصادف سنة ١٣٤٦م وله "تنقيح الأصول" و "التوضيح في حل غوامض التنقيح" و"شرح الوقاية".

وعندما توفي الشيخ المجدد سنة ١٠٣٤ هـ آل إليه منصب الإرشاد والإصلاح وخلفه في جميع أموره، وأفاد الخلق بعلومه وأعماله وآرائه السديدة ونظرته الواسعة وقلبه الكبير واستفاد منه الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم، وتباعد ديارهم وأوطانهم، ولم يبق من الملوك والأمراء والشيوخ والعلماء، ورجال الحكومة والمناصب العالية، ولم يفت من عامة الناس وخاصتهم إلا وقد نهل من منهله الروحي العذب، واغترف من بحر معارفه وعلومه ما وصل به إلى درجة عليا من العز والكرامة في الدين والدنيا.

يشهد التاريخ أن ثلاثة ملوك من الدولة المغولية ذات السلطة والقيادة في عهدها حضروا متتابعين لدى الشيخ محمد معصوم يطلبون البيعة على يده، وهم جهانكير وشاه جهان[1]، وأورنك زيب، فبايعهم على الإسلام والإيمان، وإخلاص العمل والعبادة لله وبالأخص أورنك زيب فقد كان تلميذ الشيخ محمد معصوم في القصر، درسه عندما كان صبياً، فكان لدورسه تأثير أي تأثير في نفس أورنك زيب، ولعل ذلك هو السبب الوحيد في نشأته صوفياً زاهداً في حطام الدنيا، راغباً عن الأموال

---

[1] شاهجان: خامس ملوك المغل في الهند، وابن جهانكير، حكم ١٦٢٧م ١٦٥٨ م خلفه ولده أورنك زيب، وتوفي بعد أسر دام عشر سنين، عرفت في عهده امبرا طورية المغل عصرها الذهبي وبلغت ذورة مجدها، شيد القلعة الحمراء وتاج محل ومساجد كبيرة.

والمناصب حتى إذا تبوأ على منصب السلطان أقبل على إصلاح الأمور وتسيير دفة الحكومة وفق الدستور الإلهي والتشريع الإسلامي ، وقد نجح في ذلك فعلا إذ أدخل في نظام الحكومة تغييرات وتعديلات تمكن بها من إنجاز جلائل الأعمال والخدمات التي لم تتيسر لأي ملك من المغول ، بل ولم يستطع أي سلطان ولا امبراطور ولا ملك من الملوك في ذلك العصر وبعده أن يقوم بمثلها أو ما يقارب منها .

لقد كتب الشيخ مراد بن عبد الله القزاني[1] في كتابه " ذيل الرشحات " وهو يتحدث عن الشيخ محمد معصوم وعلو كعبه في التصوف ومحاربته الباطل والمنكرات .. " إنه كان آية من آيات الله مثل والده الماجد ، وقد نور العالم وبدد ظلمات الجهل والبدع بيمن توجيهاته العلية وأحواله السنية ، وصار ألوف من الرجال محرما للأسرار الخفية وتحققوا بالحالات السنية بشرف صحبته العلية ، حتى قيل : إن جميع من بايعه في الطريقة تسعمائة ألف ، وعدد خلفائه سبعة آلاف ، منهم الشيخ حبيب الله البخاري[2] .

---

[1] محمد مراد بن عبدالله القازاني المكي الحنفي ، فاضل ، من فقهاء الحنفية ، له اشتغال بالتاريخ ، ولد في قازان ، وجاور بمكة أكثر من أربعين سنة ، ورحل إلى روسيا قبيل الحرب العالمية الأولى ، ومنها إلى الصين الشمالية فأقام بها في بلدة جوكاجك ، إلى أن توفي سنة ١٣٥٢هـ ، وقد جاوز التسعين ، من كتبه : " الرشحات " و " الدرر المكنونات " و"مشايعة حزب الرحمن " .

[2] كان من أعظم مشايخ خراسان وما وراء النهر في زمانه ، تنورت بخارى بنور السنة بعدما غشيتها ظلمة البدعة ، وشرف الخلافة والإجازة أربعة آلاف من مريديه بعد إيصالهم إلى=

وهناك قائمة طويلة لأسماء من نهلوا من عينه الثَّرِّ من كبار أعيان المجتمع وخواصه الذين كانوا يشغلون مناصب عالية في حياتهم ، وقد أفاد كلهم من الشيخ محمد معصوم إفادة كان لها تأثير عميق في الحياة العامة يوم ذاك .

وقد اقتفى والده في توجيه الرسائل إلى عظماء الناس الذين كان لهم نفوذ في المجتمع أو كانوا ذوي صوت مسموع في وسط أو محيط خاص ، وهي تحتوي على معان عالية وبيان واضح للعقائد والكلام ، والعبادات والمعاملات ومكانة الإحسان والتقوى ، وتدور حول تزكية النفس وتهذيب الأخلاق والتوصل إلى الله بصالح الأعمال والتقرب إليه بإخلاص النية في كل عمل .

وبعد ... فهذه عدة سطور عن الشيخ محمد معصوم الذي كان له أوفرسهم في بناء مجتمع إسلامي أفضل في الهند والعالم الإسلامي ، إيجاد جو من الإيمان والورع والزهادة والإيثار والتضحية في ذلك المجتمع الأفضل الذي أقامه على أساس كلمة الإسلام المتين ورفعه على أنقاض الكفر والبدع والمنكرات .

=رتبة الكمال ، توفي سنة ١١١٠هـ ، كان ملك بخارا من المعجبين به ، وقد أثنى عليه الإمام حفص قائلاً :

كفى بالمرء عزّاً وافتخارا
بأن قد كان مثواه البخارا

حقيقة الحقائق معرفة الله

رسالة للشيخ محمد معصوم
السرهندي إلى كل من يريد
الحقيقة ويعرض عن الصورة
ويبحث عن الواقع ويكره
المظاهر الجوفاء

بعد ما حاولت إنارة جانب من حياته الحافلة بجهاد طويل وكفاح مرير، الحياة التي قضاها كلها في نشر دعوة الإسلام وبث رسالته إلى المجتمع الهندي، وأنفق كل لحظاتها في دعم أساس الإيمان في القلوب وإعلاء كلمة الله في العالم.

يدين مجتمع الهند الإسلامي لهذا الشيخ الكبير ـ وحُق له أن يدين ـ في بقاء جمرة الإيمان في القلوب، وانتقال شرارته من قلب إلى قلب، ومن نفس إلى نفس، فإن غراس الإيمان والإخلاص الذي غرسه في هذه البلاد آتى أكله كل حين بإذن ربه، ولا يزال يشعل النفوس غيرةً وحماسة، ويوقد مجامر القلوب الخامدة نورا وضياء.

ومما قام به الشيخ محمد معصوم في سبيل إصلاح المجتمع وتقويم القلوب، وتربية النفوس، طريقة تعلمها من والده الشيخ أحمد السرهندي في توجيه الرسائل إلى كبار البلاد، وعظماء الحكومة، ورجال العلم والدين، وهي تحمل في جنبها من العلوم الجمة، والمواد الغزيرة والمعاني الرفيعة ما لا يفقد قيمتها وبهاءها، ولا ينقصها رواءها وتأثيرها على مر الأيام والليالي، إنها تتحدث عن

قضايا هامة ومسائل علمية وتعالج مشكلات الحياة والنفوس ، وتبين مدى عظمة نبوة محمد ﷺ وعلو مكانته ، وغاية رسالته التي جاء بها من عند ربه ، وقيمة دينه الذي كان خاتم الأديان كلها وناسخ الملل قبله .

وإلى القراء رسالة تجمع بين حقيقة الإيمان والمعرفة وسر خلود الأعمال إذا كانت عن حسن نية وصلاح قلب وزهادة نفس ، وهي التي تريدها الشريعة الإسلامية من متبعيها ويطالب بها الإيمان الخالص من المؤمنين .

يتحدث الشيخ عن المعرفة الحقيقية ويتبسط في الكلام وتأخذه نشوة الحب والغرام وتشتعل فيه نار المحبة والهيام فيخوض في معاني الإحسان وينزل إلى أعماق القلب ويقول :

"إن الغاية التي تهدف إليها هذه الحياة إنما هي الحصول على معرفة الحق ، وهذه المعرفة على نوعين اثنين :

(١)المعرفة التي يشرحها العلماء الكبار .

(٢)المعرفة التي يمتاز بها الصوفية والعارفون عن غيرهم .

أما الأولى فلها علاقة بالنظر والروية وطريق الاستدلال ، ولكن الثانية تتعلق بالكشف والشهود ، إن الأولى تدور حول العلوم وتبحث عن التصور والتعقل ، والثانية تدخل في " دائرة الحال " وتبحث عن التحقيق والشهود كما أن النوع الأول من المعرفة لا يملك على وجود العارف ولا يقطع صلته عن نفسه ، ولكن النوع

الثاني يمتلك وجود العارف ، ويفنيه في ذاته ، إن الأول من نوع العلم النظري الذي يوجد بالاجتهاد والاكتساب ، والثاني ما له علاقة بعلم الحضور والشهود الذي ينقطع به العارف عن كل شيء ويفنى في الحب الإلهي ، إن المعرفة الأولى توجد مع الصراع النفسي وإنكار الذات لأن النفس لا تزال متصفة بالصفات الخسيسة ولا تخرج عن دائرة التمرد والعناد إلى حد الآن ، لذلك فالإيمان في هذه الحالة إنما هو صورة الإيمان دون حقيقته ، وللأعمال الصالحة فيها صورتها لا حقيقتها ، ولأجل ذلك تكون نفس الإنسان في مثل هذه الحالة لم تتخلص عن الشوائب والعلائق ، فتتمادى في معصية الله سبحانه وتعالى دون شعور منها بذلك في أكثر الأحيان ، ويسمى هذا الإيمان " الإيمان المجازي " الذي لا يخلو من النقص والفتور ولا يأمن زوال تأثيره وانقطاع مادته .

وأما النوع الثاني من المعرفة فإنه يذيب العارف ويفنيه وينتج له إسلام النفس ويكون العارف بالله السالك طريقه في هذه المرحلة مأمونا في الإيمان من كل خلل أو نقص أو زوال تأثير ، وهناك تتجلى حقيقة الإيمان وحقيقة صالح الأعمال ، والحقيقة لا تزول أبدا في أي حال ، وإنما هي دائمة باقية نامية في كل حين ، وإلى هذه الحقيقة أشار الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [1] .

---

[1] سورة النساء الآية : ١٣٦ .

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل[١] يطلب هذا الإيمان الحقيقي فاضطر إلى أن يبايع بشرا الحافي[٢] ويعتبره مرشدا ويسير في ركابه كتلميذ متواضع حقير، ويخدمه كما يخدم الغلام مولاه بالرغم من منصبه العالي الذي كان يتبوأه في العلم والتفقه والاجتهاد. وقد سئل عن ذلك فقال: " إن بشرا الحافي أعرف بالله من أحمد بن حنبل ".

وهذا الإمام أبو حنيفة[٣] الذي يسمى بالإمام الأعظم لم يسع له البقاء على حاله من البحث والتحقيق والتفقه والاجتهاد رغم علو مكانته في العلم وبلوغه إلى درجه الكمال في الزهد والتقوى والخشية والإنابة ولكنه لم ير كل ذلك كافيا لوصوله إلى الله فأقبل على تحقيق هذه الغاية (معرفة الله وحبه) في سنتيه الأخيرتين واعترف بأهميتها وقيمتها في الحياة فقال: " لولا السنتان لهلك النعمان ".

ومن الذي لا يدري أن الإمام أبا حنيفة لم يكن عالما فقط، وإنما كان قد ضرب بسهم وافر في الأعمال أيضا وبلغ فيها إلى أعلى درجة، وهل هناك درجة أعلى من الاجتهاد والتفقه في دين الله ؟ وهل تبلغ طاعة مبلغ تعليم علوم الدين وتدريسها للناس ؟

---

[١] إمام الأئمة وحافظ الأمة وفقيهها أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي، ولد في بغداد سنة ١٦٤هـ، وطاف البلاد والآفاق في طلب الحديث حتى توفي ٢٤١هـ ببغداد.

[٢] بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي، من كبار الصالحين له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث من أهل مرو، سكن بغداد، ولد عام ١٥٠ هـ، وتوفي عام ٢٢٧هـ.

[٣] أبو حنيفة ثابت بن النعمان أدرك أربعة من الصحابة: أنساً وعبد الله بن أبي أوفى وسهل بن سعد الساعدي وأبو الطفيل عامر بن واثلة، كان عالماً، عاملاً، زاهداً، ورعاً، ولد سنة ٨٠ هـ، وتوفي سنة ١٥٠ هـ، كان من كبار حفاظ الحديث وأعيانهم.

ولكنه لم يبال بأي شيء من ذلك ولم يجد فيه كفاية لنيل غايته فالتفت إلى تكميل حاله من معرفة الله والحضور أمامه بالقلب والروح .

فلنعلم أن الأعمال تنال من القبول والحظوة أمام الله تعالى إذا كان الإيمان مكتمل الجوانب ، راسخة حقيقته في النفس ، داخلة بشاشته في القلب ، وأن الأعمال تتنور بكمال الإخلاص لله ، وكلما كان الإيمان والإخلاص أكمل كانت الأعمال أكثر ضياء وأعظم قبولا لدى الله تعالى .

إن كمال الإيمان والإخلاص كل ذلك له علاقة بالمعرفة الخالصة ، والمعرفة ترتبط بالتفاني في حب الله ، فمن كان أرسخ في عاطفة الحب والتفاني يكون أكمل في الإيمان ، فإن كفة إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحده راجحة على كفة إيمان الأمة كلها ، لأنه حمل من عاطفة الحب والتفاني ما لم يضارعه فيه أحد حتى الأمة الإسلامية كلها لم تستطع أن تمثلها .

وملخص كلامي أن ينتبه لهذه المعاني كل شخص ويتأمل في غايته الحقيقية بقلب يملؤه الصدق والإخلاص ، وكل من رزقه الله تعالى هذا النوع من المعرفة والعلم يستحق كل تهنئة وتقدير ، ولا شك هو الذي وصل إلى الغاية القصوى ومثّل حياة الإيمان واليقين وعاش في عبادة وإنابة .

إن الله تعالى يقول ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾[1] والمراد بالعبادة في هذه الآية هي المعرفة الكاملة التي تصل الإنسان بالله تعالى، وتقطع نفسه عن الوشائج المادية والأواصر الدنيوية الضعيفة وتربطه بعتبة الملك الجبار الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً.

وأوصي كل من يحصل على هذه المعرفة أن يجتهد في الحصول عليها بكل ما يملكه من قوة وموهبة، وينفق في سبيلها كل رخيص وغال، ويسرع إلى كل مكان يشم رائحتها فيه.

أسفاً على الإنسان الذي لا يسعى في سبيل المطلوب في الحياة الفانية ولا يهتم باكتسابه اشتغالا بالأمور التافهة التي لا قيمة لها في عين الله تعالى، وأخاف على كل من لم يهتم بغاية الحياة ولم يسع وراءها من شدة حساب يوم القيامة، ويا ليتني عرفت ما سيعتذر به أمام رب العالمين غداً.

[1] سورة الذاريات الآية: ٥٦.

السلطان أورنك زيب

(١٠٢٨هـ ـ ١١١٨هـ)

لست أتحدث الآن عن عارف انقطع عن الدنيا إلى زاويته، وأخذها مركزا لدعوته وإرشاده، ولا أتحدث عن ملك انقطع عن الآخرة إلى دنياه، واتخذ عرشا يجلس عليه جلسة الإمبراطور يأمر وينهى ويغضب ويرضى، ولكن موضوع حديثي اليوم رجل عظيم له مآثر كثيرة وكبيرة في التاريخ الإسلامي، رجل عاش عيشة، كلها عبرة ودرس، وكلها كفاح وجهاد، ولقد قام وحده بأمور مهمة يصعب على جماعات أن تقوم بها، وأعطى للدنيا مثالا يحير العقول، وللتاريخ نموذجا من أندر نماذج الحياة وأعظمها قيمة وتقديراً، وهو السلطان أورنك زيب عالمكير أعظم ملوك الهند في القرن الحادي عشرالهجري.

إن استعراضا سريعا لحياته تعطينا صورا عديدة ونواحي مختلفة، وكلها عظيمة وجليلة، إنه عالم من علماء الدين بلغ في علمه أرفع درجة بلغها العلماء الكبار، وعارف من العارفين بالله، ورباني تذوق معنى الحياة فاستخدمها كما أمر الله سبحانه وتعالى، وصوفي عرف معنى التصوف والمعرفة فبلغ إلى ذروته، وملك من أكبر الملوك في عصره وأعظمهم في زمنه، قام بتسيير دفة الحكومة قياما لم يوفق إليه إلا قليل من الملوك قبله، أقام دولة

إسلامية في فترة تطول إلى نصف قرن في الهند ، فساد العدل والطمأنينة في البلاد وعاد الأمن والسلام إلى القلوب ، وقوي في عصره الضعيف ، ونهض في زمنه المظلوم ، ونالت الحياة مطالبها ورجعت للمجتمع كرامته وعزه ، وصارت البلاد كلها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب جنة تمتع بها الناس على اختلاف مذاهبهم وديانتهم ، وفردوساً إسلامياً كان فيها لمعاني الحب والرحمة والعدل والرخاء انتشار وذيوع .

وحسبنا كي نعرف علوَّ مكانته في التصوف والإحسان وبلوغه إلى أعلى درجة المعرفة والربانية ، أنه رغم شغله منصب الإمبراطور الكبير الذي لا يشك في كونه منصباً محرجاً ومأزقاً يستحيل للنفس منه أن تخرج نقية برئية ، ولكنه رغم ذلك استبقى على زهده وعفافه ، وحافظ على نزاهته وعظمته بل وقدسية زهده ورغبته عن الدنيا وزخارفها بعد ما آل إليه منصب الحكومة حتى عد من أعظم ملوك الدنيا عَدلا وشجاعة وشفقة على الرعايا وتفقداً لأحوالها ، فقد عمل لإسعاد الناس ، وترفيه الرعية وإقامة العدل ورفع المظالم وقمع شوكة الظالمين المفسدين في الأرض ، أعمالا لم يوجد لها مثال إلا نادرا جدا .

إنه بعدما أعطى للدنيا نموذجا أعلى للحكومة المثالية وقدم لها أعظم مثال لحياة ملك إسلامي ، استطاع أن يجمع بين الحكم والعلم ، والمملكة والمعرفة والسلطان والتصوف ، ويقوم بتأدية حق كل منها أحسن قيام ، كان لا يأخذ من مال الحكومة فلساً

واحدا ولا ينفق على نفسه إلا من كسب يمينه ، فكان يكتب المصاحف بخطه ليعيش بقيمتها عيش الزهد والفقر ويأكل من خبز الشعير ما يسد جوعه .

أليس عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة ؟ بلى! هكذا قال النبي[1] ﷺ ، فمن شاء أن يرى مثال العدل والرحمة ، والشعور بالمسئولية فلينظر إلى هذا الملك الفقير ، والعارف بالله الذي أقام في التاريخ الإسلامي أعظم مثال للعدل والمساواة ، ومنح تاريخ الملوكية أسوة تكاد تكون فريدة في نوعها ، جليلة في شأنها ، عظيمة في قيمتها .

ولنترك المؤرخ يتحدث عن قصة حياته بعدما صار ملكًا بنزاهة وبراعة وأمانة ، يقول المرادي[2] صاحب كتاب " سلك الدرر " : " السلطان المشهور سلطان الهند في عصرنا وأمير المؤمنين وإمامهم ، وركن المسلمين ونظامهم ، المجاهد في سبيل الله، العالم العلامة الصوفي العارف بالله والملك القائم بنصرة الدين الذي أباد الكفار في أرضه وقهرهم وأضعف شوكتهم ، وأيد الإسلام

---

[1] قال العجلوني في كتابه " كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس " ج١ /٥٨: عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة ، رواه الديلمي عن أبي هريرة ، وأسنده من طريق أبي نعيم بلفظ: عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة .

[2] محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني ، أبو الفضل ، المؤرخ ، مفتي الشام ونقيب أشرافها ، بخاري الأصل ، ولد ونشأ في دمشق سنة ١١٧٣هـ ، وولي فتيا الحنفية سنة ١١٩٢هـ ، ونقابة الأشراف سنة ١٢٠٠هـ ، ووقع في سنة ١٢٠٥ هـ ، ما أوجب رحلته إلى حلب ، فتوفي بها سنة ١٢٠٦ هـ ، من أشهر كتبه : "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر".

وأعلى في الهند مناره ، وجعل كلمة الله هي العليا ، وقام بنصرة الدين ، وأخذ الجزية من كفار الهند ، ولم يأخذها منهم ملك قبله لقوتهم وكثرتهم ، وفتح الفتوحات العظيمة ، ولم يزل يغزوهم ، وكلما قصد بلدا ملكها إلى أن نقله الله إلى دار كرامته ، وهو في الجهاد ، وصرف أوقاته للقيام بمصالح الدين وخدمة رب العالمين من الصيام والقيام والرياضة التي لا يتيسر بعضها لآحاد الناس فضلا عنه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكان موزعًا لأوقاته: فوقت للعبادة ، ووقت للتدريس ووقت لمصالح المعسكر، ووقت للشكاة ، ووقت لقراءة الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته ، لا يخلط شيئًا بشيء ، والحاصل أنه كان حسنة من حسنات الزمان ليس له نظير في نظام سلطنة ولا مدان[1] ".

أرأيت كيف يصفه المؤرخ المعاصر بصفات عظيمة تكاد تكون منقطعة النظير في سلطان امتلك دولة واسعة وقوة كبيرة ، ومهابة عظيمة ، ولا ينتهي المؤرخ الأمين بذكر هذا الفضل ، بل يفيض في الحديث ويضفي على حياة هذا الإمبراطور لوناً جميلاً من الثناء العطر في ضوء الحقائق التي لا مرية فيها يقول : " اشتغل بالمملكة من سنة ١٠٦٨ هـ ، وأراد الله بأهل الهند خيراً فإنه رفع المظالم والمكوس وطلع من الأفق الهندي فجره وظهر من البرج التيموري بدره ، وفلك مجده دائر ، ونجم سعده سائر ، وأسر

---

[1] نزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الحسني ج ٦/١٣٤ ـ ١٣٥ .

غالب ملوك الهند المشهورين ، وصارت بلادهم تحت طاعته وجيئت إليه الأموال وأطاعته البلاد والعباد ولم يزل في الاجتهاد في الجهاد ولم يرجع إلى مقر ملكه وسلطنته بعد أن خرج منه وكلما فتح بلادًا شرع في فتح أخرى ، وعساكره لا يحصون كثرة وعظمة ، وقوته لا يمكن التعبير عنها بعبارة تؤديها حقها ، والملك لله وحده ، أقام في الهند دولة العلم وبالغ في تعظيم أهله حتى قصده الناس من كل البلاد .

والحاصل أنه ليس له نظير في عصره من ملوك الإسلام في حسن السيرة والخوف من الله ، والجد في العبادة ، وقد أمر علماء بلاده الحنفية أن يجمعوا باسمه فتاوى تجمع جل مذهبهم مما يحتاج إليه من الأحكام الشرعية فجمعت في مجلدات سماها " الفتاوى العالمكيرية " واشتهرت في الأقطار الحجازية المصرية والشامية والرومية وعم النفع بها وصارت مرجعًا للمفتين .

كيف استطاع هذا الإمبراطور العظيم الفذ أن يجمع بين " الأضداد " بين الحكم في هذه القارّة العظيمة وتولي أمورها الصغيرة والكبيرة ، وبين الصلوات والنوافل والذكر والعبادة والاشتغال بالعلم ؟ كيف استطاع أن يعيش في ضنك من الحياة وشظف من العيش يأكل أرغفة عديدة من الشعير من كسب يمينه ، وهو يملك خزائن الأرض ، وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة ؟وكيف قدر على مباشرة أمور الدولة الهامة من تحقيق الانتصارات الباهرة والفتح العظيم رغم انهماكه في القيام

بواجبات الحياة المعنوية من إحياء الليالي والمحافظة على النوافل من الصلاة والصيام والذكر والدعاء ومن اشتغال بالعلم والفقه والحديث والأدب ؟ وذلك شأن الإيمان أيها السادة ! فإنه لا يرضى حياة تبتل وانقطاع فقط ، ولا حياة ترف وتنعم وانغماس في اللذات والانتصارات المادية فحسب ، إنما الإيمان يقتضي أن يعيش الإنسان مفتقرا إلى الله ولو كان ملكًا ، ضعيفا أمام قدرة الله ولو كان من أقوياء الناس ، عاجزًا مسكيناً وإن كان من أثرياء أهل العصر ، وأن من ذاق حلاوة الإيمان أناب إلى الله في كل شأن من شئون حياته ورضي من الدنيا بالكفاف واختار له منها ما يكفيه ويغنيه عن الخلق .

إن حياة أورنك زيب تجمع بين نواحٍ كثيرة وكثيرة ، وكلها مما يثير الإجلال والتقدير لهذا الرجل العظيم ، وللناس جميعاً ـ على اختلاف مذاهبهم وأذواقهم ـ في حياته زاد يعينهم في الوصول إلى الغاية ، وغذاء يمدهم في تحقيق الهدف الأصيل والجهة المستقيمة للحياة .

ولا مانع من أن أقدم هذه الحياة العظيمة لكل نوع من أنواع الرجال ، ولكل طبقة منهم سواء كانوا علماء أو فقهاء أو ملوكا ، أو مجاهدين أو صوفية أو عارفين ، فالكل يستطيع أن يستمد منها مددا لحياته ودرسًا لجيله وأمته .

إلا أننا في حاجة إلى أن ندرس حياة السلطان أورنك زيب دراسة واعية عميقة ، ونرى فيها صورة الإيمان الراسخ القوي

الذي جعله من أعاظم رجال التاريخ وأخلدهم بمآثره وأعماله وخدماته الجليلة ، ولولا هذا الإيمان لم يكن له شأن ، ولم يكن له ذكر ولم تجر الألسنة بما جرت به من الثناء العطر والاعتراف بصنائعه العظيمة الخالدة .

إنه الإيمان ، وإنها المعرفة ، أيها السادة ! وبذلك استطاع عالمكير أن يكون عالماً وعارفًا وفقيهاً وأديباً وملكًا وبذلك استطاع كل إنسان في العالم أن يصل إلى مكانة عليا ويتبوأ منصبًا رفيعًا .

أما العلو بدون الإيمان ، والرفعة بغير المعرفة فلا عبرة بهما ولا قرار ، كل بناء يرتفع على الرمال ينهار ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [1]

❖❖❖

[1] سورة آل عمران الآية : ٨٥ .

العارف الكبيرالشيخ علم الله الهندي

(١٠٣٣هـ - ١٠٩٦هـ)

لا أريد أن أخوض بكم إلى أعماق التاريخ ، بل إنها قصة من الهند لشخصية كبيرة عاشت في القرن الحادي عشر الهجري ، وهي شخصية العارف الكبير الشيخ علم الله الهندي ، عاصر الملك المغولي العالم العادل أورنك زيب ، ذلك الملك المثالي الذي له في تاريخ الهند الإسلامي روائع كثيرة ، وفي مجال الفقه الإسلامي منجزات جليلة ، وهو الذي دوَّن مجموعة ضخمة للمسائل الفقهية ، احتلت في المكتبة الإسلامية الواسعة محلاً رفيعاً ، وعرفها تاريخ العلوم الشرعية بالفتاوى الهندية التي لا تزال مرجع علماء الفقه ورجال الفتوى في كل مكان ، ولقد نال العلماء في عهد هذا الملك الكبير تشجيعا لائقا فى كل فرع من فروع العلم ، فقد انتدبهم لخدمة العلم والدين وعيَّن لهم رواتب ومنحا استعانوا بها في القيام بوظائفهم وتفرغوا من أجلها لشأن الدراسة وتدريس العلوم الدينية والإفتاء والتأليف ، فارتفع بذلك قيمة العلم والعلماء في عهده ، وقامت المدارس والمعاهد الإسلامية بحسن عنايته واهتمامه .

كان الشيخ علم الله أحد العلماء الأعلام في عصر هذا الملك الغيور ، وهو ينتمي إلى أسرة السادة التي تعرف بفرع "

الحسني الحسيني "، ومعنى ذلك أن نسبه ينتهي إلى السيد حسن مثنى[١] بن الحسن بن علي[٢]. وكان السيد حسن مثنى قد تزوج من السيدة فاطمة الصغرى[٣] بنت سيدنا الحسين[٤]، وقد هاجر بعض أنجاله من المدينة المنورة إلى العراق فأفغانستان فالهند في

---

[١] الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو محمد، الهاشمي، كبير الطالبيين في عهده، كان وصي أبيه، إقامته و وفاته في المدينة، وكان عبد الملك بن مروان يهابه، واتهم بمكاتبة أهل العراق وأنهم يمنونه بالخلافة، فبلغ ذلك الوليد بن عبد الملك، فأمر عامله بالمدينة بجلده، فلم يجلده العامل، وكتب للوليد يبرئه، وقيل للحسن: ألم يقل رسول الله: من كنت مولاه فعلي مولاه، فقال: بلى ولكن والله لم يعن رسول الله بذلك الإمارة والسلطان، ولو أراد ذلك لأفصح لهم به.

[٢] أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد بالمدينة للنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة عام أحد بعد الوقعة، كان يشبه رسول الله ﷺ من أعلاه من عند رأسه إلى سرته، وكان أبيض اللون، فصيح اللسان، حسن الوجه، وقال النبي ﷺ فيه: "له هيبتي وسؤددي" بويع له يوم الاثنين ٢٢/ رمضان سنة أربعين، وكانت مدة خلافته خمسة أشهر وأياما، توفي بالمدينة، وله سبع وأربعون سنة، ودفن بالبقيع.

[٣] فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، تابعية، من راويات الحديث، روت عن فاطمة مرسلا، وعن أبيها وغيرها، ولما قتل أبوها حملت إلى الشام مع أختها سكينة، وعمتها أم كلثوم بنت علي وزينب العقيلية، فأدخلن على يزيد، فقالت: يا يزيد! أبنات رسول الله سبايا؟ قال: بل حرائر كرام، أدخلي على بنات عمك، فدخلت على أهل بيته، فماوجدت فيهن "سفيانية" إلا نادبة تبكي، وعادت إلى المدينة فتزوجها ابن عمها الحسن بن الحسن بن علي ومات عنها، فأبت الزواج من بعده إلى أن توفيت في سنة ١١٠، وولدت سنة ٤٠هـ.

[٤] أبو عبد الله الحسين بن علي، كان يشبه رسول الله ﷺ من سرته إلى قدميه، وكان أبيض اللون، خرج عليه السلام من المدينة حين ورد نعي معاوية وطولب بالبيعة ليزيد، يوم الأحد ٢٨رجب/ سنة ستين إلى مكة، ودخلها ليلة الجمعة لثلاث خلون من شعبان ووردت عليه كتب أهل الكوفة كتاباً بعد كتاب وهو بمكة بالبيعة في ذي الحجة من هذه السنة، كما وافته بيعة أهل الكوفة خرج من مكة سائرا إليها لثمان خلون من ذي الحجة، وقتل صلوات الله عليه يوم الجمعة عاشر المحرم سنة إحدى وستين، وكانت مدة ظهوره وانتصابه للأمر شهراً واحدا ويومين.

القرن السابع الهجري ، فتوسعت هذه الأسرة الشريفة في الهند وانتشرت في عديد من القرى والبلدان ، ومن بينها قرية " رائ بريلي " حيث حل أحد أجداد الشيخ علم الله واستوطنها .

الشيخ علم الله الحسني من أولئك الرجال الكبار الذين اختارهم الله لتربية الأجيال وأكرمهم بهداية الخلق وحلاّهم بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال ، ووضع فيهم قبولا عاماً ، ولقد كان هذا الشيخ مثالا حياً لاتباع السنة والتخلق بأخلاق النبي ﷺ ، وكان رمزاً للإسلام بجميع معانيه ، أحرز مكانة عالية في الربانية والمعرفة ، والعلم والبصيرة الدينية ، وقد خلف جيلا من أولاده وأحفاده كلهم كانوا من أولياء الله الذين جمعوا بين العلم والعمل والمصحف والسيف ، تميزت أسرته بخصائص كثيرة لا توجد مجتمعة في أسرة واحدة إلا نادراً جدًّا .

ولد الشيخ علم الله في سنة ١٠٣٣ هـ ، وكان راغباً عن كل ما ترغب إليه نفوس الأطفال منذ صغره ، وقد شهد بعلو منزلته في الصغر كثير من كبار العلماء والصالحين ، ومما يحكى أنه ذات مرة كان يلعب مع بعض غلمان بلده وهو في السابعة من عمره إذ مرَّ عليه أحد كبار الأولياء فما إن وقع بصره عليه إذ توقف وظل يرنو إليه فسأله أصحابه عن سبب ذلك ، فقال : لقد رأيت في هذا الولد سيما العلم والمعرفة ، يعلو وجهه ، فما أسعده وما أسعد أبويه ، لا بد أن هذا الولد سيهدي خلقًا كثيرًا في الإسلام ، ويتنور به العالم بأسره وسيكون فذاً في عصره وتاريخه .

ولما استقبله ريعان الشباب بدا لخاله السيد أبي محمد[١] أن يبحث له عن وظيفة يقيم بها أوده ويطلب بها معاشه ، وكان السيد أبو محمد مرتبطا بالبلاط الملكي في عهد شاهجهان فاستطاع أن يذهب به إلى البلاط ويطلب له وظيفة وظل الشيخ علم الله إلى البلاط وهو في فترة التدريب العلمي ، ولكنه لم يعجبه ذلك وأحسَّ بانقباض في نفسه إلا أنه لم يتمكن من الإنكار إجلالا لخاله السيد أبي محمد ، وذات ليلة من الليالي حدث له ما كان سببًا لانصرافه عن وظيفة البلاط والإقبال على وظيفة الله .

كان من عادة الملك شاهجهان[٢] أن يحرس عرشه أربعة حُرَّاس طول الليل إذا كان في سفر ، وذات مرة حلَّ الملك في مكان ، فلما استيقظ في الليل سأل عن الحاضرين فلم يجد أحداً ، وكان الشيخ علم الله قريباً منه ، فأجاب وأخبره باسمه وكانت الليلة ذات برد ومطر ، ثم استيقظ بعد برهة من الوقت وعاد يسأل عن الحاضرين فلم يجد أحداً وأجابه الشيخ علم الله وكان قريباً منه ، وهكذا مضت الليلة كلها في سؤال وإجابة ، لما أصبح الملك قال للشيخ علم الله : لم نجد الليلة أحداً غيرك ، وسُر

---

[١] السيد أبو محمد كان خال الشيخ السيد علم الله الرائ بريلوي ، كان أحد موظفي حكومة شاهجهان ، فقد اعتنى بتربية ابن أخته تربية حسنة ، وأشركه في الجنود وكان عالماً كبيرا وقاضيا في نصيرآباد .

[٢] شاهجان : خامس ملوك المغل في الهند ، وابن جهانكير ، حكم ١٦٢٧ــ ١٦٥٨ــ خلفه ولده أورنك زيب ، وتوفي بعد أسر دام عشر سنين ، عرفت في عهده امبرا طورية المغل عصرها الذهبي ، وبلغت ذورة مجدها ، شيد القلعة الحمراء وتاج محل ومساجد كبيرة .

بحضوره وشعوره بالمسئولية وأجازه بجوائز ثمينة ملكية ولكن الشيخ علم الله لم يفرح بذلك وبدأ يتأسف على فوات هذه الليلة في خدمة الملك ، وقال في نفسه" إنني لمجرد خدمة مخلوق بتُّ ساهرا ، فياليتنى قضيتها ساهراً في خدمة ملك الملوك خالق الكون الذي يستطيع أن يجيزنى بنعمة لا تفنى وبجائزة لا تنتهي ، إنه الملك الذي لا يحجب نفسه بحاجب إذا كان ملوك الدنيا يحجبون أنفسهم بالحجاب والحراس ، فإن بابه مفتوح لكل غني وفقير ، صغير وكبير ، وهو الذي يملك مصير العباد والبلاد كلها فلماذا لا أقبل عليه ولا أخضع له".

أزعجه هذا الخيال حتى نفد صبره ، ولم يلبث أن فرَّ من خيمة الملك حسراً حافياً في بذلته الليلية ، ونادى في الجماعة قائلا : إنني أبحث كل متاعي وممتلكاتي ، فمن أراد أن يأخذها فليأخذها ، وأسرع الناس وتهافتوا عليها وأخذوها وبلغ خاله ذلك فجاء وحاول أن يقنع ابن أخته الشيخ علم الله ولكنه أبى وقال : يا خال إنني أقدر اهتمامك بشأني وعنايتك بحالي ولكن ماذا أفعل ، إنه لا يتحرك في جوفي إلاقلبٌ واحد لا يستطيع أن يقوم بأداء وظيفتين متعارضتين فاتركني وشأني ، ودع عنك الاهتمام بوظيفتي في البلاط ، وأراد أن يقنعه إخوته وأصدقاؤه أيضاً إلا أنه أبى ولم يتنازل عن قضائه .

ولم يزل الشيخ علم الله يتعمق نظره في تفهم أسرار الحياة والكون وصلة الخلق بالخالق ويتدرب على المجاهدات الشاقة

تزكية للنفس ، يشتغل حينا بالاحتطاب ويبيع الحطب في السوق ، وحيناً آخر يحمل المياه العذبة إلى بيوت الناس ويأخذ أجرة يسيرة مقابل ذلك ، ثم حداه الشوق إلى البحث عن عارف يستفيد منه ويتعلم لديه علم الدين والأخلاق والتزكية حتى وصل إلى زاوية العارف الكبير السيد آدم بنوري[1] في لاهور ، وصادف أن العمال كانوا مشغولين برمِّ بناء الزاوية وتشييد ما تهدم منه ، فشاركهم وقضى بعض الوقت مع العمال في نقل الطوب والطين ثم حضر إلى الشيخ آدم بنوري وسلم فرد عليه قائلا :" تعال يا سيدي إلى ميدان الرجال وبيِّض وجهك " ثم بشره بأشياء كثيرة ووَّدعه .

وبعد فترة قليلة من ذلك ورد السيد آدم بنوري مدينة دهلي فحضره الشيخ علم الله وكان ذلك حوالي عام١٠٤٩ هـ ، الزمن الذي لم يتجاوز فيه عمره ١٦سنة وهو عمر صغير ولا شك ، واستطاع أن يفوز في مثل هذه السن المبكرة بكثير من الدرجات

---

[1] آدم بن إسماعيل بن بهوة البنوري ، الشيخ العارف ، الولي الكبير ، أحد كبار المشايخ النقشبندية ، بشر به والده في رؤيا له صالحة ، ولد ونشأ بقرية بنور من أعمال سرهند ، وأخذ الطريقة عن الحاج خضر الروغاني ، ولازمه شهرين كاملين ، بلغ رتبة لم يصل إليها كثير ممن عاصره من المشايخ ، وكانت طريقته اتباع الشريعة المحمدية ، واقتفاء آثار السنة السنية ، أخذ عنه خلق كثير حتى قيل : إن أربعمأة ألف مسلم بايعوه ، وللشيخ آدم رسائل الحقائق والمعارف ، منها: خلاصة المعارف في مجلدين ، وكان الشيخ أمياً ما قرأ شيئا من الكتب على أهل العلم ، مات بسبع بقين من شوال سنة ثلاث وخمسين وألف بالمدينة المنورة ، فدفن ببقيع الغرقد عند قبة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

العالية في المعرفة الربانية ، وقد منحه شيخه السيد آدم شهادة الإجازة والخلافة في التربية والتزكية على أنه لم يقض لدى هذا الشيخ إلا عدة أيام فقط ، فلما ودعه قال له الشيخ علم الله : إن في ديارنا كثيراً من كبار أولياء الله ، فمالي ولعمل التربية أمام أولئك الجهابذة من العلماء والشيوخ ، فأجابه الشيخ آدم : يا شيخ علم الله ! إنك ستكون بينهم كالشمع الزاهر وسط المصابيح الضئيلة ، أو كالشمس إزاء الكواكب .

إن الميزة الحقيقية في حياة الشيخ علم الله هي الحرص الشديد على اتباع السنة والعمل بالعزيمة ، إنه ارتقى القمة في هذين الجانبين ولم يرض بأي حال أن يتنازل عن اتباع السنة والتمسك بالعزيمة ، وذلك مع مراعاة كل جانب فى كل وقت مع كل شخص ، لم يوجد له نظير في الاهتمام بالسنة في العهد العالمكيري كله ولا بعده رغم كثرة العلماء والمشايخ في كل زمان ، وتلك مزية في حياة الشيخ علم الله سجَّلها التاريخ الإسلامي بمداد من الفخر والاعتزاز وهو ينشد بلسان الحال ما قاله الشاعر العربى قديماً :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجامع

كان يعتقد أن لاتباع السنة دوراً كبيراً في التقرب إلى الله وجلب محبته ورضاه ، وذلك أمر لا يتيسر بشيء كثير من الرياضات والمجاهدات الشاقة ، ولا يتسنى بأى تربية أو تعليم ، إن

حياته كلها كانت شهادة على هذه العقيدة ، على أن أغلى جنس في سوق العبادات وأكبر ذريعة للتوصل إلى الله في كل زمن وكل بلد ، وفي كل أمة إنما هو اتباع السنة والعمل بالعزيمة ، فبهما يستطيع المرء أن يقطع مسافة الأعوام في شهور ، ومسافة الشهور فى أيام ومسافة الأيام في لمحات .

يتحدث عن حرصه الشديد على التمسك بهذا الجانب أحد تلاميذه وهو الشيخ عبد الحكيم السيالكوتي[1] ، يقول : "الشيخ علم الله أحد رجال الله ، كامل في الورع والعلم ، يتحلى ظاهراً وباطناً بكمال اتباع السنة ، حياته وأوقاته كلها مزدانة بالسنن والمستحبات ، عُرف في العالم شرقا وغربا بتقواه واستقامته ، إنه يعمل بالعزيمة في كل حال مع كل شخص أيا كان ، فإن علم بما إذا عمل أحد من أولاده وعارفيه بالمباح والرخصة أنكر عليه ذلك ولكن إذا وجدت بدعة عند أحد منهم ـ وأعوذ بالله منها ـ مقته للغاية حتى لم يرض بأن يرى وجهه مالم يتب ويستغفر الله "

ألفَّ رسالة باسم " قوة العمل" تحتوي على حقائق ومعارف دقيقة لا يستطيع أن يستسيغها كل شخص ، وكان يخفي

---

[1] العبارة المذكورة أدناه كتبها الشيخ محمد أمين البدخشي في كتابه " نتائج الحرمين " بواسطة الشيخ عبد الحكيم السيالكوتي ، والجدير بالذكر أن الشيخ عبد الحكيم السيالكوتي هذا غير العلامة الشيخ عبد الحكيم السيالكوتي ، فالأول هو من تلاميذ الشيخ علم الله ، والثاني هو صاحب التصانيف الفائقة والتآليف الرائقة ، كان من معاصريه الكبار ، توفي في ١٨ ربيع الأول سنة ١٠٦٧هـ .

أحواله ويبدي التواضع والعجز، وكان أكثر الناس يتذكرون الصحابة رضي الله عنهم برؤيته، فكلما رأوه قالوا: إن شبه حياة الصحابة رضي الله عنهم يتجلى فيه، وكان نموذجا صادقا للأخلاق الفاضلة عاملا بالخلق العظيم.

كان الشيخ علم الله يقضي كل لمحة من ليله ونهاره في اتباع السنة والتمسك بالعزيمة في أعماله، دخلت السنة في كل جزء من حياته وامتزجت بلحمه ودمه حتى أصبحت له ذوقا وحالا لا يفارقانه في أي لحظة ولا يعيش بدونهما شأن السمكة التي لا تعيش خارج الماء.

يتميز كثير من أهل المعرفة والصلاح بالإكثار في العبادة وإحياء الليالي الطوال في الذكر والدعاء والنوافل، وقد بلغوا القمة في هذه الناحية وعاشوا فيها مما يبعث على الاستغراب والدهشة سيما في هذا العصر المادي الذي لا نصيب فيه للعبادات والمجاهدات إلا ضئيلا جدا، وللشهوات فيه جولة وصولة في كل مكان، ولكن قلما شهدنا رجلا عظيما في كل شيء، له أتباع وأنصار، وله جماعة من المعجبين به والمتفانين في حبه، ثم هو لا يتلكأ في القيام بخدمات الناس وأداء واجبات الحياة بيده أمام الأشهاد، ولا يتردد ـ رغم عظمته وعلوّ مكانته ـ في السبق في التسليم على الصغار وتكنيس الدار، وملء الجرار والمشاركة مع الخدم والأهل في جميع شئون البيت وتفقد الجيران بالذهاب إليهم، والسؤال عما يحتاجون إليه من خدمة، والاحتطاب من

الغابات ونقل الحطب إلى بيته وبيوت أصحابه على الرأس أمام أتباعه وخدمه ، وحمل الأثقال ، وشراء الحاجات للأرامل والأيتام ، كل ذلك امتحان كبير لأي إنسان ، وثقيل على النفس غاية الثقل ، ولكن الشيخ علم الله أحرز قصب السبق في هذا المجال وأدى هذا الامتحان ونجح فيه بتفوق وامتياز ، ولا أدل على علو منزلته وبلوغه إلى درجة الكمال في معرفة الله من أنه لم يكن للنفس حظ لديه بل ولم يكن عنده ما يسمى بالشهوات والأهواء ، لأنه قهر النفس فقهر كل ما يتبع النفس .

والذي صرع نفسه وتغلب عليها وأذلها أصبح كأنه تخلص من جميع الأدواء الروحية والأسقام القلبية ، وارتقى إلى درجة الولاية والربانية التي هي أصعب من كل شيء ، والتي لا يتسنى لكل شخص أن ينالها أو يرتقي إليها ، ولعل ذلك هو الغاية الأسمى لكل مؤمن مجاهد ومسلم مخلص يطلع على ما بينه وبين ربه من قربات ووشائج ويُدْرك غايته التي خلق من أجلها ، ويتفانى في حب الله ورسوله ويضع الأمور كلها في محلها الصحيح ، فلا إفراط ولا تفريط ولا عدوان ولا تقصير ، إنما هي الطريق الوسط التي ترافقه في كل مناسبة وكل حين وتمسك بيده كلما حاول الحيد عن الجادة أو الانصراف عن الغاية .

أغناه الله تعالى بعواطف اتباع السنة ورفض البدعة وكراهيتها ، فكما كان جد حريص على تتبع السنة والاصطباغ بصبغتها كان يفوز بدوافع المقت الشديد للبدعة حتى إذا علم أن

فلانا يبتدع يمقته أشد المقت ولا يرضى بالنظر إلى وجهه والرد على سلامه فضلا عن لقائه وقبول هداياه ، وكذلك في المناسبات الاجتماعية والفردية إذا ظهر له شيء يعارض سنة الرسول ﷺ احتج عليه وفر منها ، لقد كان بمبدأ "الحب في الله والبغض في الله"[1] فإن صدر عن أحد عمل خلاف الشرع أبدى الكراهية والنفور وقطع عنه كل علاقة مالم يتب ويرجع إلى الله .

كان خوان الشيخ علم الله عاماً يستوى فيه كل صغير وكبير وضيوف وأولاد ، فلا يفرق بين نفسه وأتباعه ، ولا يميز بين أهله وذويه وبين الغرباء والزائرين ، لقد كانت المعادلة والمساواة تسود الخوان بغاية من الدقة والإتقان ، فإن زاره وفد أو ضيف يهتم بخدمته وضيافته ثلاثة أيام ويشرك جميع أفراد البيت في ذلك ، ولم يكن يأمر بطبخ طعام خاص إلا لضرورة ، إنما كان يقتفي السنة في ذلك ويحرص على تنفيذها في جميع شئون الطعام والإطعام ، ولما علم بذلك بعض أهل العلم من عصره حاولوا أن يتبعوه في الخوان وإطعام الطعام ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، وعجزوا عنه ، واعترفوا بفضل الشيخ علم الله في هذا المجال أيضا .

وكانت تنوبه الفاقة فينةً لأخرى ، وتستمر أياماً عديدة في بعض الأحيان ، وذات مرة صنع طعام أربعين نفراً ، وذلك بعد

---

[1] عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : أفضل الأعمال : الحب في الله والبغض في الله . رواه أبوداؤد : في السنة ، باب مجانبة أهل الأهواء وبغضهم ، (رقم الحديث : ٤٥٩٩)

فاقة دامت ثلاثة أيام فإذا بوفد مؤلف من كبار خلفائه ومعهم ثمانون نفراً يزورونه ، فأمر الشيخ بتنصيف الطعام وإرسال النصف إلى الحرم والأولاد وتقديم النصف الثاني إلى الضيوف ، ففعلوا وكفى طعام عشرين رجلا لأكثر من مائة نفر، ولما فرغوا من الأكل رأوا أن الطعام لم ينقص بل ولا يزال كما كان .

أما ورعه الذي كان صبغته الغالبة فكان بالغاً مداه ، وذلك هو العامل الرئيسي الحقيقي الذي ارتقى به إلى هذه الدرجة من الربانية والفضائل الخلقية ، بل إلى هذه المنزلة من العبودية الحقيقية حيث يتفانى العبد في حب المعبود ولا يرضى بأي شيء سواه ولا يتعلق قلبه بأي شيء من متاع الدنيا وملذات الحياة الفانية ولا يعيش إلاّ في طاعة رسوله ﷺ ، وقد كان الشيخ علم الله ربانيا من هذا النوع ، إنه عاش على قمة من الحب والطاعة وفي غاية من الورع والتقى ، وهو في هذه المرحلة واجه كثيرا من الامتحانات من قبل أتباعه وأصحابه ، ومن معاصريه ، ولكنه لم يتعثر في أي مناسبة وإنما ازداد رسوخا وثباتا في عقائده وصفاته .

أحب الرسول ﷺ حباً جماً حتى تأصلت جذوره في نفسه ، فعاش في نوع من الغرام والنشوة بشخصيته ﷺ ، وله في ذلك حكايات عجيبة تشهد على عواطف الحب الصادق والصلة القريبة بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وندرج هنا حكاية رواها

الشيخ عبد الرحمان[1] تفيد مدى الإعجاب بالنبي ﷺ الذي كان يكنه في نفسه ، فيقول :

"ذات ليلة رأيت في المنام أن الشيخ علم الله خرج من بيته وبيده الحبل والفأس ، وأيقظني فأصحبني ورجالا آخرين إلى الغابة فاحتطبنا جميعاً وحملنا حزمات الحطب على رؤوسنا وحمل الشيخ علم الله حزمة على رأسه ، واتجهنا إلى الزاوية فلما وصلها أنزل الحزمة وتوضأ ودخل المسجد ، وهناك جاءه أحد أقربائه ممن كانوا يقرأون عليه القرآن وأراد أن يقرأ عليه ، ونظرت فإذا الرسول-ﷺ- جالس في ركن من المسجد ، فدعاني وقال لي : يا عبد الرحمان ! اذهب إلى هذا الرجل ، وقل له : إن ولدي علم الله متعب في هذا الوقت لما قد حمله من الحطب على رأسه فليؤجل قراءته عليه إلى وقت آخر .

ولما استيقظت إذا بالمنام يتمثل الحقيقة ، خرج الشيخ علم الله إلى الغابة واحتطب هو وأصحابه وحمل الحطب على رأسه وجاء به إلى المسجد وتوضأ ودخل المسجد حتى جاءه ذلك الرجل الذي كان يقرأ عليه القرآن فلما أردت أن أمنعه عن القراءة عليه في هذا الوقت غضب وقال : أنت تمنعني عن قراءة القرآن ، فقلت له : نعم أفعل ذلك امتثالا لأمر رسول الله ﷺ ، فقال الشيخ علم الله : صدق عبد الرحمان ، أجِّل هذه القراءة لوقت آخر".

---

[1] كان من أخص خواصه ، وهو أيضاً من مديرية رائ بريلي أترابراديش (الهند) .

هذا وللشيخ علم الله مواقف كثيرة في التمسك بالسنة ورد البدع والمنكرات، والعمل بالعزيمة، وقد استطاع بهذه الروح المؤمنة والأخلاق الفاضلة والسيرة الطيبة أن يؤثر في المجتمع الذي عاش فيه ويقوم بإصلاح عام يشمل الأداني والأقاصي كلهم ويرجع خلق كثير إلى الدين الصحيح بالكتاب والسنة، ويقدموا نموذجاً لحياة المسلم النزيهة، ومثالا كاملا للطاعة وللامتثال، توفي الشيخ علم الله في ٩ ذي الحجة سنة ١١٩٦هـ عن عمر بالغ ٦٣ سنة، وفي نفس هذا اليوم رأى الملك المعاصر أورنك زيب عالمكير رؤيا تفيد أن الرسول ﷺ توفي اليوم، وأن الملائكة تحمل جنازته إلى السماء.

أزعجت الرؤيا الملك فسأل العلماء عن تأويلها، فقالوا: إن لهذه الرؤيا دلالتها، ويبدو أن الشيخ علم الله الذي كان من كبار المحبين والمتبعين لسنة الرسول ﷺ توفي اليوم، وأمر الملك كاتبه بتسجيل هذا التاريخ، وما لبث إلا ساعات إذ جاءه النعي، وسأل الملك أصحاب التأويل عما أرشدهم إلى هذا التأويل فور بيان الرؤيا لهم، فقالوا: "إننا لا نعلم أحدا من المعاصرين من يضارعه في اتباع السنة، وحب الله والرسول ﷺ"، رحمه الله رحمة واسعة.

شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي

(١١١٤هـ - ١١٧٦هـ)

في فجر القرن السابع عشر الميلادي أنجب التاريخ الإسلامي في الهند زعيما من أكبر زعماء العلم والدين، وقائدا من أعظم قادة الجيل الإسلامي ، ورائداً له فضل أكبر في نشر الأفكار الصالحة والعلوم القيمة ، وشق الطريق السوي في خضم الطرق ، إنه أشعل القلوب قلقاً واضطراباً على الظروف الراهنة وعرض على الأمة الإسلامية صورة جميلة للبقاء والتعمير ، كانت مبعث حركة بناء للمجتمع الإسلامي من جديد وفاتحة عهد جديد يتعرف الناس فيه إلى حياة تكون أحسن نموذج لحياة المسلم ، ألا وهو شيخ الإسلام الإمام ولي الله الدهلوي .

كان مولد شيخ الإسلام قطب الدين ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[1] بعد ثمانين سنة من وفاة الشيخ أحمد

---

[1] الشيخ عبد الرحيم الدهلوي ولد سنة ١٠٥٤هـ ، وقرأ من " الرسائل الصغيرة " إلى " شرح العقائد " و " حاشية الخيال " على أخيه الأكبر أبي الرضاء محمد ، كان منذ صغره ميالاً إلى الدين ، نفورا من الدنيا ، ومالها وجاهها ، فقد ذكر الإمام الدهلوي أن كان عمل والدي في أكثر المسائل على المذهب الحنفي ، وكان في بعض المسائل يأخذ بالحديث أو يرجح أحد المذاهب بما يملي عليه وجدانه ، وكان في تلك اللجنة التي اختيرت لترتيب "الفتاوي الهندية " ..... وكان مجمعا للفضائل والصفات الكريمة والأخلاق الحميدة ، وكان متصفا بغاية من الشجاعة والجراءة والغيرة والفراسة ، تزوج مرتين ، فمن زوجته الأولى ولد ابن سمي صلاح الدين ، و إنه لم يلبث أن مات ، وتم الزواج الثاني من كريمة الشيخ محمد الفلتي الصديقي ، فولد منها ولدان : الإمام الدهلوي ، والشيخ أهل الله ، توفي الشيخ عبد الرحيم عام ١١٣١هـ .

السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني وهي فترة مظلمة في تاريخ المسلمين في الهند، فقد كان الملوك يستنفدون كل طاقاتهم في نهب اللذات وإيثار الراحة على التعب للرعية والبلاد.

وكانت للعلوم التقليدية والعصبيات والتعسف صولة على الأذهان والأفكار، وكانت البلاد كلها تعاني أمراضًا خلقية وأدواء روحية من عبادة للنفس والمال، والقلق والنهب والظلم والقسوة، مالا نهاية له.

وقد كان ظهور هذا الإمام الكبير في مثل هذا الجو القاتم بمثابة نور، فاجأ الظلام وأحاله إلى ضوء في طرفة عين فقد مسح الغبار من وجه الأمة الإسلامية التي كانت تعيش على هامش الحياة، لم تكن لها علاقة بصميم قضاياها، وإنما كانت منهمكة في أمور لا تهمّها في الدين والدنيا، وقد نسيت وظيفتها، وتغافلت عن واجباتها، واقتنعت بالدون من مكانتها، ورضيت بالقليل من حظها.

ولست الآن بصدد استعراض لحياة شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي، فإن له مناسبة أخرى، ولكن الذي يبعثني على الكتابة حول هذه الحياة هو أن أبحث في الناحية التي تهمني الآن وتهم القراء وهي ناحية الروح والمعرفة، التي بلغت به أرفع درجة من

العظمة والأمانة والتي كانت السبب الوحيد المباشر لفتح بصيرته وسعة نظره وإحرازه منزلة عليا في العلوم والمعارف والابتكار فيها ، وإبداء نظريات وأفكار إسلامية بحتة لا تزال غرة فى جبين المكتبة الإسلامية ، وعزة لزمرة العلم والعلماء في هذه البلاد .

إن الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي لم يعرف في الناس بعارف انقطع عن الدنيا بزاويته ، وتجرد عن الناس فاتخذ لنفسه ركنًا من الأركان يجلس فيها كالنُساك والمتبتلين ولكنه كان من كبار العارفين بالله حتى استطاع بقوة علمه أن يخوض بحراً من المعرفة ويغترف منه ما يشفي به غليله فيشرح للناس معاني دقيقة لم يكونوا يعرفونها ، ويبين لهم من هذه المعاني ما يأخذ الألباب ويحير العقول .

وقد شرح الشيخ الجانب الروحي في الإسلام وأفاض فى شرحه وبيانه فأتى بحقائق وعلوم وأسرار ونكت لم يطلع عليها الناس ولم تخطر على بالهم ، فهيأ لهم في علوم السلوك والإحسان مكتبة زاخرة بمواد غزيرة ومعان دقيقة ، لا تزال جديدة على قدمها ، وتفيض حيوية وروحًا وقوة وعلمًا .

يقول العلامة عبد الحي الحسنى[١] في كتابه " الإعلام بمن في تاريخ الهند من الاعلام " ومنها (أي ومن العلوم التي أنعم الله بها عليه) آداب السلوك وعلم الحقائق ، فإنه أفاض من ذوارف المعارف على أهلها سجالا لأنه كان جامعًا بين الطرق الثلاثة من السمع والفكرة والذوق فلا يتجلى له شيء من السر الغامض فيقبله إلا بعد ما شهد بصحته شاهد صدق من المعقول والمنقول .

" وذكر الشيخ غلام علي العلوي الدهلوي[٢] في " المقامات " أن شيخه مرزاجان العلوي

---

[١] عبدالحي بن فخر الدين بن عبد العلي ، العلاّمة الشريف الحسني، المؤرخ العملاق ، ابن خلكان الوقت ، ولد لثماني عشرة ليلة خلون من رمضان سنة ست وثمانين ومأتين وألف، قرأ الكتب الدراسية من الصرف والنحو، والفقه والأصول والتفسير والمعقولات على أشهر علماء لكناؤ مثل الشيخ محمد نعيم الفرنكي محلي والشيخ فضل، ثم سافر إلى بوفال فقرأ سائر الكتب الدرسية على القاضي عبد الحق ، والرياضي على الشيخ السيد أحمد الديوبندي ، والحديث على العلامة الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني ، ثم رحل وسافر فذهب إلى دهلي وباني بت ، واجتمع بالعلماء والمشايخ ، منهم الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، والعلامة المحدث نذير حسين الدهلوي ، وأتى الشيخ الكبير مولانا فضل الرحمن الكنج مرادآبادي فبايعه ، كان حريصاً على إصلاح المسلمين ونفعهم، وكان يتألم مما يرى من اضطراب حبل المسلمين وكان يحضر حفلات ندوة العلماء من أوّل الأمر ، وعليه المعوّل فيها ، وحازثقة أصحابه فصار رئيساً عاماً لها سنة ١٣٣٣هـ ، فاستقام على العمل إلى آخر عمره ، توفي لخمس عشرة ليلة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٤١هـ ، ودفن عند قبر العارف علم الله في زاويته ، ببلدة رائ بريلي، من مصنفاته : نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام) ومعارف العوارف ، وجنة المشرق ، وتهذيب الأخلاق .

[٢] الشيخ الإمام الزاهد غلام علي بن عبد اللطيف العلوي الدهلوي ، أحد الأولياء السالكين ، اتفق الناس على جلالته و ولايته ، ولد سنة ست وخمسين ومأة وألف ببلدة من بلاد "=

الدهلوي[1] كان يقول : إن الشيخ ولي الله قد بيّن طريقة جديدة ، وله أسلوب خاص في تحقيق أسرار المعارف وغوامض العلوم .

وإنه رباني من العلماء ولعله لم يوجد مثله في الصوفية المحققين الذين جمعوا بين علمي الظاهر والباطن ، وتكلموا بعلوم جديدة إلا رجال معدودون .

إن العمل لإصلاح القلوب وتزكية النفوس لا يحتاج دائمًا إلى الزوايا والتكايا ، ولا يقتضي أن يكون المرء قد تنسك وتزهد في الظاهر والباطن ، بل إن ذلك يتحقق أيضًا بجهود خفية ، ومساعٍ باطنة قد لا تنكشف على الناس .

وقد يكون العارف يصلح الفساد ويزيح السيئآت ، ويمحو الخرافات وهو مشتغل به عن طريق لا يراها الناس أو يرونها ولكن لا يعدونها من ذلك النوع ، رغم أنه منهمك في قلع شجرة الفساد ، ومعالجة الداء العضال .

=بنجاب " ونشأبها ثم سافر إلى دهلي ، ولازم الشيخ مظهر جان جانان، واشتغل عليه بالأذكار والأشغال مدة طويلة ، وقال الشيخ السيد أحمد خان : " إنه كان عجيبة من عجائب الدهر في الزهد والقناعة والتسليم والرضاء ، أخذ عنه السيد إسماعيل المدني والشيخ أحمد الكردي والشيخ خالد الكردي ، له رسائل عديدة : منها " مقامات مظهري " و " إيضاح الطريقة"، مات لثمان بقين من صفر سنة أربعين ومأتين وألف بدهلي .

[1] الشيخ العارف بالله مرزا مظهر جان جانان الشهيد ، ولد سنة ١١١١ هـ ، كان خليفة السيد نور محمد البدايوني ، ومن كبار أصحاب التربية ، قال عنه الإمام الدهلوي " إن أمثال هؤلاء المشايخ لا يوجد في عدد كبير في كل عصر ، فكيف في هذا العصر الملئ بالفتن والفساد ، توفي سنة ١١٩٥هـ ، وكان من أكبر خلفائه الشيخ نعيم الله البهراتشي (١٢١٨هـ) ، والقاضي ثناء الله الباني بتي صاحب التفسير المظهري ، والشيخ غلام يحيى البهاري .

كذلك لم يجلس الشيخ ولي الله في زاوية ، ولكنه أتى في هذا المجال مالم يأته كثير من العارفين ، وقام بعمل الإصلاح والتزكية قيامًا لم يوفق إليه إلا قليل منهم .

فقد ألف في هذا الموضوع كتبًا كثيرةً وكلها يحمل من المعاني الغزيرة والعلوم الدقيقة ما ينوِّر العقل ، ويغذي العاطفة والوجدان .

ولو اخترنا كتابًا واحدًا منها لنبحث عنه ، ونتفقد معانيه وما يحويه من كنوز العلم والمعرفة لصعب علينا فضلا عن جميع ما ألفه في هذا الموضوع .

لم يكن الشيخ ولي الله زعيمًا دينيًا فقط ينبه الناس من سباتهم العميق ويشعل في القلوب جمرة الإيمان والمعرفة والحب والحنان ، بل وقد كان يتزعم العلم والمعرفة والدين ويتناول كل ذلك في وقت واحد .

ينتقد كل ما يراه مخالفا لروح الدين ، ويتناول كل ما يجرح كرامته بنقد لاذع وزجر مرير ، سواء كان من طبقة العلماء أو من جماهير الناس ، وقد بلغت به الجرأة الدينية إلى أنه نادى العلماء والصوفية في عصره وسألهم إصلاح الطرق التي يتبعونها في سبيل تزكية النفس ، وأبان لهم الفرق بين التصوف الحقيقي الذي يتناول معنى الإحسان والوصول إلى الله وطلب مرضاته ، والتصوف المجازي الذي ينحصر في الرقى والتمائم ، وألف في كل ذلك كتباً قيمة لئلا يختلط الإحسان بغيره ، ولا يتشوه وجه التصوف الحقيقي بالتصوف الذي ليس من الدين في شيء .

إن التصوف الذي يدعو إليه الشيخ ولي الله إنَّما هو الإحسان في أتم معانيه ، وأكمل صورته ، إنه يشرح علاقة الخلق مع الخالق بأن يتصل الإنسان بالله تعالى ويتقرب إليه بإخلاص العمل له كأنه يراه في كل حين ، ويسمع حثيثه ، فإن لم يكن يراه ويسمع فإنه سبحانه وتعالى يراه ويراقب عمله في كل حين وآن .

أما مذهبه في التصوف فواضح ، بيِّن ، لا غموض فيه ولا التواء ، يقول في كتابه : " التفهيمات الإلهية ": وهو يتحدث عن التصوف .

" ليس منا من لم يتدبر كتاب الله ، ولم يفهم حديث نبيه ﷺ ، ليس منا من ترك ملازمة العلماء " (أعني الصوفية) الذين لهم حظ من الكتاب والسنة ، أو الراسخين في العلم الذين لهم حظ من الفقه ، أما الجهال من الصوفية ، والجاحدون للتصوف فأولئك قطاع الطرق ، ولصوص الدين فإياك وإياهم ، جعلنا الله سبحانه وتعالى ممن يطيعه ، ويتبع رضوانه ، ولا يشرك به شيئًا فإنما نحن به وله"

هذا وقد استمر الشيخ ولي الله يكافح ويجاهد في سبيل نشر العلوم الدينية وإبداء الأفكار والآراء ، عن طريق التأليف والتدريس والكتابة والتوجيه ، حتى عم نفعه في الهند وما والاها من الأقطار الإسلامية بل وقد استفاد منه علماء الإسلام في البلاد العربية ، ونالت مؤلفاته إعجاباً منهم فاتخذوها مصادر لكتاباتهم في موضوع العقائد والأخلاق وفلسفة الشريعة الإسلامية .

إن الجهود التي بذلها شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي في حقل العلوم الدينية وشرح العقيدة الإسلامية وجمع كنوزها في أشكال شتى لتنوء بها عصبة من جماعات العلماء وفرقة المؤلفين الكبار، بل إنها أعمال لا يتسنى للمجامع العلمية الكبيرة أن تقوم بها فضلا عن رجل واحد لم يتعلم في جامعة كبيرة ولا زار مراكز العلم والثقافة وعواصم العلم والأدب، وإنما بقي يقرأ ويؤلف في بلده وعلى رجال عصره، فكيف تمكّن من هذ العمل الجليل، وكيف استطاع أن يحتل هذا المكان العلمي الكبير؟ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾[1]

لقد توفي هذا الإمام الجليل، حكيم الإسلام وفيلسوفه والذي قام بعمل التجديد الديني والعلمي في شبه القارة الهندية سنة ١١٧٦هـ، وقد أفاد العالم كله من نفثات يراعه ونفحاته، وخلف للعالم الإسلامي مكتبة قيمة حافلة بالعلوم، ثرية بالمعاني، عامرة بالأفكار البناءة والنظرات السديدة.

لقد كان عارفا في طليعة العارفين، وكان علمه سببا لوصوله إلى الله ومعرفته، فكان عارفاً قبل أن يكون عالما، كان نابغة من نوابغ الإسلام. لم يعرف له التاريخ المعاصر مثالا في خصائصه التي حملها ومزاياه التي انفرد بها. سلام الله ورحمته على روحه الطاهرة.

❖❖❖

---

[1] سورة الجمعة: ٤.

الشيخ عبد العزيز الدهلوي

(١١٥٩هـ ـ ١٢٣٩هـ)

رجل جمع بين العلم والإيمان، وحاز قصب السبق في كل مجال من مجالات الفضيلة، أحرز بذكائه النادر وفقهه العميق في الدين شهادة النبوغ والكمال في سن مبكرة، وتبوأ منصب الإفادة والتدريس، ولم يتجاوز عمره خمسة عشر عامًا، فتمكن من جلائل الأعمال، وغرر الخدمات مالم يتيسر لكثير من كبار العلماء والعارفين.

إنه الشيخ عبد العزيز الدهلوي نجل شيخ الإسلام الشيخ ولي الله الدهلوي سيد العلماء وابن سيدهم في عصره، وقد لقبه بعض العلماءبـ" سراج الهند " وبعضهم بـ "حجة الله " ولد في رمضان سنة ١١٥٩هـ وحفظ القرآن وأخذ العلوم عن والده وعن أساتذة العلوم الدينية والشيوخ الكبار في عصره، فكان من عباقرة الزمان وأفذاذ الرجال.

احتل الشيخ عبد العزيز مكانة عليا للعلم والدين، وقام بخدمتهما قيامًا لم يوفق إليه إلا رجال معدودون في التاريخ الإسلامي وجمع بين نواحٍ متعددة وجوانب مختلفة من العلم والأدب والدين، والمعرفة والطريقة والسلوك، والكتابة وتأليف العلوم والتدريس، فأفاد الخلق بذلك كله، وأسدى إلى زمرة

العلماء وجمهور المسلمين خيراً كثيراً ، احتضن التاريخ كثيراً منه وذهب أكثره ضياعاً .

يتحدث التاريخ ــ وهو المعول الوحيد لمعرفة الأحوال والاطلاع على المعلومات ، فيحلولي أن أنقل إلى القراء الكرام ما قال عنه المورخ الأمين العلامة الشريف عبد الحي الحسني صاحب نزهة الخواطر : " كان رحمه الله أحد أفراد الدنيا بفضله وآدابه وعلمه وذكائه ، وفهمه وسرعة حفظه ، اشتغل بالتدريس والإفادة ، وله خمس عشرة سنة ، فدرس وأفاد حتى صار في الهند العلم المفرد ، وتخرج عليه الفضلاء وقصدته الطلبة من أغلب الأرجاء وتهافتوا عليه تهافت الظمآن على الماء .

هذا وقد اعترته الأمراض المؤلمة وهو ابن خمس وعشرين فأدت إلى المراق والجذام والبرص والعمى ، ونحو ذلك حتى عد منها أربعة عشر مرضًا مفجعًا " .

ولكنه بالرغم مما أصابه من هذه الأمراض الأليمة لم ينثلم حده لشيء منها ، ولم يترك المرض يفتك به ويعجزه عن تأدية واجباته ومسئولياته التي ألقاها الله على عاتقه إنما رضي بقدرة الله على ماأصابه ، وبقي يكافح في سبيل نصرة الدين ، ونشر دعوته وعلومه ، ويغامر بنفسه في معركة تحقيق ذاتية الإسلام ورسالته ، التي كتب الله لها أن تكون مفتاح سعادة البشرية ، ومصدر الإشعاع الروحي في الإنسان .

ولم يهتم ، ولم يكتئب على ما واجهه من آلام ونكبات ولم يُلق إليها بالا واستمر في عمله كأن لم يكن شيء ، واشتغل بجهاده الميمون يشرح للناس دينهم ، ويبين لهم معاني الإحسان والسلوك وحقائق الكتاب والسنة ، ويحتشد عليه جمع كثير من الوافدين الذين يأتون من مدن بعيدة ليتلقوا منه درس الحديث والقرآن ، ويستفيدوا منه معلومات عن الحياة الإسلامية والأخلاق النبوية ، والآداب الإلهية .

وقد أقعده المرض في آخر حياته وأعجزه عن الجلوس في مجلس ساعة ، ولكنه لم يخضع أمام هذا العجز وشدة المرض أيضاً ، وإنما اختار طريقًا آخر للإفادة والتوجيه وهو أن يمشي بين مدرسته القديمة ومدرسته الجديدة ، والناس حوله يمشون وهو يدرِّس ويفتي ، ويوجه الناس إلى طريق الخير والصلاح ويرشدهم إلى ما فيه النجاح في الحياة الدنيا والنجاة في الآخرة .

وهكذا دأبه كل يوم لا يتعب من الإفادة والتدريس والفتيا والكلام حول المباحث العلمية الإلهية ، وإنما كان يجد غذاء قلبه وشفاء نفسه في الاشتغال بالعلم والتعليم ، لما أنه كان ممن ذاق حلاوة الإيمان ، فلم يحب أن يقتصر بذلك لنفسه ، بل أراد أن تعم هذه الحلاوة واللذة إلى قلوب الناس فيجدوا ما يجده ، ويحسوا ما يحسه هو في نفسه .

يقول مؤرخ الهند الكبير العلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني :

" ومع ذلك (أي مع ما أصابه من الأمراض المؤلمة) كان يدرس بنفسه النفيسة أيضًا ، ويصنف ويفتي ويعظ ، ومواعظه كانت مقصورة على حقائق التنزيل في كل أسبوع يوم الثلاثاء .

وكان في أواخر عمره لا يقدر على أن يجلس في مجلس ساعة فيمشي بين مدرستيه القديمة والجديدة ويشتغل عليه خلق كثير في ذلك الوقت فيدرس ويفتي ويرشد الناس إلى طريق الحق ، وكذلك يمشي بين العصر والمغرب ويذهب إلى الشارع الذي بين المدرسة وبين الجامع الكبير فيتهادى بين الرجال يمينًا وشمالاً ، ويترقب الناس قدومه في الطريق ويستفيدون منه في حل مشكلاتهم " .

وكان الناس يتساقطون على منهل علمه وأدبه ومورد فضله وكرمه من كل جانب ، فقد كان الأدباء والشعراء يأتونه ليتلقوا من أدبه الرفيع ومادته الغزيرة ، والعلماء يقصدونه ليستفيدوا منه العلوم والمعاني ، وأصحاب المعرفة والسلوك يفدون عليه ليقتبسوا من ضوء معرفته ونور باطنه الذي يضفي عليهم ألوانًا من القدسية والجمال ، ويفتح لهم آفاقًا من العلم والإحسان ، ويثير فيهم جذوة الإيمان الخالص واليقين الصادق كما كان المرضى وذوو الحاجة يلجأون إليه في أمور دنياهم ويطلبون منه ما يعينهم في حالة الضعف والفقر فيواسيهم ويصلح بالهم ، ولم يكن هناك أحد من الناس يرجع من عنده منكسر القلب ، حزين النفس ـ بدون أن يتفضل عليه بشيء من علمه أو ماله أو كرمه وسخائه .

ولندع المؤرخ يتحدث عن هذه الناحية المهمة بأسلوبه القوي يقول :

" وكان الناس يقصدونه ليستفيدوا منه ومن علمه والأدباء ليأخذوا من أدبه ـ ويعرضوا عليه أشعارهم ، والمحاويج يأتونه ليشفع لهم عند أرباب الدنيا ويواسيهم بما يمكنه ، والمرضى يلوذون به لمداواتهم ، وأهل الجذب والسلوك يأتونه ليقتبسوا من أشعة أنواره ، وغرباء الديار من أهل العلم والصلاح ينزلهم ويحسن مثواهم ويسعى في قضاء أغراضهم ونيل مطالبهم ، وإذا جالسه منحرف الأخلاق أو من له في المسائل الدينية بعد وشقاق جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار ، ويجمع بين الضب والنون ، فلا يفارقه إلا وهو عنه راض " .

إن رجلا هذا شأنه يستحق بكل جدارة أن يحتل منزلة عليا من العلم والإيمان ، وهو قمين بأن يكون أسوة لكل من يريد أن يجمع بين خيري الدين والدنيا ويرغب العيش في سعادة الحياة ورخاء البال وطمأنينة القلب .

كانت له يد طولى في العلوم والفنون ، وفي علم الحديث والقرآن بصفة خاصة ، وقد بحث عن حقائقها ونزل إلى أغوارهما ، فجاء بمعان عميقة ومباحث عالية لم يسبق لها مثيل ، وألف كتاباً في ثورة الهند الماضية ولم يبق منها إلا مجلدان من الأول والآخر .

قال الشيخ محسن بن يحيي الترهتي[1] في كتابه : " اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني ".

" إنه قد بلغ من الكمال والشهرة بحيث ترى الناس في مدن وأقطار الهند يفتخرون باعتزائهم إليه ، بل بانسلاكهم في سمط من ينتمي إلى أصحابه " ، وقال أيضًا : " ومنها (أي من سجاياه الفاضلة الجميلة التي لا يدانيه فيها عامة أهل زمانه) فراسته التي أقدره الله بها على تأويل الرؤيا ، فكان لا يعبر شيئًا إلا جاءت كما أخبر به كأنه قد رآها ، وهذا لا يكون إلا لأصحاب النفوس الزاكيات المطهرة عن أدناس الشهوات الرديئة وأرجاسها ، وكم له من خصال محمودة وفضائل مشهودة .

وجملة القول فيه : إن أن الله تبارك وتعالى قد جمع فيه صنوف الفضل وشتاته التي فرقها بين أبناء عصره في أرضه ما لو رآه الشاعر الذي يقول :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا
لدى المجد حتى عُد ألف بواحد

---

[1] محسن بن يحيى البكري التيمي الترهتي الفريني صاحب" اليالغ الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني"، كان من كبار العلماء ، ولد ونشأ بـ"بورنيه" في ولاية بهار، وأخذ عن الصدر ركن الدين القرشي الترهتي، سافر إلى كانفور ولازم الشيخ سلامة الله الصديقي البدايوني وصحبه نحو سنتين وسمع عليه من أوائل " كتاب البخاري" ثم لازم العلامة فضل حق الخيرآبادي، وقرأ عليه ثم منّ الله عليه بالحج والزيارة ، فسافر إلى الحرمين الشريفين وأخذ عن الشيخ المحدث عبد الغني بن أبي سعيد العمري الدهلوي بالمدينة المنورة ، وهو صاحب إنشاء وترسل بالعربية، قلما يوجد نظيره في عصره ، في عبارته رشاقة ، وعليها بهاء ، يبدو أنه تذوق العربية وآدابها وتضلع منها .

استبان له مثل ضوء النهار أنه وإن كان عنده أنه قد بالغ فيه فإنه قد قصر ، فكيف الظن بأمثالي أن يحسن عدَّ مفاخره التي هي أكثر من حصى الحصباء ، ومن نجوم السماء " .

عكف الشيخ عبد العزيز بجميع مواهبه التي رزقه الله إياها ، وبكل طاقته على إصلاح النزعات الفاسدة ، وتثقيف العقول الزائغة وتقريب القلوب إلى الله سبحانه وتعالى .

وقد أثمر عكوفه هذا فنشأت في هذه البلاد طائفة من العلماء الربانيين الذين يرجع الفضل في علومهم وبلوغهم إلى منزلة الكمال والمعرفة إلى الشيخ عبد العزيز ، ولم يكتف الشيخ بتهيئة الغذاء العلمي والأدبي لأبناء الهند ، وإنما خلف وراءه ، جماعة ممن ارتووا من منهل علمه واستقوا من ينبوعه الروحي الثر .

مضى الشيخ عبد العزيز إلى رحمة الله سنة ١٢٣٩ هـ بعدما عاش ثمانين سنة ، يشحن القلوب بمعرفة الله ويصلح النفوس و يقربِّها إلى الله ، ويغذي الناس بغذاء دسم من العلم والدين ويعالج القلوب المريضة ويداويها بأنجع العلاج وأنفعه .

وأفاض على المجتمع الإسلامي الهندي سجالا من نفثاته الروحية ونفحاته القدسية ، مما كان له أكبر الأثر وأعمقه في تيقظ الشعب المسلم في الهند والعودة إلى مكانته من العز والكرامة ،

وقد دانت به الهند الإسلامية في عهده، ولا تزال تدين بتراثه العلمي والروحي.

وتعد شخصيته رمزاً من رموز العلم والدين وغرة في جبين التاريخ ومفخرة على صفاته الناصعة.

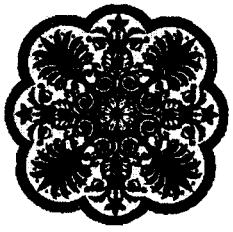

الشاه محمد إسحاق الدهلوي

(١١٩٧هـ ـ ١٢٦٢هـ)

كان الشيخ محمد إسحاق الدهلوي أحد أسباط الشيخ عبدالعزيز الدهلوي، أسند إليه منصب الحديث بعد وفاته، ولد في ٦/ذي الحجة سنة ١١٩٧هـ، وكان آخر الأعلام البارزين لأسرة الإمام الدهلوي، وهبه الله ذوقاً خاصاً لتدريس الحديث، واشتهر صيته كمحدث كبير، فلما تمكن من هذا المنصب الجليل أمّه الطلبة من كل حدب لقراءة الحديث واستجازة رواية الحديث منه، فتوسع نطاقه.

أخذ الشيخ محمد إسحاق علم الحديث من الشيخ عمر بن عبد الكريم المكي[1] في مكة المكرمة واشتغل بتدريس هذا الفن الشريف واستمرفي إفادة الناس في الحجاز سنتين، ثم رجع إلى الهند ودرس نحو ١٦/ سنة مع انضمامه إلى مجال الإرشاد والإفتاء، والقيام بأعمال جليلة فيه، وهاجر إلى مكة عام ١٢٥٨هـ حيث بذل جل وقته في الاهتمام بإصلاح الباطن وتزكيه النفس مع تدريس الحديث إلى جانبه، مطيعا ومشتغلا بالعبادة والذكر

---

[1] ستأتي ترجمته في ذكر الإمام المجاهد السيد أحمد بن عرفان الشهيد.

والدعاء ، ولم يقض أربع سنوات وعدة أشهر بالضبط إلا لبى نداء ربه في سنة ١٢٦٢هـ ، المصادف ١٨٤٦م في مكة المكرمة ، ودفن في جوار قبر أم المومنين خديجة رضي الله عنه ، كان الشيخ أثناء إقامته في المدينة المنورة مشغولا في تدريس الحديث حتى وفق كثير من العلماء هناك للارتواء من هذا المنهل الصافي للحديث ، ومن مآثره العلمية : ترجمة مشكاة المصابيح وكتاب وجيز في الفارسية باسم " شعب الإيمان "

ذكر الشيخ شمس الحق الديانوى[١] في كتابه تذكرة النبلاء : لمّا توفي الشاه محمد إسحاق غسله الشيخ عبد الله السراج المكي[٢] ، وكان يقول : والله إنه لوعاش وقرأت عليه طول عمري ما نلت ما ناله ، وكان شيخه الشيخ عمر بن عبد الكريم رحمه الله يشهد بنبوغه وعُلُوّ مكانته في الحديث ورجاله ، وكان يقول :

---

[١] العلامة محمد شمس الحق بن أمير علي ، محدث الهند الكبير ، والعملاق المفضال ، كان من ذرية الخليفة الأول أبي بكر الصديق ، ولد سنة ١٢٧٣هـ ، وتعلم واستفاد من العلماء الكبار في زمنه ، ولما ارتوى من علوم مدينته ارتحل إلى لكناؤ ، وأقام فيها سنة ، وقام برحلته العلمية إلى دهلي وغيرها من البلدان وأدى فريضة الحج سنة ١٣١١هـ ، وله شرح جيد قام بتأليفه باسم : عون المعبود شرح سنن أبي داؤد ، وتوفي سنة ١٣٢٩ هـ .

[٢] محدث وفقيه ولد بمكة المشرفة على رأس المأتين والألف تقريبا ، ونشأ بها ، وأخذ عن المشايخ الجهابذة الأعلام ، وجد واجتهد وتفوق على الأقران وتصدر للإقراء والتدريس بالمسجد الحرام ، وألف رسائل مفيدة ، وله ابن اسمه الشيخ عبدالرحمن بن عبد الله السراج المكي ، من العلماء المعروفين في عصره ، ولي الإفتاء ورئاسة العلماء بمكة ، تتلمذ عليه من علماء الهند وغيرها من البلاد .

قد حلت فيه بركة الشيخ عبدالعزيز الدهلوي الذي كان جده لأمه رحمه الله ، وكثيرا ما كان يتلو هذه الآية الكريمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ (٣٩)﴾[1] وكان الشيخ المحدث نذير حسين الدهلوي يقول : إني ما صحبت عالما أفضل منه ، وكثيرا ماينشد هذا البيت :

برأے رهبري قوم فساق

دوباره آمد إسماعيل وإسحاق

يعني : خلق الله سبحانه إسماعيل واسحاق لهداية قوم فاسقين .

من أشهر تلامذته الشيخ عبد الغني العمري الدهلوي ، والسيد نذير حسين بن جواد علي الحسيني[2] و الشيخ قطب الدين بن محي الدين الدهلوي و الشيخ محمد يعقوب شقيق[3] الشيخ

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٩ .

(٢) الإمام العلامة المحدث السيد نذير حسين الدهلوي بن جواد علي ، ينتهي نسبه إلى الإمام زين العابدين علي بن الإمام حسين ، ولد سنة ١٢٢٠ في قريته سورج غره من مديرية مونجير بهار الهند ، نشأ وتعلم في بتنه ، ثم سافر إلى دهلي ، واكتسب من معين الشاه محمد إسحاق الدهلوي العلمي ، ثم جعل يدرس في مسجد أورنغ آبادي بدهلي إلى حين وفاته ١٣٢٠هـ ، قال العلامة عبد الحي الحسني: انتهت إليه رئاسة الحديث في الهند .

(٣) الشيخ محمد يعقوب ولد سنة ١٢٠٠ هـ ، ومازال طول حياته مشتغلا بالتدريس والإفادة بدلهي مدة طويلة من الزمن ، ثم هاجر مع أخيه الأكبر الشيخ إسحاق إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ ، واستوطنها واستفاد منه الأمير العلامة السيد صديق حسن خان القنوجي ، توفي يوم الجمعة ٢٧/ذي القعدة عام ١٢٨٢هـ ، ودفن في المعلاة .

محمد إسحاق و الشيخ محمد عمر بن محمد إسماعيل الشهيد[١]، والشيخ محمد إبراهيم النغرنهسوي[٢] و الشاه فضل رحمن الكنج مرادآبادي و الشيخ نورالحسن الكاندهلوي[٣] و الشيخ المحدث أحمد علي السهارنفوري[٤] و النواب صدرالدين خان

---

[١] ابن الشيخ إسماعيل الشهيد، عمر بن إسماعيل بن عبد الغني العمري الدهلوي، أحد رجال العلم والطريقة، ولد ونشأ بدار الملك دهلي، وقرأ العلم وتصدر للتدريس مع قناعة وعفاف وتوكل و استغناء عن الناس، حتى قيل: مرة اشتاق السلطان التيموري أبو ظفر إلى لقائه واستقدمه إلى القلعة فأبى واعتذر إليه، توفي سنة ١٢٦٨هـ.

[٢] الشيخ محمد إبراهيم النغرنهسوي العظيم آبادي، ولد في ٢/ رجب ١٢٢٥ هـ بقرية نغرنهسه (عظيم آباد)، ونشأ هناك في بيئة علمية صالحة، بدأ قراءته بالكتب الدرسية المختصرة على أبيه الشيخ مدين الله بن أمين الله، ثم ذهب إلى رامفور، ودرس كتب المنطق والفلسفة على الشيخ نور الإسلام الرامفوري، ثم سافر إلى دهلي، وتتلمذ على المفتى صدر الدين الدهلوي، والشيخ حسن علي والشيخ محمد إسحاق وقرأ عليهم كتب الفقه والحديث، وأخذ الطريقة عن الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ثم تصدى للتدريس والإفادة، وولي التدريس في المدرسة العالية بكلكتا، واستمر هناك ١٨/ سنة، توفي يوم السبت في ٩/ رمضان سنة ١٢٨٢هـ، له كتب ومؤلفات.

[٣] نور الحسن بن أبي الحسن بن المفتي إلهي بخش الكاندهلوي، أحد العلماء المشهورين ولد ونشأ بكاندهله، واشتغل بالعلم على أبيه مدة من الزمان، ثم لازم العلاّمة فضل حق الخيرآبادي وأخذ عنه العلوم، ثم درس وأخذ عنه خلق كثير من العلماء، وكان عالماً وقوراً، حليماً، متواضعاً، حسن الأخلاق، حسن المحاضرة، حلو المنطق، ذا عارضة وبلاغة، لا يتكلم إلاّ بلغة فصيحة وعبارة واضحة جلية، مع تفرده في المنطق والحكمة، مات يوم الثلاثاء لإحدى عشرة خلون من محرم الحرام سنة ١٢٨٥ هـ بكاندهله.

[٤] الشيخ العالم الفقيه المحدث: أحمد علي بن لطف الله الحنفي الماتريدي السهارنفوري أحد كبار الفقهاء الحنفية، ولد ونشأ بمدينة سهارنفور، وقرأ شيئاً نزراً على أساتذة بلدته، ثم سافر إلى دهلي وأخذ عن الشيخ مملوك علي النانوتوي، وأسند الحديث عن الشيخ وجيه الدين السهارنفوري، ثم سافر إلى مكة، فقرأ الأمهات الست على الشيخ محمد إسحاق الدهلوي، وحج وزار المسجد النبوي، ثم رجع إلى الهند، وكان عالماً صدوقاً أميناً، ذا عناية تامة بالحديث. كتب حواشي الكتب الحديثية، توفي ١٢٩٧ بمدينة سهارنفور.

الدهلوي[١] و السيد أحمد خان[٢] ، وغيرهم من العلماء العظام والسلف الكرام .

إن مواعظ الشيخ محمد إسحاق تحمل أثراً قوياً وتنزل إلى أعماق القلب ، يحضُرُ مجلس وعظه كثير من الناس ، وكان للنساء مكان خاص به يسمعن من وراء السِّتر ، فكانت نساء كل طبقة يتمنين الحضور في درسه والاستفادة منه ، يقول الشيخ السيد أحمد خان .

" كنت أحضر مجلس الشيخ محمد إسحاق ، يجلس فيه عدد هائل للرجال ، وفي داخل البيت النساء ، كانت الحجلات بأكثر عدد ، وتأتي الأميرات من القصور الملكية ، وتؤتى بأطباق الأطعمة اللذيذة على عاتق الحمالين من بيوت الرؤساء ، فتأتي كريمة الشيخ وتقول : يا أبت ! إن الوجبات الغدائية أو العشائية

---

[١] المفتي صدرالدين الدهلوي ، أحد العلماء المشهورين في الهند ، ولد سنة ١٢٠٤ هـ ، بدهلي ، ونشأبها ، وأخذ العلم عن الشيخ فضل حق الخيرآبادي والشيخ رفيع الدين بن ولي الله الدهلوي ، كان نادرة دهره في كل علم لاسيما في الفنون الأدبية ، من مصنفاته : منتهى المقال في شرح حديث : لا تشدُّ الرحال ، توفي سنة ١٢٨٥ هـ . بدهلي ، فدفن بها ، وله إحدى وثمانون سنةً .

[٢] الرجل الكبير الشهير أحمد بن المتقي بن الهادي المعروف بسيد أحمد خان الدهلوي ، كان من مشاهير الشرق ، لم يكن مثله في زمانه في الدهاء ورزانة العقل وجودة القريحة ، وقوة النفس ، ولد في ٥/ ذي الحجة سنة ١٢٣٢ هـ ، وقرأ العلوم على عباقرة الفن ، أنشأ مجمعاً علمياً لنقل الكتب العلمية والتاريخية من اللغة الأفرنجية إلى الأردية سنة ١٢٧٩ هـ ، وأصدر مجلة تهذيب الأخلاق ، وأسس في عليكراه الجامعة الإسلامية ، وقد نال عدة امتيازات علمية ، توفي في ذي القعدة سنة ١٣١٥هـ .

قدتوفرت ، فيجيب : وزعوا بين الفقراء والمحتاجين والحاضرين والواردين ، فتنقل الصحون والأواني من مجلس النساء و تُرسل وجبات الطلاب أولا ثم النساء ، فمايبقى تخبر عنه بنته ، فيقول : ياكريمة ! اتركيه ، عسى أن يطرقنا طارق ، أو يرد علينا ضعيف ، ثم يوضع الطعام على سفرته فيتناول الشيخ بعض الأرغفة والحساء ، لم أر شيخاً يأكل مثله ، تارة تأتي إليه نساء البيوت المجاورة ويسكن عنده أسابيع كأنَّهُنَّ في بيوت آبائهن ، فإن أردن الرجوع يودعهن ، هكذا كانت ضيافة النساء ذات الحاجات جارية في مكة المكرمة" [١] .

أسس الشيخ عبد الرحيم والد الإمام الدهلوي مدرسة في "مهديون" (الحي الذي شُيِّد فيه باب دهلي (دلهي دروزاه) سنة ١١١٢هـ و سميت بالمدرسة الرحيمية ، تعلم فيها آباء الإمام البررة ، وصاروا يدرسون فيها الحديث ، وقد تعلم فيها الشاه عبد العزيز ، والشاه عبدالقادر [٢] والشاه عبد الغني [٣] والشاه أهل

---

[١] تراجم علماء أهل الحديث للشيخ أبي يحيي إمام خان النوشهروي ص: ١١٧ـ ١١٨ ـ .

[٢] الشيخ الإمام العالم عبد القادر بن ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ، أحد العلماء البارزين المبرزين في المعارف الإلهية ، اتفق الناس على ولايته وجلالته ، أخذ الطريقة عن الشيخ عبد العدل الدهلوي ، كان يدرس ويفيد ويسكن بالمسجد الأكبر آبادي في دهلي ، أهم أعماله : ترجمة القرآن إلى اللغة الأردية الفصيحة ، توفي ١١/رجب ١٢٣٠هـ .

[٣] العارف بالله والعامل لله عبد الغني الدهلوي ، ولد سنة ١١٧١هـ لما توفي الإمام الدهلوي كان في السنة الخامسة من عمره ، وتزوج من بنت الشيخ علاء الدين الفلتي ، فولدت منها بنت وولد ،=

الله[١] والشاه محمد عاشق[٢] والشاه محمد إسحاق ، والشاه عبد الغني المجددي ، والمحدث نذير حسين ميان الدهلوي ، فكانوا من العلماء الذين يرجع إليهم الفضل ، بعد وفاة الإمام الدهلوي ، تحولت هذه المدرسة من مهديون إلى كلان محل سنة ١١٥١-١١١٦ هـ ، فجعلها الشيخ عبدالعزيز مركزاً لتدريس الحديث وإصلاح الباطن ، قام الشيخ محمد إسحاق بتدريس الحديث النبوي فيها طول حياته ، تخرج منها عدد كبير من العلماء من الهند وخارجها ، فانتشر علم القرآن والحديث والعلوم الإسلامية في الهند وحصل لها ذيوع وشيوع .

من مآثر الشاه محمد إسحاق الحديثية أنه أحدث في علماء الهند ذوقا للحديث والاستماع إليه ، ونشر الحديث النبوي بوجه خاص على أوسع نطاق بين القلوب العارفين بالله ، والمتخصصين في موضوعات شتى ، وأعد جيلا للمحدثين لا في الهند فحسب

=وهما رقية والشاه محمد إسماعيل الشهيد ، توفي الشاه عبد الغني ١٢٠٣هـ ، وكان عمره آنذاك ٣٢ أو ٣٣عاماً .

[١] الشاه أهل الله شقيق الإمام الدهلوي ، ولد سنة ١١١٩هـ في قرية " فلت "، تعلم من أخيه وأبيه والأساتذة الآخرين وحصل علم الطب أيضا ، لما توفي أبوه انتقل إلى دهلي واستوطنها ، وتوفي سنة ١١٨٦هـ ودفن في فلت .

[٢] الشيخ المحدث محمد عاشق بن عبيد الله الصديقي البهلتي أحد كبار المشايخ ، اشتغل بالعلم في صباه ، ولازم الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ، وكان ابن عمته ، فصحبه وأخذ عنه العلم ، حج وزاربيت الله الحرام ، وأخذ العلم عن الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي فبلغ رتبة لم يصل إليها أحد من أصحاب الشيخ ولي الله ، توفي سنة ١١٨٧هـ .

بل أيام إقامته في مكة المكرمة ، وأكرمه بإجازة رواية الحديث سندا ومتناً و قام الشاه محمد إسحاق ينقل مشكاة المصابيح إلى اللغة الأردية في أسلوبه الخاص ، هذبه أحد تلاميذه النجباء الشيخ النواب محمد قطب الدين الدهلوي[١] وأضاف إليه شرح الحديث واستخراج المسائل منه ، فنسبت إليه ترجمة الشاه محمد إسحاق ، غير أن العمل الرئيسى فيها إنما هو للشيخ محمد إسحاق ، ثم وسع نطاق نفعه الشيخ النواب بذكر الفوائد والمسائل ، وجعله ببصيرته النافذة وصلاحيته اللدنية جديراً بأن يكون في متناول كل دارس واشتهر باسم " مظاهرحق ".

يبتدئ كتاب " مشكاة المصابيح " من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وربط فيه رأس الأعمال بالنيات ، بهذه المناسبة يسعدني أن أقدم ترجمة وشرح ذلك الحديث من كتاب مظاهرحق شرح مشكاة ، من طبعته الجديدة وقد تولى ذلك الشيخ عبد الله جاويد[٢] ، بحيث يستطيع كل واحد أن يطلع على براعة الشاه محمد إسحاق الدهلوي ، في

---

[١] العالم المحدث النواب محمد قطب الدين الدهلوي ، ولد سنة ١٢١٩هـ ، لما أكمل دراسته البدائية سافر إلى الشيخ محمد إسحاق الدهلوي واستفاد من علمه ، كانت سمته الأولى اتباع السنة النبوية ، من أهم أعماله التصنيفية : مظاهر حق ، هاجر إلى مكة المكرمة في آخر عمره وتوفي هنا سنة ١٢٨٩هـ .

[٢] اسمه الكامل الشيخ عبد الله جاويد القاسمي ، كان من مديرية غازي فور ، قام بترتيب " مظاهر حق " بدقة وإتقان .

الحديث ، ومكانته الحديثية وبذلك يمكن أن ندرك سر منزلته الإلهامية في العلوم الدينية .

يقول الشيخ " ومعنى الهجرة أن يتبوأ الإنسان المسلم دار الإسلام مسكناً له تاركاً دار الكفر ابتغاء وجه الله عزوجل ، ويقيم هناك ، فإذا كان الرجل المهاجر مخلصا في نيته ، ولم تكن هجرته إلالله فقط لا لنيل غرض مادي حقير كان عمله مشكورا ، لكن إذا كان في نيته زيف ولم يكن همه من الهجرة إلا كسب المال وحصول المنصب الرفيع ، لم يكن المرء محموداً ، فقد أكدت الجملة الأولى بـ " إنما لامرئ مانوى " فالأولى تكشف حقيقة أن عمل الإنسان بدون النية ، لاعبرة به ، لأن المرء يثاب حسب النية ، فإذا نوى في عمل واحد نيات متعددة استحق بها الثواب والأجر من الله ، نذكر هنا مثالين :

(١) رجل له بعض ذوى الأرحام وهو محتاج فقير ، فمساعدته إياه بنية أن إعانة الفقراء عمل صالح ، فيثاب عليه المرء ولكنه إذا ثنّى مع النية الأولى نية صلة الرحم بحيث تخلّ به من قريب له مشكلاته الاقتصادية ضعّف الله ثوابه حسب نيته المزدوجة .

(٢) كذلك لدخول المسجد نيات ، ولكل منها أجر مستقل ، رجل يذهب إلى المسجد فينوي أن الله أخبر عن المسجد أنه بيت الله ، فالواصل إليه كأنما يزورالله ، والله كريم ، ولابد للكريم أن يقري ضيفه ، وهو يرجو ثوابه أيضا ، ثم ينوي انتظار الجماعة

وينوي أن الجوارح الجسمانية إذا كانت في مكان آخر تعرضت للإثم ، والمسجد صانها من ذلك وينوي الاعتكاف ، ثم ينوي أن الخلوة والراحة تحصلان في المسجد بحيث يتهيأ للإنسان فرصة ذكر الله وتلاوة القرآن وإرشاد الناس ، وينوي أن الذي يذهب إلى المسجد متوضئاً ينال ثواب الحج والعمرة ، وينوي أن المسجد خيربقاع الأرض بحيث يمكن أن يقوم فيه بمسئولية الأمربالمعروف والنهي عن المنكر على أحسن وجه ، وينوي لقاء الإخوة المسلمين والتسيلم عليهم ، ومحاسبة النفس والتفكير في الآخرة والاستغفار من الذنوب ، فهذا العمل الواحد وهو دخول المسجد اذا تعددت معه النيات ، ينال بها المرء ثواب الله تعالى أضعافا مضاعفة .

أما الجملة التاريخية التي تشير إلى تاريخ وفاته ١٢٦٢هـ ، فهي : " إسحاق شيخ الآفاق " .

رحمه الله تعالى وأغدق عليه نعمه في الآخرة

الشيخ محمد إسماعيل الشهيد

(١١٩٣ هـ ـ ١٢٤٦ هـ)

إسماعيل الشهيد، ذلك الرجل الكبير الذي نبغ في أسرة علمية ممتازة بدهلي، ووصل إلى قمة السيادة العلمية، والقيادة الدينية، ولم يتجاوز سنه سن التلاميذ في المدارس الثانوية، إسماعيل الشهيد، ذلك الثائر الذي أشعل جذوة الإيمان في مجتمع كاد يذوب في مجتمعات لا صلة لها بالإسلام وينضوي إلى راية الشرك والإلحاد، ولكن إسماعيل الثائر جاء في هذه الساعة الحرجة وأمسك العنان، عنان الأمة الإسلامية في بلاد الهند، فأنقذها من الشقاء والضلال والغواية، وأرشدها إلى السعادة والرخاء والهداية.

ظهر الإمام إسماعيل الشهيد في حين يشبه فترة الغفلة والركود في الأمة، فقد كانت لتقاليد البدع صولة على العقول، ولأساليب الشرك جولة في النفوس، وكان المجتمع الإسلامي الهندي يفقد كل صلاحيته للبقاء، ويحرم جدارته بالحياة، وكان الوضع سيئا إلى حد يبعث على القلق والأسى، ويشعل في النفوس الأبية غيرة الإيمان وشعلة الجهاد.

أنجبت أسرة شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (المعروف بـ" ولي الله") هذا الإمام العبقري والعالم الفذ،

والعارف الكبير ، في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، فقد كان الإمام إسماعيل الشهيد حفيده ، وتلميذه وتلميذ ولده الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، وقد وضع الله فيه من فراسة الإيمان ورسوخ العقيدة والتصلب في الدين ما يندر في جماعة العلماء وطبقة الأتقياء كما رزقه الله تعالى من فهم الدين وعلم الباطن حظًا أوفر ، استطاع به أن يميز الخبيث من الطيب ويفرق بين الحق والباطل ، وبين السنة والبدعة .

وفي سبيل خدمة الدين الصحيح ومحو البدع والضلالات وترويج السنة في أوساط الشعب وأهل العلم ورفع كلمة الله عالية ورايته خفاقة ، بذل جل حياته وكل جهوده وإمكانياته وقواه ، وفي الأخير رفع راية الجهاد ضد أعداء الإسلام لتمكين دين الله في أرضه وإعلاء كلمته في خلقه ، فأبلى في ذلك بلاء حسنًا حتى سقط دونه شهيداً وقتل في ساحة " بالاكوت " بعيداً عن وطنه وأهله ، غريباً بين وهاد الجبل وهضابها .

درس الشيخ إسماعيل الشهيد حياة المسلمين في عصره فوجدها ـ فى أغلب الأحوال ـ لا تمت إلى تعاليم الإسلام بسبب ولا تتصل بالحياة الإسلامية في شيء ، وإنما هي الخرافات والمبتدعات والضلالات قد دخلت في صميم المجتمع وأخذت منه كل مأخذ حتى إن بيت الشيخ نفسه لم يوق من بعض التقاليد والعادات غير الإسلامية ، فقام بدوره يمحوها وينبه الأسرة إلى ما تحمله من إثم وضلال ، وقام بصفة عامة ينبه الجماهير إلى ذلك

ويأخذها على ذلك أخذاً شديداً ، يبين للناس خطأهم وضلالهم الذي تربوا فيه ، وتشربوه كعادة دينية لها قيمتها وأهميتها .

واتصل في هذا السبيل بكل طبقة ، مهما كانت منحطة سافلة ولم يبال بعزته ومنصبه الذي كان يحتله ، ووعظ الناس بما كان له نفوذ أي نفوذ في القلوب ، وزجرهم بما أدركوا به الحقيقة وعلموا أن الحياة التي كانوا يعيشونها لم تكن مما يطلبه الإسلام من متبعيه ، وخاض الحياة العامة فدرسها عن كثب واطلع على ما كان الناس يركزون عليه مواهبهم وكفاءاتهم ويبذلون فيه جهودهم وتفكيرهم ، فنال كل ذلك مما يخالف عقائد الإسلام الصافية وتعاليم الرسول الحقة ، وأوامر الله العظيمة ، وشمر لإصلاح هذا الوضع المحزن عن ساق الجد وقام يدعو الناس إلى دين صحيح وعقيدة صحيحة فأثمرت جهوده وجاءت بنتائج سارّة وكاد يقلب الوضع تمامًا لولا بعض عُبَّاد الدنيا وضُلال الطريق عاقوا دون النجاح وأضلوا الناس بأباطيلهم وحرضوهم على المخالفة والمجاهرة بالباطل .

ولكنه لم يحفل بكل ذلك ، ولم يكترث بأي مؤامرة حيكت ضده ، أو دسيسة دبرت لاغتياله في الظلام ، بل وبقي يجاهد في الله حق جهاده ، واستمر يكافح لرفع شأن الدين وتمكين عزه في النفوس ، محتملا في ذلك كل بلاء مهما كان شديداً ، صابراً على كل محنة ولو اشتدت ، معرضًا عن أي تهديد أو

مخالفة كأنه يتمثل بلسان حاله بيت خبيب[1] رضي الله عنه ، ويقول مخاطبًا أعداءه القاعدين بالمرصاد :

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا

على أي جنب كان في الله مصرعي

ومن غريب ما يحكى في ذلك أنه ذات مرة رأى موكبًا من الفتيات السافرات يتوجه إلى مكان فسأل الناس عن خبر الموكب فلما علم أن المومسات يجتمعن في دار سيدتهن للحضور في برامج اللهو ، وعندما علم أنهن مسلمات لم يصبر على هذا السفور والوقاحة وقال : إن الله تعالى يحاسبنا يوم القيامة إذا مالم نبلغ إليهن كلمة الإسلام ولم ننههن عن سوء فعلتهن ، وماذا سيكون جوابنا ، وقال : إنني والله أذهب إلى تلك الدار التي يجتمعن فيها فمنعه بعض أصدقائه وقالوا : إن ذلك يسبب لك سوء السمعة والاتهام فأجابهم قائلا : لا يبالي بذلك إسماعيل وحدث في نفسه لنفسه : لو خفت أنني أقتل في هذا السبيل وأقطع إربًا إربًا فهل أمتنع عن هذا ، وكان الجواب : كلا .

ولما أقبل الليل تنكر الشيخ إسماعيل بشكله وملابسه ، وصار كأنه بعض الدراويش إلى الباب وقرعه وكانت المومسات مشغولات باللهو والمزاح واللذات وعندما سمعن قرع الباب

---

[1] خبيب بن عدي بن عامر الأنصاري الشهيد ، شهد بدرا ، وكان فيمن بعثه النبي ﷺ مع بني لحيان ، فلما صاروا بالرجيع ، غدروا بهم ، واستصرخوا عليهم ، وقتلوا فيهم ، وأسروا خبيبا ، وزيد بن الدثنة ، فباعو هما بمكة فقتلوهما بمن قتل النبي ﷺ قومهم ، وصلبوهما بالتنعيم .

ونداء الشيخ سألن عن القارع ، فأجابهن : إنني دوريش جئت لأسمعكن ندائي ، وأعرض عليكن أعمالي البهلوانية ، وفتحن الباب ودخل الشيخ وسأل عن كبرى المومسات وكانت تشتغل ببعض الفتيان فوق الغرفة ، ووصل إليها الشيخ وصادف لهوًا ومزاحًا ومنكرات من الأمور ، وقد عرفته بعضهن وجلسن حوله بكل هدوء واحترام وسألن عن سبب القدوم .

وهنالك بدأ الشيخ وعظه بحكمة وأفاض في الحديث إلى أن كان تأثيره أقوى وأعمق ، وما هي إلا دقائق إذ انطلقت أصوات البكاء والجهش وساد الجو نوع من الخوف والوجل وانقلب الوضع ودخلت كل واحدة منهن في حظيرة الإيمان من جديد ، وبكين على حياتهن السالفة وتبن إلى الله واستغفرنه أشد الاستغفار وبايعن الشيخ ، وحينما قال الشيخ إسماعيل في الأخير " التائب من الذنب كمن لا ذنب له " تزوجت الفتيات من ساعتهن وعشن عيشاً هادئاً سعيداً ، أما العجائز فقد اتخذن لأنفسهن بعض المهن والحرف وسيلة للمعاش .

وهكذا أيده الله بنصره من عنده ، فلم يضعف ولم ييأس ، وإنما ازداد قوة وحماسة ، وتوسع مجال دعوته حينًا بعد حين ودخل الناس في حظيرة إرشاده فساعدوه في نشر رسالته ، وسعوا في تحقيق غرضه ، وأراد الله به خيرًا ولدعوته وأعماله خلودا فقيض له شيخًا من أعاظم الشيوخ في عصره ، وأجل العارفين في زمنه وساقه إليه ليقتبس من نوره الإيماني ما يقوي به إيمانه

ويشحن نفسه بإخلاص أكثر وعاطفة التفاني في ذات الله أشد وأقوى .

ومن سنة الله في عباده المخلصين أن يتعارفوا فيما بينهم كي يتعاونوا في العمل لإصلاح الفساد وبسط العدل وتنبيه الناس إلى ما يعود عليهم من واجبات ومسؤليات نحو دين الله وتبليغ رسالته ، و هنالك ألقى الله في روع الشيخ إسماعيل الشهيد أن يبحث له عن شيخ كامل يستند إليه في أموره ويستعين به في حاجاته ويستوحي منه روحاً جديدة وقوة جديدة تكون له عونا في عمل الدعوة وعضداً في معترك الحياة .

وصل الشيخ إسماعيل إلى الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد[1] فبايعه على الكفاح والجهاد في سبيل الله ولازمه ملازمة التلميذ أستاذه حتى صقلت مواهبه وجلت كفاءاته واشتعلت في قلبه جمرة التفاني في حب الله وخدمة دينه مما جعله لا يهدأ ولا يطمئن ، وإنما هو قلق يساوره ليل نهار ، ونار يلتهب أوارها في كل حين وآن فاشتغل بتبليغ رسالة الإسلام وإصلاح الوضع وتربية النفوس بقوة وحماسة بالغتين وتعدى نفعه إلى كل طبقات الأمة ، وقل معارضوه وانتقصت العداوة ، وسرت في المجتمع الإسلامي روح فياضة ، كان مصدرها الشيخ إسماعيل والشيخ أحمد بن عرفان الشهيدان .

---

[1] سيكون الحديث القادم عن هذا الشيخ ـ بإذن الله .

وبعد اتصاله بالشيخ أحمد بقليل من الزمان أتاح الله له السفر إلى الحجاز للحج ولم يكن هذا السفر إلا رحلة دعوية أذاع عنها في الناس وبعث الشيخ عبد الحي[١] والشيخ إسماعيل الشهيد ليؤذنا في الناس بالحج ويحرضاهم على الانضمام إلى قافلة الشيخ أحمد، حتى احتشد عدد ضخم ممن حرضوا على مرافقة الشيخ في مثل هذه الرحلة المباركة[٢].

وقد كان هذا السفر نواة أولى لحركة الجهاد التي قادها الشيخ أحمد والشيخ إسماعيل الشهيدان، في القارة الهندية الكبيرة ضد الطغاة والمجرمين، وكان الشيخ إسماعيل أول جندي متحمس خاض في معركة الحق، وحرب التحرير، تحرير النفس من عبادة غير الله، وإنقاذ المجتمع من تأثير الآلهة الباطلة ونفوذ الوثنية والشرك فحارب القوى الباطلة وشنَّ حملته على النزعات الفاسدة والميول الزائغة التي فشت في المجتمع الإسلامي وقتذاك وتجول في مدن هذه البلاد التي كانت ترزح تحت سيطرة الخرافات والعقائد الباطلة، وفتح فيها باب الحق والهدى على مصراعيه ودعا الناس ليدخلوا آمنين مطمئنين، وكان ذلك فتحاً

---

[١] الشيخ العلامة عبدالحي بن هبة الله بن نور الله الصديقي البرهانوي، ولد بقرية "برهانه" ونشأ وقرأ على الشيخ عبد القادر بن ولي الله العمري الدهلوي، والشيخ عبد العزيز وأخذ الفقة على جده نور الله، وللشيخ المذكور مؤلفات منها: بابان من "الصراط المستقيم" بالفارسية، ورسالة في حكاية المناظرة وفتاوي كثيرة مشهورة، كان زاهدا، بعيدا عن الرسوم والبدع، وجليل الوقار، ومتصفا بالحلم والأناة ونور الإيمان وسيما الصالحين، توفي ١٢٤٣/٨/٨هـ، بقرية "خار" ودفن بها.

[٢] اقرأ بعض تفاصيل هذه الرحلة في الحديث القادم.

جديدًا في تاريخ الهند الإسلامي وانتصارًا للدعوة الإسلامية في القرن الثالث عشر.

وحدثت ضجة في أوساط المبتدعين من العلماء والشيوخ الذين كانوا يخدعون ضعاف العقول من الجماهير المسلمة وبسطاءهم وبدأوا يطلقون صيحات وصرخات ضد الشيخ محمد إسماعيل ويطعنونه في دينه وعقيدته ويرمونه بالإلحاد والزندقة وأرادوا أن يخمدوا جذوة الإيمان التي تشتعل في نفس الشيخ إسماعيل ويصرفوا عنايته من خدمة الدين إلى الاشتغال بالمخاصمات والنزاعات، ولكن إسماعيل الشهيد لم يُلق إلى كل ذلك بالا، ولم يعره ذرة من الاهتمام، إنه لم يفكر فيما يقوله الناس ويتهمونه، وإنما ركّز جل تفكيره وكلَّ عنايته على تحقيق مهمته من تبليغ الدين وإعلاء كلمة الله وإصلاح الفساد وتقويم العقائد وإعادة الإيمان واليقين إلى القلوب، وكل ذلك في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وكان من عادته أن يلقي كلمة الوعظ والإرشاد في حفل من الناس في الجامع الكبير بدهلي يومي الجمعة والثلاثاء يحضره الناس أفواجًا كما كانت طبقة من المثقفين والعلماء الذين لم يكن الشيخ إسماعيل يقع منهم موقع الإعجاب وكانوا يعارضونه في كفاحه الديني، تحضر أيضًا لتنتهز الفرصة إذا ما سنحت لتضليل الرأى العام وإهانة الشيخ، ولكنها لم تنجح في خطتها أبدًا، واستمر يشحن النفوس بتأثيره العميق ويشعل

القلوب بنفثاته القوية ، ونفحاته الزاكية ، كما كان يشتغل بالتدريب على الفنون الحربية والتمرين على شدائد الحرب والتعود على الصعوبات التي يواجهها الجنود في فترة الحرب ، وقد تحمل في ذلك كل شدة من الفاقة ، والجوع ، والعطش والسهر والتعب وما إلى ذلك .

ولما انقشع سحاب الابتداع والإشراك إلى أكبر حد ، ومج الناس عامة العقائد الباطلة وكرهوا التقاليد الفاسدة التي كانوا عاضين عليها بالنواجذ ، واستقر الوضع وعاد كل شيء إلى نصابه بدأ الشيخ إسماعيل يحثهم على الجهاد في سبيل الله بحكمه ومواعظه ، فكانت تحتوي مواعظه في أغلب الأحوال على معاني الجهاد وفضله والمرابطة في سبيل الله ، وتكررت هذه المعاني في كلامه حتى نزلت إلى أعماق النفوس وأخذت منها كل مأخذ ، وانبعثت في القلوب عواطف القتال في الله ودوافع الفداء والموت في سبيله إلى أن تمنى كل رجل أن يقاتل في الله فيقتل ويقتل تحت لواء محمد عليه الصلاة والسلام ويدخل في رحاب الشهداء والصديقين عند الله .

وعندما وفق إلى نضج دافع الجهاد في القلوب ، وإنفاد صبرها في القتال لنيل الشهادة ، ذهب إلى مرشده الإمام الشيخ أحمد بن عرفان على دعوة منه وأبدى استعداده للجهاد واتفقا على التوجه نحو الجهات الموبوءة من بشاور وبنجاب والسند إلى صحاري أفغانستان وبلوجستان وخرجا بجماعة من المجاهدين

الذين كانوا يريدون أن يمثلوا دور الصحابة والتابعين في القتال مع أعداء الإسلام والمسلمين ، ويجعلوا التاريخ الإسلامي الأول يعيد نفسه ، وكلما مرا على قرية يدعوان الناس إلى الجهاد والشهادة في سبيل الحق استجابوا لذلك ، حتى اجتمع جيش كثيف ووصلا معه إلى بشاور حيث أقاما مع المجاهدين وجعلاها مركزًا لدعوة الجهاد يدعوان منها القبائل للثورة على الحكومة البنجابية والجهاد في سبيل الحرية والحق فلبت دعوتهما ووعدت بالمسير معهما حيثما ذهبا ، والقتال مع العدو حينما أمرا .

وقد نالت القبائل وأهل البنجاب بغيتهم في هؤلاء المجاهدين وكانوا ينتظرون بطلا يقودهم للثورة ويسوقهم للجهاد ضد الوضع الحاضر والحكم الحالي ، ووقعت الحرب بين المسلمين وأعدائهم ، وكان الشيخ إسماعيل قائدهم العام ، فلم يعتم الأعداء أن فروا وهربوا هالكين ومدحورين وقامت دولة إسلامية صغيرة في بنجاب كانت " بشاور " عاصمتها ، لكن الحرب لم تنته بعد ، وإنما هي فئة من المسلمين تقاتل الأعداء في وادي " بالاكوت " وجماعة أخرى تقوم بأمور الدولة من إقامة العدل وتنفيذ قوانين الإسلام بين الناس .

وتكاد جماعة المجاهدين تستولي على رقعة كبيرة من ولاية البنجاب كلها وبعض المقاطعات الأخرى أيضاً ، ولكن وقع من الأمر مالم يكن يخطر على بال ، فقد شقَّ على بعض العناصر والقبائل قيام حكومة إسلامية شرعية ، فغدروا بالمسلين وانضموا

إلى راية الكفرة والطغاة والمجرمين وأخبروهم بجميع ما كانوا يعرفونه من أسرار المجاهدين وفسحوا لهم المجال حتى جمعوا عدة كبيرة وعددًا ضخمًا وأحاطوا بالمجاهدين في وادي " بالاكوت " من كل جانب ووقعت المعركة الحاسمة الأخيرة بدت فيها شجاعة المجاهدين الأبرار وظهرت فيها حماسة الشيخ إسماعيل الشهيد الذى قاد الجيش الإسلامي في ساحة الحرب وكان من أعلم القواد بفنون الحرب وأعظمهم بسالة ، فقاتل العدو قتالا مريرًا حتى قتل أخيرًا ، وتحققت أمنية شهادته في سبيل الحق ، وبذلك دخل في رحاب الشهداء الخالدين الذين قال الله عنهم :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[1]

وجعله ممن أنعم عليهم ، من النبين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

ذهب الشيخ إسماعيل الشهيد إلى جوار رحمة الله وفاز ـ بمشيئة الله تعالى ـ بدرجة الشهداء والصديقين في الآخرة وخلف في التاريخ الإسلامي الحافل ذكرا رفيعاً ، وأسوة للقتال والجهاد في سبيل الحق والحرية والعدالة تبقى خالدة للأجيال والأمم التي تريد بناء صرح المجد والعز والكرامة في الأرض ابتغاء وجه الله تعالى ، ليس غير .

❖❖❖

[1] سورة البقرة :الآية ١٥٤ .

الشيخ الإمام المجاهد الشهيد
أحمد بن عرفان

(١٢٠١هـ ١٢٤٦هـ)

(١)

كان القرن الثالث عشر الهجري أحرج فترة وأدقها في تاريخ الإسلام والمسلمين في الهند، عندما كان سلطان المسلمين السياسي يلفظ نفسه الأخير، وكاد يأفل نجمهم الذي تألق في هذه الديار إلى ألف عام تباعًا، ووجدت التقاليد السيئة والمحدثات من الأمور مرتعًا خصبًا في المجتمع الإسلامي، وبسط الشرك نفوذه في قلوب الناس، وعادت الجاهلية إلى رؤوسهم فباضت وفرخت، فلم يبق فرق بين الحلال والحرام، ولم تعد لشعائر الإسلام قيمة، وأصبحت العقيدة الإسلامية عبادة عن عبادة القبور وزيارة الضرايح.

لقدكان الوضع سيئاً إلى حد كبير، وتكاد تندرس معالم الإسلام في الهند، وينجرف الشعب المسلم في سيل الشرك والضلال، ولولا جهود بعض العلماء الكبار وأولي الغيرة من رجال العلم والفضل لم تقم في وجه هذا السيل الجارف قائمة، وهي جهود لا ينساها تاريخ المسلمين في هذه البلاد، ولا يتجاهلها المسلمون في أي حال من الأحوال.

في مثل هذه الظروف القاتمة والأحوال المظلمة قام رجل من رجال العلم والصلاح ، رجل أعزل من كل سلاح مادي ، لكنه متسلح بسلاح الإيمان الذي لا سلاح فوقه ، وخاض وسط الأمواج المتلاطمة في خضم الشرك والنفاق والبدع والمنكرات فقلب الوضع السيئ ، وشحن القلوب بحرارة الإيمان ، وأشعل النفوس بعاطفة الثورة على الأوضاع ، وألهب الطباع الجامدة بشعلة الجهاد ، وبدّل الأرض غير الأرض.

إنه الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد الذي نهض بحركة تجديد الدين برفقة الشيخ إسماعيل الشهيد ، وذلك في حين كانت البنجاب[1] كلها تحت حكم " السيخ " وكان الإنجليز يحكمون في الهند ، يبطلون شعائر الإسلام ، ويثيرون على الإسلام شبهات ، ويتبعون سياسة توزيع الشعب المسلم في فرق شتى ، وجماعات متناحرة ليفنى كيانهم الشخصي بدون إثارة حروب طاحنة ومعارك دامية .

هذا ، وكان المسلمون يجتازون مرحلة دقيقة في حياتهم ، فقد فشا فيهم الإفلاس الديني ، والفقر الخلقي فشوا لم ينته إلى حد ، وأصاب المجتمع الإسلامي داء عضال تكاد تكون فيه

---

[1] معناه بالفارسية مياه الأنهر الخمسة ، ويراد به ولاية في القسم الشمالي الغربي من الهند الإنكليزية ، تسبقها الأنهار الخمسة المشهورة وهي جهلم وجناب وراوي وبياس وستلج ، وهي أول أرض وطأها المسلمون بعد أرض السند ، وأرض بنجاب خصبة أكثرها سهل متسع منحدر إلى جهة الجنوب الغربي من مرتفعات كشمير ، وأهم حاصلاتها : الحنطة والسكر والأرز والتبغ ، فيها معدن الملح .

نهايته ، انتشر الفسق والفجور والمعاصي حتى صار جزءًا من المجتمع الكبير ، فكان الناس يتسابقون في ارتكاب المعاصي ، ويتبجحون بالوثنية التي التصقت وأحاطت بهم من كل جانب ، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وعم فيه استعمال الخمر والمسكرات جهاراً ، فأدى ذلك إلى تفسخ خلقي عظيم ، وظهر كل ما لم يكن يرجى من شعب مسلم يؤمن بكلمة الإسلام والقرآن ، وتجرد المسلمون من خصائص الأمم الحية والشعوب الفاتحة بتاتاً ، وانتشرت المومسات في المجتمع بصورة عامة ، فكان الناس- الأغنياء منهم والفقراء على السواء - لا يرون بأساً في الزنا وممارسة الحرام ، كأنهم سكارى ، خالعون ملابس الاحتشام والزينة ، عراة أمام الملأ بدون حياء ولا غيرة ، كل مشتغل باقتراف المعاصي والجرائم الخلقية ، لا يهمه دين ولا خلق ، وإنما الحياة كلها هزل ولهو ، والعيش عيش البهائم والأنعام التي لا همَّ لها إلا إشباع شهوة البطن والفرج ، لقد بلغ المسلمون في انحطاطهم الديني والخلقي إلى حد جلب لهم شقاء طويلا ، لا يزالون يذوقون مرارته إلى الآن .

أمَّا من الناحية السياسية فقد انحط فيها المسلمون وبلغ بهم الضعف إلى اضطراب الرأى ، وانهيارالأعصاب ، وفقدان الثقة بالنفس ، فلم تعد لهم ذاتية الحكم والسياسة التي كانوا ينفردون فيها عن غيرهم ولم يبق لهم قائد ولا زعيم يجمعهم تحت راية من العز والسيادة ويدعوهم إلى الاعتزاز بالدين والافتخار

بنعمةالإيمان والعلم التي يتمتعون بها ، وثارت عشرات من الفتن بين جماعة المسلمين الضعفاء ، فعاشوا أذلاء يحكمهم " المرهتة " من دهلى إلى دكن[1] ، و " السيخ " من البنجاب إلى ثغور أفغانستان ، والإنجليز على الحدود الساحلية وكلهم عُرفوا بعدائهم السافر للإسلام والمسلمين ، ومحاولاتهم الكريهة لتشويه وجه التاريخ .

إن هذه الأوضاع السيئة لم تكن تسمح للتاريخ الإسلامي أن يمتد ويزدهر ، بل كادت تقضي عليه وتسد في وجهه الطريق ، ولكن الحكمة الإلهية شاءت بقاء الإسلام في ديار الهند وازدهار العقيدة الإسلامية في ربوعها ، فقيَّضَ الله الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد لهذه المهمة وفتح هذه البلاد روحياً .

وقام السيد أحمد الشهيد بحركة إسلامية كبرى في القرن الثالث عشر الهجري ، وهي حركة أصيلة تعمقت جذورها إلى الأعماق ، فازدهرت ونالت قبولا وإعجاباً ، وأحيت القلوب الميتة بتأثيرها القوي ، كما أيقظت النفوس الجامدة بواقعها الحي وحقيقتها العظيمة .

---

[1] كلمة هندية معناها الجنوب ، اسم كان يطلق قديماً على الجهة الواقعة إلى جنوبي نهر نربدا من بلاد الهند ، ولكن بعد أن فتحها المسلمون انحصر الاسم في البلاد الواقعة بين نهري نربدا وكرشنا ، ممتدة من بحر العرب إلى خليج بنغاله ، مشتملة على ولايات خانديس وأورنغا باد وبيدر وحيدرآباد وبيجافور ، وبرار ، وغندوانه قديمًا .

وجاءت هذه الحركة في أوانها، إذ لو تأخرت قليلا لكانت الدعوة الإسلامية في هذه الديار قد أصيبت بشلل لم يمكنها من القيام مرة أخرى، ولم تجد لها من الأنصار والأعوان من يسيرونها، وظهرت هذه الحركة في حين نالت لها فيه من جماعة المسلمين أنصاراً يؤازرون في تقديمها إلى الأمام، ويتفانون في تحقيق الغاية التي قامت لأجلها.

ولم تكن هذه الحركة محدودة النطاق، بل كانت أول حركة ثورية قامت ضد الجرائم الخلقية والاستعمارية على مبدأ تأسيس الحكم الإسلامي والخلافة الإسلامية في الأرض، وكانت محاولة عملية لإقامة دولة الإسلام بعد قرون طويلة.

ولكي نفهم هذه الحركة جيداً، ونطلع على غايتها التي توخاها السيد أحمد الشهيد وراءها، يجب أن ندرس حياته ونعرف شخصيته، والجو الذي عاش فيه.

ولد السيد أحمد بن عرفان الشهيد[1] في صفر سنة ١٢٠١ه في قرية من قرى رأي بريلي، تعرف الآن باسم "تكية[2]"، وينتمي

---

[1] الشيخ السيد محمد عرفان بن الشاه محمد نور، ولد في نصيرآباد بمديرية رأى بريلي، ونشأ وترعرع وتعلم دراسته الابتدائية من أبيه في بيته ونال السلوك والتربية الروحية بعد حصول العلوم الظاهرة من الشاه أبي سعيد الحسيني، والشيخ السيد محمد واضح المحدث، والشاه محمد عدل، والشيخ السيد محمد نعمان، كان أكثر مريدي الشيخ السيد محمد عرفان من سكان لكهنؤ ونواحيها، فاختلف إليها حينا لآخر، وكان مشهورا بالفقر والغنى والتوكل والقناعة والزهد في الحياة، توفي في سنة ١٢١٤هـ.

[2] زاوية صغيرة على ضفة نهر "سئ"، تسكن هنا أسرة السادات الحسنية، وهي مركز العلم والدين ومعقل الصلحاء والأتقياء.

نسبه إلى سيدنا الإمام الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وقد هاجر جده الأعلى السيد قطب الدين محمد الحسني[١] من غزنة إلى الهند ، برفقة من أصحابه وأتباعه سنة ٦٠٧هـ أيام السلطان قطب الدين أيبك والسلطان شمس الدين الألتمش[٢] ، فنال حفاوة بالغة من السلطانين اللذين أكرماه وجماعته غاية الإكرام .

ولما استقر به العيش في دهلي توجه إلى شرقي الهند تحقيقاً للغاية التي هاجر من أجلها ، ووصل إلى قرية " كرا " من أعمال إله آباد[٣]" وقد كانت عاصمة حكومة مستقلة آنذاك ، فحمل

---

[١] الشيخ قطب الدين محمد بن رشيد الدين المدني ، العالم الكبير ، العارف بالله ، والبطل الشجاع المغوار ، رأى في المنام إبان إقامته المدينة المنورة أن النبي ﷺ يأمره بالهجرة إلى الهند لإعلاء كلمة الله ، فارتحل مع أقاربه إلى غزنة ومكث هنا مدة ثم تشرفت دهلي بقدومه الميمون مع ثمانية عشر ألف جندي ، وكان متمكنا على منصب شيخ الإسلام فيها لكن ماطاب له المكوث فيها ، فشن الغارة على قنوج ومانك فور ، وكرا ، وإله آباد ، ثم استوطنها ــ توفي في ٣ رمضان سنة ٦٧٧هـ ، من أولاده : نظام الدين ، قوام الدين ، وتاج الدين .

[٢] شمس الدين الألتمش ، الملك المؤيد ، المظفر التركماني ، السلطان الصالح ، جلب في صغر سنه إلى بخارى ، فاشتراه الحاج البخاري ، ثم اشترى منه الحاج جمال الدين ، فسار به إلى غزنة ثم إلى دهلي ، فاشتراه الأمير قطب الدين أيبك ، ورباه في مهد السلطنة ، وأقطعه كواليار بعد تسخيرها ، ثم أقطعه بدايون وما والاها من البلاد وأمره على عساكره وزوجه بابنته ، فلما توفي قطب الدين اتفق الناس عليه ، فقام بالملك بعده ، وسار إلى أرض " أرسية" بعساكره ، وقاتل صاحبها قتالا شديدا ، ثم صالحه على مال يؤديه عاجلا وآجلا ، كان عادلا صالحا فاضلا ، ومن مآثره أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين ، وأمر أن يُلْبَس كلُّ مظلوم ثوبا مصبوغا ، وكانت وفاته سنة ٦٣٣ هـ

[٣] مدينة مشهورة عند ملتقى نهر كنكا وجمنا ، تعتبر أقدس الأماكن لدى الهندوس ، ويحج إليها كل سنة جموع غفيرة منهم ليغتسلوا عند ملتقى النهرين ، حصنها السلطان جلال الدين أكبر ، وسماها " الله باس " ، ثم غيّر اسمها حفيده شاهجهان ، ودعاها إله آباد ، والله آباد ، تبعد من لكناؤ مأتي كيلو ميتر .

عليها وفتحها وما والاها من المدن والقرى ، ثم ضمها إلى الدولة الإسلامية واستوطنها كرمز لجهاده وانتصاره الباهر الذي أحرزه .

وعندما بلغ السيد أحمد الشهيد الرابعة من عمره دخل الكتاب وتعلّم العلوم الابتدائية ، وأقبل على الألعاب الرياضية يتمرن فيها على الطعان والجلاد ، ولما بلغ أشدَّه نشأ فيه دافع خدمة الخلق وإعانتهم ، فكان يدخل على الضعفاء والفقراء ويسألهم عن حوائجهم ليسدها ، وله في ذلك حكايات غريبة ، تثير الاستغراب والدهش .

وقد سبق في شغفه بالعبادة والذكر والنوافل كثيراً من النساك والمتعبدين- وهو في هذه السن- فكان يحيي الليالي في النوافل والذكر ، ويقضي النهار في خدمة الناس وتلاوة القرآن والدعاء والمناجاة مع الله ، ويتلو القرآن بتدبرٍ ودراسة عميقة .

أرادت الحكمة الإلهية أن ينشأ السيد أحمد الشهيد جندياً محارباً في جبهة الإسلام مجاهداً في سبيل الله ، فهيأ له وسائل المران على الجندية ، والفنون العسكرية ، لأن الجهاد لا يحتاج إلى عواطف القلب فقط ، بل وحاجته إلى قوة اليد ، والمعرفة بفنون الحرب لا تقل عن الأولى ، فكان من عادة السيد اليومية أن يشتغل بالرياضة الجسمية ساعات ، يتمرن فيها على طرق متعددة من الرياضات ، كالرماية ، والمصارعة ، وحمل الأثقال ، والجري والسباحة ، وما إلى ذلك .

وهكذا كان دأبه كل يوم يملأ نفسه حماسة وشجاعة، ويشحن جسمه قوة ونشاطاً، وكان يشعر بميل شديد نحو الجهاد وحنين غريب إلى الإسهام فيه ما يكون، وذات مَرّة نشب صراع بين المسلمين والهنادك في قرية مجاورة لرأي بريلي، فقام يستأذن أمه للجهاد والقتال تحت راية الإسلام، فأذنت له بذلك، ولكنه ما إن وصل إلى تلك القرية حتى انتهت الحرب.

ولما شبَّ السيد أحمد الشهيد وجد نفسه وحيداً بين أسرته، وقد توفي والده من قبل، فاضطر بحكم الظروف إلى أن يفكر في سبيل المعاش ليهيئ له بذلك كفاف العيش وقوت الأسرة وسافربرفقة جماعة من أقربائه إلى لكناؤ[1] علّه يجد هناك شغلا أو وظيفة يسد بها الحاجة ويدفع الأذى عن نفسه وعن أسرته، وتجشم في هذا السبيل من المشاق ما الله به عليم، وظهرت على يديه في هذا السفر من الخوارق والكرامات ما يؤكد بلوغه إلى أعلى درجة من صفاء الروح وزكاة النفس، وينبئ بإعراضه عن الدنيا وزخارفها والإقبال على الآخرة بقلب سليم.

وساقه القدر في هذه الرحلة إلى دهلي، حيث أسرة الشيخ ولي الله الدهلوى التي كانت منارة نور في الظلام، ومرجع العلماء، ومركز العلوم والمعارف، يقصده العلماء والطلبة من أنحاء البلاد ومن الخارج، فوصل الإمام السيد أحمد الشهيد إلى

---

[1] مدينة العلم والثقافة، عاصمة ولاية أترابراديش الهند، فيها خوالد وآثار تاريخية، وتعرف لكناؤ بـ" جامعة ندوة العلماء " التي تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، مضى على تأسيسها نحو قرن وربع وهي لا تزال قائمة بمهمة التعليم والتربية والدعوة إلى الله وتخريج أجيال من علماء ومفكرين ومصلحين والناطقين بلغة الضاد.

الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي من أسرة علماء السادة في رأي بريلي- وكانت الوشائج العلمية تربطهم بأسرة الشيخ ولي الله-أقبل على السيد أحمد واحتفى به وبالغ في إكرامه. وبدأ السيد يستفيد من الشيخ عبد العزيز وشقيقه الشيخ عبد القادر[1]، وأخيراً بايع السيد أحمد الشيخ عبد العزيز، واكتسب العلوم الروحانية والنفحات القدسية، وقام بمجاهدات ورياضات استطاع بها في مدة قليلة أن يحرز مكانة عالية في العلوم الباطنية والروحانية.

ومما يرويه التاريخ أن الشيخ عبد العزيز علمه مصطلح "تصور الشيخ" ضمن تعليمه مراحل السلوك الأخرى، فأبى ذلك السيد وقال: إنني أشُمُّ في ذلك رائحة الشرك، ولكن الشيخ عبد العزيز أنكر عليه ذلك، غير أن السيد أصرَّ على موقفه ولم يقتنع بـ "تصور الشيخ" في حال ما، وقال: إذا قدم لي الشيخ سنداً لهذا المصطلح من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ساغ لي أن أقبله وأعمل به، وما أن سمع ذلك الشيخ عبد العزيز من كلام السيد أحمد حتى احتضنه وقبله من شدة الفرح، وبشَّره بولاية الأنبياء فسأله السيد أحمد شرح هذه الولاية ومفهومها، وهناك انبسط الشيخ للكلام وقال:

"إن الولاية المطلقة هي أن يَخُصَّ الله عبداً من عباده بقربه، وعلامة هذا القرب أن يخالط حب الله ورسوله بشاشة قلبه

---

[1] أحد أبناء الإمام الدهلوي، نقل القرآن إلى اللغة الأردية السلسة، وكان عمله هذا فاتحة خير.

وأعماق نفسه ، بشكل لايرى فى الدنيا وزخارفها ما يَسُرُّ قلبه وتبتهج به نفسه ، ويمحو حب الأهل والأَولاَدِ والمنصب والمال عن قلبه ، فيطلب قرب الله ورضاه على الدوام ويشتغل بهذا الطلب إلى حد يرميه الناس بالجنون .

وقد سأل رجل من تبع التابعين سفيان الثوري عن نسبة إيمان التبع إزاء إيمان الصحابة فقال : لو كنت تراهم لظننتهم مجانين ، ولو أنهم رأوك حسبوك منافقًا وكافراً ، ولما رأوا فيك ما يبرر رد سلامك منهم ، وهكذا فإن صاحب الولاية ينهمك في المجاهدات من الصيام والصلوات وكثرة النوافل وخدمة الخالق ، لا يتعرض للجاهلين والفاسقين ، عاملا بالآية ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾[1] وأحب شيء لديه العزلة ، والعمل بإشارة النص ، وتأويل القرآن ، أو مصطلح الصوفية ، يسمى هذا العمل بـ " قرب النوافل[2] " .

أما ولاية الأنبياء فإن حب الله يرسخ في قلب صاحبها وينزل إلى أعماقه حتى إنّه يحب الإيثار و التضحية الذي تشير إليه الآية

---

[1] سورة الفرقان : الآية ٦٣ .

[2] عن أبي هريرة قال : رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال : من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشئ أحب إليَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه رواه البخاري ، في كتاب الرقاق ، باب التواضع :(٦٥٠٢).

في آل عمران ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[1] وأخلاق الأنبياء الذين قال الله عنهم في سورة ص: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾[2] وفسر أخلاقهم بقوله سورة في البقرة ﴿ ۞ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[3]

كل ذلك يتمثل في صورته وسيرته، ويقضي على جميع الرذائل والشرور الظاهرة منها والباطنة، وهو الذي يشتغل بهداية الخلق وإصلاح الفساق والمجرمين وإقامة حدود الله وفرائضه وإحياء سنن الأنبياء والمرسلين، والجهاد لأعداء الله والمسلمين، وتأديب الأشرار والمذنبين، ويعيش في هم خدمة الإسلام فلا يقصرعن الوعظ والإرشاد في محافل المسلمين ومجالسهم ولو لم يقبل الناس على كلامه، ويسمي هذا الطريق في مصطلح الصوفية بـ" قرب الفرائض "، ويعمل أصحابها بعبارة النص وتنزيل القرآن في أغلب الأحوال، وهذه المنزلة هي أعلى منازل

---

[1] سورة آل عمران: الآية ٩٢.

[2] سورة ص: الآية ٤٧.

[3] سورة البقرة: الآية ١٧٧.

الولاية كما أشار إليه القرآن ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [١]

وبقي السيد أحمد يشتغل بالمجاهدات ويتعلم العلوم الظاهرة والباطنة ، ويقضي جل وقته في صحبة المفسرين والمحدثين والفقهاء من علماء هذه الأسرة ، التي كانت تجمع فيها في وقت واحد أئمة العلماء وأجلة الفقهاء ــ وهي أسرة شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي ــ وانتهز السيد فرصة وجوده بين هذه الأسرة العلمية فدرس القرآن بتدبر عميق وفقه بالغ .

وفي مدة قليلة بلغ السيد أحمد درجة عليا من الإحسان ، واجتاز مراحل السلوك الوعرة بسرعة وسهولة ، ولقي من الله تقربًا ومعرفة ، قلما يوجد له نظير في تاريخ العلماء الربانيين والعارفين .

وعاد السيد إلى وطنه " رأى بريلي [٢] " وأقام فيه نحو عامين ، ولكن لم ترق له الإقامة في الوطن ، وسافر إلى دهلي مرة أخرى ، فقوبل بحفاوة بالغة وقبول عظيم وأقبل عليه الخلق للاستفادة والمبايعة غير أنه لم يرض بذلك كل الرضا ، ووجد في نفسه حنينًا نحو الجهاد ، فزار نواب أمير خان " حاكم ولاية تونك [٣] في الأخير " ، وقد كانت بينه وبين الإنجليز وبعض

---

[١] سورة الحديد : الآية ٢١ .

[٢] بلدة شهرة في ولاية أترابراديش الهند ، تبعد من مدينة لكناؤ ٨٢ كم ، وفيها دارة الشيخ علم الله ، مركز تربية كبير تعرف بـ " تكيه كلان " موطن الإمام الشهيد ، والعلامة الشيخ أبي الحسن علي الندوي رحمها الله تعالى .

[٣] مدينة شهيرة في ولاية راجستهان .

الأقيال معارك في أواسط الهند فأبدى له استعداداً للجهاد ضدهم وتربية الجيش ، فأقام في جيش أمير خان أكثر من ست سنين ، يربي الجيش ويدربه على الجهاد والقتال ، ويشير على الأمير بتدابير الحرب ومصالح القتال ، وكاد يقضي على حكم الإنجليز ويطردهم من البلاد ، إذ حدث ما يبعث الحزن ويثير الشجون ، ووقعت بين أمير خان والإنجليز مصالحة بالرغم من تحذير السيد أحمد ، وفي النهاية تم احتلال الإنجليز للولاية وسيطرتهم على الحكم .

قام السيد في هذه الفترة التي قضاها في الجيش برياضات وتمرينات روحية وجسمية ، إذ كان يقضي نهاره في تربية الجيش وتدريب العسكر والاستعداد للقتال ، وليله في العبادة والإنابة حتى كانت تتورم قدماه ، ولكنه لم يكن يبالي بذلك شيئاً ، ولم يكن يتغافل عن هدفه وغايته لمحة واحدة .

ورجع السيد إلى دهلي تاركاً أمير خان[1] وجيشه ، وبالغاً من الولاية والروحانية منزلة عليا ، محرزاً الآداب الإلهية والنفحات القدسية ، وصار وجوده في دهلي الآن بمثابة مركز عظيم يأوي إليه الناس ، ويلتفون حوله لاكتساب قبسة من علومه ومعارفه ، وقد حضره هذه المرة الشيخ إسماعيل الشهيد

---

[1] القائد الأفغاني الأصل أمير خان ، ولد ١١٨٢ هـ ، كان شغوفا بالحرب فأعد جندا لابأس به لمحاربة الإنكليز ، حتى دارت بينه وبين الانكليز معارك وحروب ، توجه السيد الإمام إليه للتربية العسكرية ، حينما قام برحلة ثانية إلى دهلي عام ١٢٢٦هـ ، لكنه تنازل عن وظيفته لمصالح قومية .

والشيخ عبد الحي وطلبا منه المبايعة ، فبايعهما ولازماه مدة من الزمان ، وبخاصة الشيخ إسماعيل الشهيد فإنه لم يفارقه حتى آخر لحظة من حياته ، وقد توثقت بينهما محبة خالصة مصدرها الإيمان ، ومنبعها الحب الإلهي ، فقاما في سبيل إعلاء كلمة الله ، واستنفدا كل جهودهما وإمكانيتهما ولولا بعض المبكيات المحزنات التي وقعت في الأخير لكانت راية الإسلام خفاقة في هذه البلاد ، وارتفع فيها مناره للأبد .

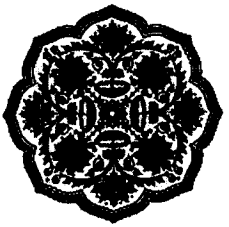

(ب)

ورجع السيد إلى وطنه متجولا في مدن كثيرة، ومتفقداً أحوال الناس وأوضاع المسلمين فيها، وقد ترك تأثيراً عميقاً في كل مدينة أو قرية أقام فيها لعدة أيام، إذ كان إقبال الناس عليه متزايداً، يثير الاستغراب ويبعث على الأمل، وانتهز هذه الفرصة السانحة لتوجيه الناس إلى تعاليم الدين وتنفيرهم من المبتدعات والوثنية التي وقرت في نفوسهم، وتكاد تحل محل شعارهم الديني.

لقد مرَّ الإمام السيد أحمد الشهيد وهو في طريقه إلى الوطن على مدينة سهارنفور، ومظفر نكر، وديوبند، ونانوتة، وكاندهلة، ورام فور، وبريلي، وشاهجها نفور[1] إلى غير ذلك من المدن والقرى، فكأن مطراً نزل من السماء بعد طول الانتظار وبعد المزار، واستبشر الناس بالخصب والرخاء بعد الجدب والبلاء، والتفوا حوله كأنهم كانوا منه على ميعاد، فأخذهم السيد بالتوجيه والإرشاد، ودعاهم إلى ترك البدع التي التصقت بهم، ونبذ آلهة القبور والمنكرات التي استولت عليهم، فكان لدعوته تأثير أي تأثير، غصت المساجد المقفرة بالمصلين، وارتجت

---

[1] هذه المدن تقع في ولاية أترابراديش، وتعرف برجالها المثاليين، ومؤسساتها العلمية والدينية، ومراكزها الإصلاحية، ولكل منها تاريخ مشرق يطول ذكره.

الأجـواء بـكلام الله والرسـول ، وعلـت الوجـوه نـضرة الإيمـان ، والقلوب بشاشة الحب ، وأعقب هـذا الخـصب الروحـي الخـصب المـادي أيـضاً ، فكـل قريـة زارهـا الـسيد تـضاعف الإنتـاج فيهـا ، وتزايدت حاصلات الثمار والنبات والحبوب ، وأخذت الأرض زخرفها وازينت ، وغشيها من بركاته ما أدهش الناس .

يتحدث العلامة الشريف السيد عبد الحي صاحب " نزهة الخـواطر" روايـة عـن الـشيخ محمـد حـسين[1] - أحـد أتبـاع السيدوشيوخ سهارنفور- يقول :

" كـل مكـان خطـا إليـه الـسيد أحمـد ازدهـر مـن نفحاتـه الروحيـة ونفثاتـه القدسـية ، وقـد توجـه الـسيد أحمـد إلى قريـة للمسلمين فمرَّ في طريقه على قرية لحديثي العهد بالإسلام الـذين طلبـوا منـه أن يمكـث لـديهم سـاعة ، وقبـل الـسيد دعـوتهم فأقـام عندهم ، ولم تسمح لـه الظـروف أن يـزور قريـة المـسلمين ، فكـان من أثر ذلك أن قرية حديثي العهد بالإسلام التي أقام فيها الـشيخ

---

[1] الحكيم السيد أحمد حسين بن السيد أبي الحسن من أولياء سهارنفور ، ولد في رجب سنة ١٢٢٥هـ ، كان أكبر الإخوة سنا و ولاية ، تعلم من كبار أسرته وعلماء زمانه ، وحصل فن الطب من الحكيم السيد محمد بخش ، وبرع فيه حتى اشتهر صيته إلى أنحاء بعيدة ، قضى وقتا في قرية بوريه في الأمور العلمية ، وكان يجيد الكتابة حتى وفق إلى كتابة سبعة عشر مؤلفا بخطه الجيد ، وكانت صلته الروحية بالإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، فزاره السيد الإمام حينما كان يذهب إلى معركة الجهاد لإجلاء الإنكليز من الهند ، ودعا له وأكرمه بالبيعة و ضمّه في خلفائه ، وكان الشيخ الحكيم كثير الصلات بالعلماء والمشايخ يجلهم ويحترمهم ، وقد أيد فكرة تأسيس مظاهر علوم سهارنفور ، وساهم فيها مساهمة بارزة ، توفي في ٢١/شوال ١٣٢٠هـ ، المصادف ٢١ يناير سنة ١٩٠٣هـ .

لا تزال مزدهرة ، مخصبة ، أما قرية المسلمين التي لم يزرها فهي مقفرة موحشة إلى الآن ".

أقام السيد في وطنه وحثّه الآن دافع الجهاد على التمرين على الفنون الحربية والاستعداد له أكثر مما مضى ، وذلك بدون أن يقصر في مجاهداته الروحية وعباداته ، وقد كان شغفه بالجهاد منذ صغره ، ولكن تزايد هذا الشغف واشتد أواره الآن ، وكاد لا يصبر على البقاء في الوطن حينما سمع بقصة اضطهاد مسلمي " بنجاب " وعلم : أن "السيخ[1] " ينالونهم بالأذى والظلم وهتك الحرمات ، ولا يتركونهم ليعيشوا في وطنهم سالمين آمنين .

قد أقلقت هذه الفكرةالسيد أحمد الشهيد ، وصارت منه كجزء لا يفارقه ، فكانت تتمثل أمامه في كل حين ساحة الجهاد وتتراءى له المعارك الحاسمة ، يرى فيها صورة معارك الإسلام في بدر وحنين ، وما كان يستقيظ وينام إلا على ذكرها والتفكير فيها ، وكلما رأى رجلا قوياً وشابًا نشيطاً يقوله : هذا ممن نريده لعملنا "

ويحكى أن أربعة شباب من إحدى القرى جاءوا لزيارته ـ وقد كان كل منهم قويا نشيطًا ـ فلما رآهم فرح بهم كثيرًا وقال : إن حاجتنا إلى مثل هؤلاء الشباب أكثر من حاجتنا إلى الشيوخ ، وأثرت كلمة السيد في قلوبهم ، فقالوا : نحن رجال فقراء لا

---

[1] فرقة دينية في بنجاب ، وضع أساسها في القرن الخامس عشر المسيحي على أيدي " غرو بابا نانك " (١٤٦٩ ـ ١٥٣٥م) الذي كان ينشر تعاليمه الخلقية ويحث على الصدق وتهذيب النفس .

نستحق منكم هذا المدح ، فأجابهم السيد قائلا : إن الله تعالى اختاركم لعمله .

ويروي التاريخ أن الله تعالى قبلهم ، فاستشهد ثلاثة منهم في أول حملة وقعت على " أكوره[1] " وبقي واحد منهم ملازمًا للسيد يخدمه ويخدم رجاله في الحل والترحال .

ولما اشتد اشتغال السيد أحمد بالتدريب على فنون الحرب والتمرين على أساليبها ، واستغرق ذلك جل وقته إلى أن وقع نقص في أمور العبادة والسلوك ، وكثرت في الناس قالة ، وتحدثوا فيما بينهم بذلك ، واستقر رأيهم على أن يتحدث مع الشيخ واحد منهم ويبين لهم ما يخطر ببالهم ، وما يلاحظونه من النقص وقلة النشاط في العبادة والسلوك ، فلما سمع السيد كلام الناس قال :

" نحن الآن في وجه عمل أفضل من السلوك ، وأجد قلبي مشغولا بذلك ، وهو الاستعداد للجهاد في سبيل الله ، و الجهاد لا يعادله شيء مما تريدونه وتطلبونه ، فإن ذلك يعني اكتساب علم السلوك وهو تابع لهذا العمل الجليل ، وإذا كان هناك رجل يصوم النهار ويقوم الليل إلى أن تتورم قدماه ، ورجل آخر يطلق البندوقية ويتعلم فنون الحرب كي يقوم في وجه الكفار ويحاربهم في سبيل الله ، فلا شك أن الثاني أفضل من الأول ، ولا يستطيع

---

[1] بلدة قريبة من بشاور ، وقعت فيها حرب بين المجاهدين والسيخ ، وفيها دارالعلوم الحقانية ، تصدرمنها مجلة شهرية باسم " الحق " بالأردية .

الأول أن يبلغ منزلة الثاني ، إذ يتقدم هذا العمل عمل السلوك ، وأما ما نلمسه منذ أسبوعين من لذة غريبة وحلاوة في الصلاة والعبادة فذلك من أثر هذا العمل الجليل فقط ".

تركت كلمة السيد في قلوب الناس أثرًا عميقا ورأوا الخير كل الخير فيما يأمر به السيد ويريده ، فاطمأنت قلوبهم ، ورضيت نفوسهم ، وعلموا أن الإعداد للجهاد وقتال أعداء الله ـ لنشر دينه وتعاليم دعوته ـ واجب الساعة ونداء الوقت . ورأى السيد أن الطريق ممهد للجهاد ، وأن المجاهدين مستعدون للإجابة ، ولكن الله ألقى في روعه أن يزور الحرمين قبل أن يخوض المعركة ، فيحج ويستمد من بركاتهما روحًا جديدة وقوة ونشاطاً ، ويدعو الله تعالى وهو في بيته للتوفيق والنجاح ، ساورته هذه الفكرة وأقلقت باله ، وعلم أن ذلك من الله ، وأنه يدعوه إلى بيته فيجب أن يسرع في تلبية هذه الدعوة .

لقد ألهم الله السيد أحمد الشهيد بالحج والزيارة في عصر كان الناس قد نسوا الحج ووقعوا منه في غفلة ، وفي عصر لم يكن السفر إلى الحج ميسورا ، لأن أخطار الطريق تحول دون ذلك ، فلم تكن الطرق آمنة ، ولم يكن هناك من السفن الضخمة والبواخر العظيمة مثل ما نشاهد اليوم ، بل أنواع من المشكلات وصنوف من المشاق لم تكن تسمح للناس بأن يغامروا بأنفسهم ، وكانت تعوق دون أمنيتهم هذه المباركة خطوة تلو خطوة .

ولكن السيد أحمد حدا به الشوق إلى الحج ، والحنين إلى زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأعلن في الناس أنه يريد

الحج ، فمن رأى أن يرافقه في هذا السفر فليفعل ، وأتاح الله له هذه الفرصة التي كانت خطوة أولى للجهاد ومقدمة لتحمل المشاق والأذى في ساحة الحرب ، إذ أن هذا السفر كان جهاداً بنفسه وتمهيداً لما سيلاقونه في المستقبل .

وانتشر نبأ الحج بسرعة مدهشة في طول البلاد وعرضها ، ولم تكد تمضي عدة أيام إذ بدأت وفودِ الحجيج تأتي إليه ، وتنهال الرسائل من كل جانب تسأل عن موعد الحج وتستأذن لأصحابها المرافقة في السفر ، حتى احتشد عدد كبير يرافق السيد في سفره الميمون ، وقد تحققت الأمنية والتهبت شعلة الحب والشوق ، ولم يصبر الناس على البقاء في ديارهم لمحة واحدة ، وكلٌّ سعيد بهذه الرحلة وكلٌّ مغتبط بهذه الصحبة .

وفي غرة شوال سنة ١٢٣٨هـ بعد ما صلى السيد صلاة العيد مع الجماعة والوفد أعلن بداية رحلته الميمونة ، خرج بأربع مائة نفر ، تاركا أهله وقريته (تكية رأي بريلى) إلى مكة والمدينة ، حيث يستمد من الله قوة وروحاً ، ويشحن نفسه بإيمان أقوى ونشاط أوفر .

ولكن هل وصل السيد أحمد الشهيد رأساً من الهند إلى الحجاز ـ كما هو المعروف اليوم ـ أو كانت له وقفات ومحطات كثيرة استغرقت مدة طويلة ؟ يجب أن نطلع على هذه الرحلة الميمونة التي تعد بحق من أعظم الرحلات وأجداها في سبيل نشر الدعوة ، وتستحق الخلود في كل عصر ومصر ، وتجدر بأن تكون أسوة حسنة للدعاة ونموذجاً مثالياً للمسلمين في كل مكان .

توجه السيد أحمد الشهيد من قريته إلى "دلئو[١]" التي تبعد عنها نحو ١٨ ميلا حيث نهر "كنكا" وذلك كي يواصل منها سفره عن طريق السفن ، فلما وصل إلى "دلئو" وجد جماعة من الناس ينتظرون قدومه ، فانتهز فرصة التبليغ ، وأقام فيها مع جماعته عدة أيام يدعو الناس إلى التوحيد والإيمان ونبذ التقاليد والعادات السيئة والمبتدعات ، فكان لكلامه تأثير عميق في النفوس ، حتى دخل الناس ــ رجالا ونساء ــ في حظيرة الإيمان من جديد ، وتمكنوا من معرفة أوامر الدين وتعاليم الكتاب والسنة ، ومما قال في إحدى خطبه التي ألقاها أمام جمع حاشد من الناس في هذه القرية :

"إخوتي ! أرجو الله تعالى أن يوفقني في هذه الرحلة إلى نشر دعوته وهداية آلاف من عباده عن طريقي ، وتوبة آلاف منهم من الفسق والفجور ، والشرك والبدع ، والاطلاع على شعائر الدين ، واعتناق التوحيد ، وقبول أوامر الله .

لقد دعوت الله تعالى لأهل الهند أن يفتح لهم طريق الحرمين ، ويوفقهم لزيارتها ، فقد مات والله كثير من الأثرياء والأغنياء غير موفقين للحج ، وذلك لأن الشيطان استحوذ عليهم ، وقال لهم : إنَّ الطريق مليئ بأخطار ومخاوف لا تدع الإنسان أن يصل إلى بلاد الحرمين ، فافتح يا إلهي ! طريقك لكل

---

[١] قرية كبيرة على شاطئ نهر كنكا في مديرية رائ بريلي .

من ينوي الحج ، ويسِّر له هذه الرحلة ، وقد استجاب الله دعوتي ، وألهمني أنه يفتح الطريق بعد رجوعي ، فمن عاش بعدي سيرى كيف يتحقق وعد الله".

وقد تحقق وعد الله ، وكان وعده مفعولا ، فرأينا أن الطريق آمن منذ ذلك الوقت ، ولا يزال يزداد يسراً وسهولة إلى الآن .

ولم يزل السيد ينتقل من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة أخرى وهو في طريقه إلى البلاد المقدسة ، يحل ويرحل ، ويقيم ويسافر ويبلغ الناس دعوته ، ويُعَلِّمُهُمْ دين الله وسنة الرسول هو وصاحباه مولانا محمد إسماعيل الشهيد ، ومولانا عبد الحي ، وقد طالت إقامتهم في بعض المدن قرابة أسبوعين ، وانتهزوا كل لمحة لتبليغ الدين ونشر دعوة الله .

مرَّ هؤلاء الأئمة ، وقادة الدعوة الإسلامية بـ إله آباد ، وبنارس[١] ، وعظيم آباد[٢] ، وبها كلبور[٣] ، ومرشد آباد[٤] ، إلى أن وصلوا إلى "كلكته" بعد ما قضوا في كل محطة وقتًا يعلمون الناس دينهم ويبلغونهم أوامر الله ، ويربون النفوس السعيدة ، ومن كل مكان حصل لهم عدد زيادة على العدد الذي خرجوا به .

---

[١] مدينة شهيرة في ولاية أترابراديش ، مقدسة عند الهندوس ، وفيها مدارس ومراكز علم ودين من قديم ، وفيها الجامعة السلفية المركزية التابعة لجمعية أهل الحديث .

[٢] بلدة واقعة على الضفة اليمني من نهر كنكا واسمها الجديد بتنة عاصمة ولاية بهار ، تُعدُّ من مدن الهند الشهيرة ، وقد عرفت ببعض أقيالها ، إلى عظيم الشأن بن شاه عالم بن عالمكير التيموري .

[٣] بلدة في ولاية بهار مشهورة بنسج الأثواب والأردية .

[٤] بلدة في ولاية بنغال .

أقام السيد مع جماعته ثلاثة أشهر في كلكته ، ووفقه الله في هذه المدة اليسيرة لإنجاز عمل جليل يكاد يستحيل في مدة طويلة ، إذ نجح في إرشاد عدد ضخم من الناس إلى طريق الدين الصحيح ، وتمكن من إنقاذ آلاف الرجال من ربقة الوثنية والشرك والمبتدعات وهدايتهم إلى التوحيد الخالص والإيمان الراسخ ، فكم من رجال تابوا من المحرمات والمنكرات ومن الخمر والميسر ، وكم منهم من أغلقوا حوانيت الخمر ، ونبذوا أواني الذهب والفضة ، وطلبوا من الحكومة توقيف كل عمل يخالف تعاليم الإسلام ، واستقال كثير من المسلمين من مناصب حكومية هامة كانوا يشغلونها احتجاجًا منهم ضد الاستعمار .

ويروي لنا التاريخ أن عدد التائبين والمبايعين كل يوم بلغ إلى ألف نفس ، كما أن عدد من كانوا يعتنقون الإسلام كل يوم بلغ من عشرة إلى خمسة عشر رجلا ، فكان السيد أحمد الشهيد وصاحباه ـ مولانا محمد إسماعيل الشهيد والشيخ عبد الحي ـــ كلهم منهمكين فى تبليغ الدين ، منتهزين الفرص لتبليغ دعوتهم ، حتى لم تبق لهم فرصة للاستراحة ، ولا للمحة واحدة .

ومن الطريف أن حوانيت الخمر أقفرت طوال هذه المدة ، حتى اضطر أصحابها إلى رفع الشكوى إلى الحكام ، وقالوا: إنه منذ قدوم هذه الجماعة إلى المدينة لا يدخل رجل واحد الحوانيت ، ولم يبق من يشتري منا الخمر أو يشربها ، وقد جر

ذلك إلى خسارة عظيمة فادحة في تجارتنا ، فطمأنهم الحكام بأن قالوا : "إن هذه الجماعة سوف تغادر المدينة إلى مدينة أخرى ، وسنجري البحث والتفتيش عن خسارتكم ، فإذا كان الأمر حقاً خففنا في الضريبة".

ومكث السيد وجماعته في كلكته ثلاثة أشهر، قام خلالها بعمل في الهداية والإرشاد لم يكن يخطر على بال ، وكان له سلطان على القلوب والأرواح ، وقامت له دولة أقوى من دولة الإنجليز المادية ، إذ أتاح الله له فرصًا للإصلاح والإرشاد ، وتزايد عليه إقبال الجمهور بطريق أثار استغراب الجميع ، ودعاهم إلى أن يفكروا فيما كان يحمله السيد من عواطف نبيلة ودوافع قوية نحو خدمة الدين الإسلامي وتطهير القلوب والنفوس .

وتحققت "نبوءة" السيد أحمد الشهيد التي أبداها في إحدى خطبه وقال: "إنني أرجو الله أن يوفقني في هذه الرحلة إلى نشر دعوته وهداية آلاف من عباده عن طريقي ، وتوبة آلاف منهم عن الفسق والمعاصي والشرك والبدع ، والاطلاع على شعائر الدين ، واعتناق التوحيد ، وقبول أوامر الله".

وغادرا السيد أحمد الشهيد " كلكتا[1] " إلى الحجاز عن طريق البحر ، وودعه إلى الساحل خلق كبير لا يحصيهم إلا الله ، وقد خلف وراءه تأثيرًا عميقًا لدعوته وإصلاحه وبدت على يديه

---

[1] مدينة تجارية ، عاصمة ولاية بنغال ، وكانت هناك مدارس وجامعات ومجامع شهيرة منها "المدرسة العالية " و" إيشياتك سوسائتي .

من البركات والكرامات واللذات الروحية مالا يدركه إلا من صحبه في هذا السفر أو رآه عن كثب .

وصادف مروره على موانئ كثيرة يقيم ، فيها أيامًا ويؤدي واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل حرية وانشراح صدر ، وعندما وصل إلى "مينا مخا" رأى الرجال والنساء كلهم يغتسلون عراة بدون أى احتشام وبكل وقاحة ، وتلك عادة عرفوها وتوارثوها جيلا بعد جيل ، واستنكر السيد هذه الوقاحة أشد الاستنكار ، واتصل بقاضي تلك المدينة وحاكمها ليتحدث معهما حول هذا الموضوع ، وحذرهما من مصير هذا المنكر الشائع ، فاعتذروا للسيد وقالوا : إن أهل هذه المدينة تعودوا هذا الطريق في الاغتسال ، وهم لا يرون فيه بأسًا ، غير أننا نصدر تعليمات تمنع الناس عن هذه العادة طوال إقامتكم ، ومكث السيد فيه شهرًا حتى توقف هذا التقليد السئ بنفسه ، ولم يعد الناس لمثله بعد خروج السيد أيضا.

ودخل السيد وجماعته ميناء جدة في شعبان سنة ١٢٣٧هـ ، وسعد بدخول الحرم يوم ٢٨شعبان ، وحينما رأوا الكعبة بيت الله الحرام لم يملكوا أنفسهم ، وبكوا على نيل هذه السعادة التي لا تعادلها سعادة ، وشكروا الله على هذه النعمة ، وطوفوا وسعوا ، وخرجوا من الإحرام ، وهنّأ بعضهم بعضًا ، وقضى المطوفون والخدم كلهم عجبًا مما رأوه في هذه القافلة من البركة وسيما القبول ، حتى قالوا : إننا لم نر في حياتنا مثل هذه الجماعة المباركة التي حلت اليوم .

وأهل هلال رمضان ، فاستبشرت الجماعة خيرًا ، وقضوا رمضان في بلد الله الحرام في العبادة والإنابة والذكر والتلاوة واعتكفوا في الحرم في العشر الأواخر من رمضان ، وحضر الحج فحجوا حجًا مبرورًا .

ولم يكتف السيد الشهيد بأداء مناسك الحج ـ ولو كان ذلك أعظم سعادة وأضخم فخر ـ ولكنه قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الحجاز أيضاً ، وأضاء قلوب أهلها بنور ذلك الإيمان الذي كان يحمله ، وحضره كبار علماء الحجاز ليبا يعوه على الإخلاص والإيمان ، منهم : الشيخ محمد عمر مفتي مكة المكرمة[١] ، والسيد عقيل[٢] ، والسيد حمزة[٣] ، والشيخ

---

[١] عمر ابن مفتي مكة المكرمة الحنفي المكي ، الخطيب بالمسجد الحرام ، ولد بمكة المكرمة ، وقرأ على والده وغيره من الفضلاء العظام ، توفي بمكة ٨ محرم الحرام سنة ١١٦٢ هـ ، ودفن بالمعلاة في تربة الشيخ عبد الوهاب ، وكان ذا أخلاق حسنة وأفعال مستحسنه .

[٢] عمر عقيل الشافعي المكي ، المدرس بالمسجد الحرام ، ولد بمكة وأخذ العلوم عن والده وغيره ، كان أجل الجلساء عند أمير مكة السيد الشريف عبد المطلب ، مقدما عنده ، معظما مبجّلاً ، فجمع إلى شرف العلم والنسب عز الجاه ونال من خيري الدنيا والآخرة مرتجاه ، توفي بمكة سنة ١٢٩١ هـ ، ودفن بالمعلاة ، له رسالة حول جمع القرآن العظيم ـ .

[٣] حمزة عاشور المكي الإمام المحدث ، ومن مشاهير مكة أرباب الصلاح والورع التام ، كان يحبه الناس ويعظمونه ، وكان يدرس بالمسجد الحرام في غالب الإيام البخاري ومسلم ، وكذا كتب التصوف ، ويجتمع عليه كثير من الخلق في درسه ، وهو رحيم صهر لبيت مرداد ، لأنه كان متزوجا بأخت الشيخ عبد المعطي بن محمد مرداد ، ولم يعقب منها ولامن غيرها ذرية ، وكانت أخته متزوجة بالشيخ أحمد بن عبد الله بن الرحمن مرداد ، وآتت منه بثلاث بنات فمتن كلهن ، توفي بمكة سنة ١٢٤٧هـ ، ودفن با لمعلاة ، ويوم موته صار له مشهد عظيم ، (المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفضل مكة : ١٨٢) .

مصطفى إمام المصلى الحنفى[١]، الشيخ شمس الدين المصري الواعظ ببيت الله الحرام[٢]، الشيخ محمد علي الهندي المدرس بمكة المكرمة[٣]، والشيخ عمر بن عبد الرسول المحدث[٤]، والشيخ بخاري المدرس بالمدينة المنورة، والخواجة الماس[٥]، وقد كان من

---

[١] مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد صالح بن محمد مرداد الحنفي المكي، شيخ الخطباء والأئمة بالمسجد الحرام، ولد بمكة المكرمة وحفظ القرآن العظيم بالقراءات تلقاها من المشايخ الأفاضل فأتقنها، ونشأ على منهج حسن وقرأ من العلوم ما يصلح به عبادته، وكان حسن الصوت، كثير التواضع، متقشفا جدا، تولى منصب مشيخة الخطباء بعد موت والده في سنة ١٢٥٧هـ، ومكث فيها إلى أن توفي في سنة ١٢٦٤هـ، بمكة ودفن بالمعلاة، وأعقب ابنين عبد الله وعبد الحفيظ، أما الأول فقد مات، وعقب ابنين مصطفى وعبد الحفيظ وبنتا، ثم إن مصطفى المذكور مات عقيما، وأما الثاني فتوفي، ولم يخلف ذرية.

[٢] شمس الدين الدروطي: واعظ زاهد، مصري كان بالجامع الأزهر أيام السلطان قانصوه الغوري، وكان جريئاً على السلطان، عنيفا في وعظه، متعففا في عطائه، أصله من "دروط" بمصر ونسبته إليها، توفي بدمياط، له "القاموس" في الفقة، و "شرح منهاج النووي".

[٣] محمد مراد البنغالي أصلا، المكي مجاورة، الحنفي مذهبا، كان محدثا فقيها مفسرا، ولد ببلده، ونشأبها وقرأ على أفاضل أهلها، ثم رحل إلى الهند وأخذ العلم عن كثير من الأفاضل، ثم مكة المكرمة، وتوطنها ومكث يدرس بالمسجد الحرام، وصار مبجلا عند الخاص والعام، وكثر تردد كثير من الهنود وبعض من الأهالي إليه، وقرأ الجم الغفير عليه، ولم يزل منها للواردين إلى أن انتقل إلى رحمة رب العالمين، توفي بمكة سنة ألف ومأتين ونيف وثمانين، وقد جاوز السبعين.

[٤] عمر بن عبد الرسول أبوحفص، الراوي لحديث سيد السادة المسلسل الموصول، الحنفي المكي، الأستاذ العالم الجليل، خاتمة المحققين، أنفق جل ماله في طاعة الله وإطعام الطعام للفقراء والمساكين المجاورين والوافدين، وكان شديد المحبة لآل بيت النبوة، يوقر كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويسعى في مرضاتهم، وكان طاهر النشأة، محمود السيرة، قليل التردد على الأمراء، طبع عليه من العفة الحقيقية، كانت ولادته بمكة المكرمة سنة ١١٨٥هـ، ثم رحل إلى المدينة المنورة، وأقام بها نحو تسع سنين، وأخذ عنه إذ ذاك فضلاؤها، ثم رجع إلى مكة وأقام بها مدة عمره، ولم يزل عاكفا على المطالعة والتدريس والعبادة وإقراء الكتب العديدة بالمسجد الحرام، وانتفع به الخاص والعام، وتقلد فتوى مكة على كره سنة أو أقل ثم استعفي منها ووليها العلامة عبد الحفيظ عجيمي، توفي ليلة الثلاثاء بعد المغرب ٩ ربيع الأول ١٢٤٧هـ.

[٥] الخواجه الماس: من أولياء الله في المدينة المنورة.

كبار أولياء الله في المسجد النبوي .

ونهل العالم الإسلامي كله بهذه المناسبة من منهل السيد أحمد الشهيد إذ أن بركاته لم تنحصر في الحجاز ، وإنما تعدت إلى العالم الإسلامي كله بحكم كون الحجاز مركز العالم الإسلامي وموارده ، وخاصة في موسم الحج .

وبعدما زار السيد المدينة وزار سيد المرسلين محمدًا ﷺ ، وقضى وقتًا لا بأس به في مسجد الرسول ، واستوحى منه إيمانًا جديدًا وقوة جديدة ؛ استأذن ربه في الرجوع إلى الوطن لكي يقضي حاجة في نفسه كانت تراوده في كل حين ، فارتحل إلى الهند في ٢٩ ربيع الأول ١٢٣٨ هـ من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة حيث قضى رمضان ، وودعها في غرة ذي القعدة ، وصادف وصوله إلى الوطن يوم ٢٩ شعبان ١٢٣٩ بعد ثلاث سنين إلا شهرًا .

(ج)

وقد آن للسيد أحمد الشهيد أن يحقق أمنية الجهاد التي راودته منذ نعومة أظفاره، وينقذ المسلمين من براثن الذئاب الضواري فيخرجهم من شريعة الغابات إلى شريعة النور والعدالة والمساواة، وقد تفطن السيد أحمد بفراسته وإيمانه إلى أن الظروف القاسية والأوضاع السيئة التي يعيش فيها مسلمو الهند ـ ولا سيما مسلمي بنجاب ـ لا ينقشع سحابها بدون أن تكون لهم سيطرة مستقلة وكلمة نافذة، إنه رأى أن الإسلام في هذه البلاد يعاني ضعفًا ويجتاز فترة الاضمحلال الشديد، ولو لم يقم لإسعافه أولو الغيرة والإيمان من المسلمين لكان للهند آخر عهد بالإسلام، وعادت إليها الجاهلية الأولى، وساد عليها جو من الكفر والنفاق، وارتمت البلاد إلى أحضان الشرك، ووقعت في شرك آلهة شتى، شأنها في عهد الظلام والهمجية والكفر.

رأى الإمام أحمد الشهيد بأم عينيه أن موجة الشرك والجهل والإلحاد تطغى على الأمة الإسلامية في الهند وفي العالم الإسلامي أجمع، وشاهد البدع والخرافات تغزو عقول المسلمين، وغربة الإسلام والعلماء لا تزال تتفاقم، وتزيد الفجوة بين الحياة والإيمان وبين العلم والعمل، إنه رأى الدين تداس حرمته، وشعائر الإسلام تنتهك كرامتها، وأن الانحطاط يتسرب إلى ديار الإسلام وحصونه، رأى الإمام أحمد الشهيد كل ذلك،

وعلم حقا أن دواء هذا الداء ليس في الوعظ والإرشاد فحسب ، وأن مجالس الدرس وتزكية الباطن لا تغير في الوضع شيئًا ، وإنما كان يعتقد أجزم الاعتقاد ويؤمن أقوى الإيمان بأن الإسلام والمسلمين في حاجة إلى القوة ، تلك القوة التي تنبع من الإيمان القوي والعزم الأكيد ، وذلك لكي يمكن دفع التيار بالتيار ورد السيل بالسيل .

لقد كان يرى أن التشريع الإسلامي بما فيه من حدود وقوانين لا ينفذ في الحياة العملية إلا بالحكومة والنظام الشرعي ، وأن المسلمين لا يستطيعون أن ينعشوا من ضعفهم وينهضوا إلى مصاف الأمم ، ويثبتوا تفوق النظام الإسلامي وفضله على سائر النظم والمبادئ بدون أن تكون القوة والسيطرة بأيديهم ، وبذلك سيتغلب الإسلام ويبسط سلطانه ونفوذه في كل مكان ويتمكن المسلمون من العمل بالإسلام وجميع تعاليمه ، فإن العمل بجزء كبير من الكتاب والسنة يتوقف على أن تكون للإسلام دولة مستقلة تقوم على أساس الشريعة والدين الحنيف ، كما يتحدث بذلك أحد كتابه في ساحة الجهاد ، وهو يترجم أفكار السيد أحمد الشهيد ، فيقول :

" إن بقاء الدين بالدولة ، وإن الأحكام الدينية والقوانين التي لها علاقة بالدولة لا يمكن العمل بها إذا لم تكن للإسلام دولة ، وإن المسلمين لا يذوقون الذل والنكبة على أيدى الكفار وإن شعائر الدين لا تداس كرامتها ، وإن المساجد لا تهدم

ولاتخرب ، إلا لكون الإسلام في هذه الديار ليست له دولة مستقلة " .

علم القراء ـ فيما أسلفنا ـ أن السيد أحمد الشهيد كان دائم الاستعداد للجهاد ، يبعث في الناس روح الحماسة الدينية والقتال ضد أعداء الله ، وكان شديد الاهتمام بتأسيس دولة إسلامية لتكون كلمة الله هي العليا ، وترتفع راية الدين خفاقة عالية ، وتعود إلى المسلمين الثقة بشخصيتهم ، والاعتماد على قوتهم ، ولما رأى السيد أن " السيخ " يستعبدون المسلمين ويصبون عليهم من الظلم والقسوة والعذاب ما يفتت القلوب ويفلق الأكباد ؛ عزم على الخروج في سبيل الله دون أن ينتظر الفرصة الأخرى ، وعين البنجاب مركزًا للجهاد للأسباب التالية :

١. الانتصار لمسلمي البنجاب كان فريضة شرعية في ذلك الحين على جميع مسلمي الهند ، والإهمال في ذلك يسبب لهم خسارة فادحة في النفس والمال .

٢ـ انتهاك حرمة الإسلام وشعائر الدين .

٣ـ وجود القبائل المحاربة الحرة .

٤ـ قرب الشعوب والدول الإسلامية الحرة المستقلة .

لم يكن الإمام أحمد الشهيد يتوخى من هذا الجهاد ولم يكن يطلب من ورائه إلا دعم أساس الدين وتوطيد دعامة الإسلام في هذه الديار . قد كان يتمنى أن يرى المسلمين مبيضي الوجوه فيها ، وتقر عينه بالحياة الإسلامية العزيزة بأن تعود إلى

المسلمين كرامتهم وإلى الدين حرمته ، وتنهزم القوى الباطلة التي تألبت على الإسلام ورجاله ، وتجمعت لشن الغارة عليهم ، إنه أراد أن يقضي على الجبهة المعادية ويثور على مراكز الكفر والفتنة والنفاق ، فلا تقوم لها قائمة وتكون نهايتها على يده ، حتى يرى الإسلام عزيزًا ومنتصرًا والكفر مغلوبًا ومنهزمًا .

إن أعظم غاية استهدفها السيد أحمد في جهاده إنما هي الانتصار لدين الله وإعلاء كلمته ونشر سنة النبي محمد ﷺ ، وجلب رضا الله تعالى . يقول في إحدى رسائله التي وجهها إلى بعض نواحي البنجاب :

" لا يخفى على أصحاب العدل والهداية أن قتال أهل الكفر والضلال إذا كان أساسه استجلاب المال والعز والجاه ، والتبوء على منصب الحكم والسيادة فلا عبرة به عند الله تعالى . أما إذا كان لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله ، ونشر سنة النبي ﷺ ؛ فهو ما يسمى في مصطلح الشريعة باسم " الجهاد " وهو أفضل من جميع العبادات وأكملها ، ولا تعادله عبادة في رفع الدرجات ، وتكفير السيئات كما تشير إليه الآية الكريمة ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۝٩٦ ﴾ [1] لذلك فيجب أن تؤدى هذه الفريضة بما يتفق وقانون الشريعة الغراء كي تكون وسيلة للنجاة في الآخرة ومبعث الرحمة الإلهية والنصرة

---

[1] سورة النساء ٩٥ ـ ٩٦ .

السماوية في الدنيا".

وهذه رسالة أخرى وجهها إلى علماء الهند وشيوخها وأمرائها، يوضح فيها وجهة نظره إلى الجهاد والغاية التي يهدف إليها في القتال مع أعداء الله، يقول:

" لقد وفق الله تعالى هذا العاجز سابقًا لأن يدعو الناس إلى اتباع الشريعة والأمر بالمعروف ليل نهار، كما يعرفه الكثير من زملائنا، ثم أنعم الله سبحانه وتعالى بأن يدخلني في زمرة المهاجرين الصادقين برفقة عدد من عباده المؤمنين المخلصين، وأشكر الله جل وعلا على هذه النعمة شكرًا عظيمًا، وبما أن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف لا يكتملان بدون الجهاد والقتال في ساحة الحرب، أمر الله سبحانه إمام الهداة وسيد الدعاة محمدًا ﷺ في الأخير بقتال الكفار، فظهر دين الله وشريعته على سائر الأديان والشرائع، وعلى ذلك ألهمني الله تعالى بأداء هذه العبادة والحصول على هذه السعادة، بأن عزمت على تحقيق هذه المأثرة، باذلا كل شيء من الأنفس والأرواح والأموال والأهل والوطن في سبيل هذا العمل العظيم، وكل ذلك إرضاءً لله تعالى وإرغامًا للكفار والمشركين، لا يشوبه شيء من هوى النفس ووساوس الشيطان، وأصرِّح من جديد فأقول: إن الله علام الغيوب شهيد على أن " دافع الجهاد " الذي يعيش في نفسي ويقلقني ليس إلا لوجه الله تعالى وإعلاء كلمته، دون أن يخطر على بالي شيء من الجاه والعز والسيادة والحكم، والمال

والصيت ، والفضيلة على الناس والمعاصرين أو نوع من الأماني الكاذبة والأحلام الضائعة والله على ما نقول وكيل " .

وجاء ضمن رسالة أخرى :

" لله المنة والفضل أنه هدانا إلى طاعته وألهمنا بإرضائه "

فقد أطبقنا العين والأذن عن غير الله ، وصرفنا العين عن الدنيا وما فيها ، وما حملنا راية الجهاد إلا ابتغاء وجه الله ورضاه ، وقد تخطينا حدود حب العز والجاه والمنصب والسيادة والحكم وتعدينا هذه الأماني الكاذبة ، إننا لا نريد إلا الله وحده ، ولو كنا عاجزين ضعفاء ولكننا نحب الله تعالى حبًا لا يساويه شيء ، ونستغني عن كل حب لا يتصل بالله ، إننا لا نريد حرب الولاة المسلمين ، وإنما نحارب الكفرة الألداء فقط ".

ويقول في رسالة وهو يتحدث عن غاية جهاده ونيته في ذلك :

" إن الله علام الغيوب شاهد على أنه لم يخطر ببالي أبدًا وفي أيِّ حال من الأحوال أن أمتلك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، وأحكم البلاد ، ويكون لي منصب عريض ، آمر وأنهى ، أو أهدر كرامة السلاطين والملوك الأجلة ، فأتبوأ عرش السيادة والحكومة .

إن التاج والعرش لا يعادلان حبة شعير في عيني ، ولم أفكر قط في مملكة كسرى وقيصر ، وإنما تراودني أمنية واحدة فقط ، وهي أن تعم كلمة الله وحكم الإسلام في كل بقعة من بقاع

العالم ، وذلك ما نعبر عنه بشريعة الله ، فلا يكون فيها صراع ولا خصام .

وأتمنى على الله أن يتم هذا العمل إما على يدي أو على أيّ يد أخرى ، أما أنا فسأستخدم كل وسيلة توصلني إلى هذا الغرض ".

ويتحدث عن الوضع الذي كان سائدًا في بلاد الهند في ذلك الحين ، ويبدي الألم الذي كان يعيش فيه والحزن الشديد الذي كان يستولي عليه ، فيقول في رسالة وجهها إلى بعض الأعيان .

" من مصادفات القدر أن الهند ترزح تحت نير الاستعمار المسيحي والهندوكي منذ عدة أعوام ، فقد استولى هذا الاستعمار على معظم البلاد مضطهدًا ظالمًا ، وقامت تقاليد الكفر والشرك على قدم وساق ، وأصبحت شعائر الإسلام وتعاليمه مغلوبة ، وذلك ما أثار في نفسي قلقًا وحزنًا ، وبعث فيها دافع الهجرة وأشعل في قلبي شعلة الجهاد ".

إن هذه المقتطفات التي أوردناها وسردنا ذكرها تلقي ضوءًا لامعًا على ما كان يريده السيد أحمد الشهيد وينويه من جهاده الذي أزمع عليه وحمل رايته في طول البلاد وعرضها ، ولو تأملنا قليلا لبدا لنا أن حركة الجهاد التي أسسها الإمام أحمد كانت النواة الأولى للدولة الإسلامية الصحيحة التي كانت حاجة الأمة الإسلامية في ذلك العصر ولاتزال ، ولو كتب لها النجاح

والازدهار ، لكان العالم الإسلامي اليوم من أقصاه إلى أقصاه قوة عظيمة ويدًا واحدة وكان المسلمون أسرة واحدة قوية لا تقوم في وجهها أعظم قوة ، وأضخم دولة في العالم .

أسلفنا أن الإمام السيد أحمد الشهيد كان يحث أتباعه على الاستعداد للجهاد وقتال أعداء الله قبل أن يسافر للحج ، فكان الناس يقضون جلَّ أوقاتهم في التمرينات الحربية والتدريب عليها ، ولكنه بعد ما رجع من الحج بدأ يبذل كل جهوده في الإعداد للقتال ويبعث الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ومولانا عبد الحي إلى النواحي ليبلغا الناس دعوة القتال ويبعثاهم على الهجرة والجهاد ، كما جاء في " سوانح أحمدي " سيرة أحمد الشهيد :

بُعث وفد مؤلف من الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ومولانا عبد الحي وغيرهما من العلماء إلى أنحاء البلاد ، ليتحدثا في الناس حول موضوع الجهاد وفضائل القتال ضد أعداء الله ، وكانت زاوية السيد أحمد الشهيد في ذلك الحين عامرة برجال يعكفون على تعلُّم الفنون الحربية والمران على الجلاد والطعان والرماية والطراد ، بدلا من المراقبة والرياضة والمجاهدة ، فلم يبق رجل في زاويته إلا وهو جندي يحمل السيف والبندقية والرماح ، عوضًا عن السبحة والعمامة ، فكان من قد رأى أصحاب السيد أحمد جماعة من الصوفية ويراهم الآن جنودًا يقضي من عجبه .

ولما استهلت سنة ١٢٤١ هـ ودع السيد أحمد الشهيد أهله ووطنه مهاجراً في سبيل الله بجمع حاشد من المجاهدين وسافر إلى

" تونك " بدعوة من الأمير أميرخان حاكم تلك المقاطعة ، الذي سعد بخدمة الإمام أحمد الشهيد وجماعته وجهزهم بكثير من الأسلحة والحوائج ، وهكذا أسهم في الجهاد ووفق إلى الجمع بين خيري الدنيا والآخرة .

ولكي نقدر اهتمام السيد أحمد الشهيد بالقتال في سبيل الله وحماسته المنقطعة النظير في الجهاد ، ونقدر صبر المجاهدين ، واحتمالهم الشدائد والمكاره ، وحنينهم إلى لقاء العدو والشهادة ، يجب أن ننظر إلى خريطة الهند والبنجاب وأفغانستان ، ونتصور تلك الصحاري القاحلة والجبال الوعرة والرمال الواسعة ، والممرات المخيفة ، والغابات المرعبة ، والأنهار العريضة التي اجتازها هؤلاء المجاهدون وصادفوها في سفرهم ، ومما لا شك فيه أن مواصلة السفر وحدها في هذه العقبات إنما كانت جهادًا بنفسه .

ولم تنته عراقيل المجاهدين بهذه المخاوف فقط ، بل صادفوا مشكلات ومحنًا كثيرة من فقدان الماء ، وخطر قطاع الطرق ، وقلة الطعام ، ومواجهة الشعوب واللغات المختلفة ، وأنواع من المحاذر والمخاوف والأخطار مما يكفي شيء واحد منه لتثبيط المجاهدين وزعزعة عقيدتهم وهمتهم ولكن الأخطار والمحن زادتهم رغبة إلى الجهاد ، وشوقاً إلى القتال ، وحنيناً إلى الشهادة ، وذلك إن دل على شئ فيدل على إخلاص القائد ، وصدق نيته .

مرت قافلة المجاهدين في طريقها إلى مركز القتال "بشاور[١]" بمدن كثيرة تقيم وترحل وتدعو الناس إلى الجهاد، وقد كان من تأثير هذا القائد الجليل وروحه القدسية أن أقبل عليه الناس واحتشدوا له في كل مكان نزل فيه وأقام لعدة أيام، وعرضوا أموالهم وأرواحهم على السيد أحمد الشهيد فقبلهم غزاة في سبيل الله، وجنوداً في المعركة.

وأول مدينة نزل فيها الإمام أحمد مع جماعته المجاهدين بعد خروجه من "تونك" كانت "حيدرآباد سنده[٢]" وقد وصلتها القافلة بعد سفر طويل شاق، فاستقبلها الأمراء "ولاة الحكم المسلمون" استقبالا رائعاً، واحتفوا بها بالغ الاحتفاء، وأكرموا السيد إكراماً لائقاً، فأقام فيهم أياماً، وأفاض عليهم بركات، حتى سرت فيهم موجة من الدين والتقى، ونالوا حياة جديدة من الإيمان والحنان، وبايعوه على الجهاد والقتال والتفاني في سبيل الله.

ومر السيد أحمد الشهيد بمدينة "شكاربور[٣]" وأقام فيها خارج المدينة، فزاره جمع كبير من العلماء وأصحاب الشرف

---

[١] بلدة في باكستان، أكثر سكانها المسلمون، وهي تعدُّ من أكبر موانئ الهند.

[٢] مدينة كبيرة على نهر بارا، قريبة من ممرّ خيبر، وهي محطة للقوافل بين الهند وإيران وأفغانستان، وأرضها جيدة كثيرة البساتين والرياض، وفيها كثير من المساجد والخانات وهي الآن في باكستان.

[٣] كانت بلدة كبيرة للسند، وهي أهمّ المراكز التجارية، موقعها جيد، بحيث صارت سوقًا كبيرةً وممرًا للقوافل التجارية، ولكن فيها كل نوع من الناس، وتنطق عدة لغات.

والصلاح ، وقد قامت الحكومة بتسديد نفقات القافلة مدة إقامتها في شكاربور ، ومنها توجه السيد والجماعة إلى كابل ، فمروا على مدن عديدة حتى وصلوا إلى " قندهار[١] " ومنها إلى " غزني[٢] " ثم إلى " كابل[٣] " ، وقد نال السيد في جميع المدن والقرى التي مر بها أو نزل فيها من الحفاوة والقبول ما لم يعرفه التاريخ إلا قليلا جداً ، تلقاه العلماء والأمراء والولاة ، والجمهور من الناس في كل مكان بحفاوة بالغة واعتبروه إماماً يجب أن يقتدى به ، وقائداً يستطيع أن يقود الأمة الإسلامية خير قيادة ، ويقدر على أن ينقذ المسلمين من الاضطهاد والقسوة والظلم إلى الرحمة والحب والعدالة .

ومكث السيد في كابل شهراً حتى آذن بالرحيل إلى "بشاور" وتهافت عليه الناس وبايعوه على الجهاد، ثم وصل إلى " نوشهره[٤]" حيث أقام برهة من الزمان يتفقد الأحوال ، ويستعرض وضع الحكومة والشعب ، إلى أن بعث رسالة إلى حكومة البنجاب يدعوها إلى الإسلام أو الجزية أو القتال - شأن

---

[١] بلدة من بلاد أفغانستان ، موقعها يُعَدُّ على من أحسن المواقع ، وهذه البلدة تمتدُّ أكثر من مسافة ثلاثة أميال ، ولها سور عظيم وستة أبواب .

[٢] بلدة من بلاد أفغانستان ، هي قاعدة مديرية باسمها في ولاية كابل ، وهي كانت تعد من أرقى مدن الأرض في أيّام السلطان محمود الغزنوي المتوفى سنة ٤٢٠هـ .

[٣] مدينة مشهورة على الضفة اليمنى من نهر كابل ، وهي عاصمة بلاد أفغانستان ، فتحها المسلمون أيام الدولة الأموية بدمشق ثم في دولة العباسيين ، وأسلم ملكها كابل شاه .

[٤] مديرية في باكستان ، كانت هناك ثكنه إنجليزية في العهد الأخير ، ولها أهمية استراتيجية ، ومنها الشيخ أبو يحيى إمام نوشهري صاحب " كتاب تراجم علماء أهل الحديث " .

الحاكم الإسلامي والقائد المسلم - ولكن الحكومة أبت إلا القتال وجهزت جيشاً كثيفاً في ساحة "أكوره" التي تبعد عن "نوشهره" بنحو عشرين كيلو مترا .

وجهز السيد أحمد الجيش الإسلامي ونظمه للقتال وشن الغارة على العدو في السحر ، والتحم الفريقان وكانت معركة حاسمة سقط فيها العدو ما بين قتيل وجريح ، وقد بلغ عدد القتلى سبعمائة والجرحى كذلك ، أما المسلمون فقد استشهد منهم ٣٧ رجلا وجرح ٣٥ ، وأسفرت الحرب عن انهزام العدو وهروبه من ساحة الحرب ، وتشجع الجيش الإسلامي لشن الغارات على العدو، وبويع السيد أحمد الشهيد على الإمامة والإمارة كي لا يكون اضطراب في الجيش، بل يكون مرتبطاً بنظام ، وممتثلا أمر الإمام وقائماً بتعليمات الأمير وأعلن السيد فور مبايعته بالإمامة بوجوب طاعة الأمير والعمل بتعاليم الإسلام وأحكام الشرع ، والقيام بما يعود على الناس من امتثال الأمر والامتناع عن المعارضة والتظاهر بما لا تسوغه الشريعة ، ولا يسمح به نظام الجيش ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴿٥٩﴾ ﴾[1]

وقد أعقب نظام الإمامة خيراً كثيراً ، وأنتج بركات ، إذ سبب تنفيذ النظام الشرعي بحذافيره ، وقضاء المحاكمات والخلافات بسرعة ، وخضع الناس كلهم أمام هذا النظام حتى

---

[1] سورة النساءالآية ٥٩ .

لم يبق بينهم خلاف ولا خصام .

وبعد أن خاض الجيش الإسلامي معارك عديدة ضد " السيخ " وأبلى فيها بلاء حسناً نجح في فتح بشاور ، وكسر شوكة العدو وتنازل له عن الحكم ، ودخل السيد "بشاور" فاتحاً فاستقبله البلد كله أحر استقبال ، ورحب به الناس كزعيم للأمة الإسلامية ومنقذ للمسلمين من براثن استعمار الكفر والنفاق ، ورأوا فيه إماماً كبيراً ، وقائداً عظيماً ، حمل راية الإسلام فخاض المعارك وهزم الأحزاب ، وفتح البلاد ، وبيض وجوه المسلمين .

وما إن دخل السيد البلد حتى نادى في الناس بالأمن ، وآذن في المجاهدين أن لا يأخذوا شيئاً بغير حق ، ولا يقوموا بالتعدي والسطوة على أهل البلد ، حتى إذا استتب الأمن ورجع كل شئ إلى نصابه ، وساد الجو هدوء ، والقلوب طمأنينة ، وعادت المومسات والبغايا إلى بيوتهن مختفيات ، وأفقرت حوانيت الخمر والمسكرات ، نفذ القانون الإسلامي وأقيمت حدود الشريعة ، وفرضت العقوبات على المجرمين وتاركي الصلاة ، وقامت دولة إسلامية خالصة ، كانت للإسلام فيها الكلمة النافذة ، وللسيد الحكم والإدارة .

لم يكن السيد أحمد الشهيد يرمي من هذه الجهود المخلصة كلها إلا إعلاء كلمة الدين ، وتنفيذ قانون الشريعة في أرض الله ، وتأسيس المجتمع على مبادئ الدين الصحيحة ومثله العليا ، وتلك أمنية ساورته وأصحابه مدة من الزمان وقد أعد لتحقيقها

عدة لا يمكن أكثر منها في ذلك الزمان، وأخيرًا نزل في ساحة الجهاد والكفاح العملي، فلما انتصر على رقعة من الأرض وغلب عليها وفتحها لم يسعه إلا أن يؤسس فيها حكم الله، وينفذ قانونه، ويقيم حدوده، ولا ينتظر لذلك فرصة أو مناسبة، بل يستعجل فيه ويسرع تمام الإسراع لكي لا يحول دون ذلك شئ، ولا يصيب العزائم خور، والعدو بالمرصاد، وعيون السخط تترقب الهزيمة والانهيار.

وما إن حل السيد وجماعته "بشاور" منتصرين فاتحين حتى أنفذوا فيها نظام الإسلام المالي والعدلي، وفرحوا بذلك وشكروا الله تعالى على ما وفقهم إلى تحقيق هذا الأمر، وعاش السيد وجماعته في فرح مستمر وسرور متواصل يغتبط بهذه النعمة والكرامة التي أولاها الله إياهم، ولكن أهل بشاور ــ الذين لم يألفوا الحياة تحت ظل الإسلام، وإنما تعودوا حياة "الجاهلية" والعيش على هامش الحياة ــ استثقلوا دخول السيد فاتحًا، وتأسيس دولة إسلامية خالصة تقوم على أساس الإسلام، تقام فيها الحدود، وتفرض فيها العقوبات، وتحترم فيها الشعائر الدينية، فاحتملوا ذلك برهة من الزمان، ثم ثاروا عليه أشد ثورة، وقتلوا رجال السيد وفتكوا بهم، وكم منهم من قتلوا وهم ركع سجد أثناء تأدية فريضة الصلاة.

وبلغ السيد نبأ الثورة ضده فمادت به الأرض، وبلغ به الأسف والحزن مبلغًا لا يكاد يصبر عليه، وأصاب الجماعة من

فجيعة الهزيمة وألم الغدر ما ثبط هممهم وكسر شوكتهم ، وقرر السيد الانتقال إلى مركز آخر ، يستأنف فيه سير الكفاح ويبدأ الجهاد من جديد ، عسى أن ينتصر دين الله في أرض سيطر عليها سباع الإنس وذئاب البشر .

ومن جملة ما حمل أهل بشاور على الثورة ضد السيد أحمد الشهيد وجماعته وإحداث العراقيل في طريقهم هو نفاق علماء السوء أيضًا ، وإذاعتهم للدعايات الكاذبة والأباطيل ، ونسج خيوط المؤامرات والدسائس ، وتدبيرهم خطة لحط مكانة السيد أحمد وإقصائه عن منصبه ومهامه التي أراد تحقيقها في مجال الجهاد ، وإحداث الثورة على التقاليد والنزعات السيئة والميول الفاسدة السائدة على المجتمع في ذلك العصر. فكان هؤلاء العلماء يقولون :

"هذه الجماعة (جماعة المجاهدين) لا ترى حرمة لأموال المسلمين وأرواحهم فتصيبهم بضربات قاتلة وخسائر فادحة وكان منهم من يعد المجاهدين بغاة ثائرين على الدين والشريعة ويسمي المحاربين لهم شهداء فى سبيل الله".

هذا ، وقد أذاعوا في الجمهور عن شخصية السيد أحمد أقاويل وظنونًا فقالوا : إنه فظ غليظ ، سرعان ما يغضب ويثور ، وكلما وجه إليه أحد نصيحة أو كلامًا معقولا يسخط عليه ويتربص به الدوائر ، فلما رأى السيد أن هذه الجماعة من العلماء تحول دون عمله ، وتريد أن تهدم البناء الذي بذل فى سبيل إقامته مقدارًا صالحًا من الأموال والأرواح ، وتحمل لذلك مشاقَّ

ومكاره ، أقبل على إصلاح هذه النزعة وسد هذا التيار ، ووجه رسالة إلى علماء بشاور شحنها بالدليل والاحتجاج ، وهي تلقى بعض الضوء على الأوضاع السائدة في ذلك الحين وتبين أفكاره وآراءه ، نقتطف منها ما يلي:

"بلغنا أن هؤلاء المفترين ينسبون إلينا الإلحاد والزندقة ، ويقولون : إن هذه الجماعة لا تمت إلى دين ولا عقيدة ، وإنما تتبع هواها وتبحث عن مرتع خصب لمتعة النفس وملذاتها ، سواء اتفق ذلك مع كتاب الله أم لم يتفق ، وأعوذ بالله من ذلك ، فاعلموا أن نسبتنا نحن الفقراء إلى هذا الأمر الشنيع بهتان عظيم ، فليس هذا العاجز وأسرته من الخاملين في هذه البلاد ، فإن آلافا من الناس خاصة وعامة يعرفون هذا العاجز وأسلافه ، كما يعرفون جيدًا أننا نتبع المذهب الحنفي كابرًا عن كابر ، ولا نزال نتبع هذا المذهب في جميع أعمالنا وأقوالنا دون أن نتجاوزه في قليل أو كثير ، غير أن الإنسان مفطور على النسيان والخطأ ، وإنني لا أنكر ضعفي ، ويمكن أن أرتكب أخطاء بمقتضى الفطرة ، فإذا أخطأت في شأن ثم تنبهت على موضع الخطأفسأعترف به وأرجع عن ذلك .

ومما يجب أن نعرف : أن المحققين في كل مذهب لهم طريق في العلم يخالف طريق غير المحققين ، فإن ترجيح رواية على رواية نظراً إلى قوة الدليل ، وتوجيه العبارات المنقولة عن السلف والتوفيق بين المسائل المدونة المختلفة ، إلى غير ذلك مما ثبت عن

أهل التحقيق من العلماء ، لا يجعلهم خارجين عن الدين ، وإنما هم لباب أتباع ذلك المذهب ، أما من يشك في هذا الأمر فليحدثني وجهًا لوجه ، ويقوم بحل هذه المشكلة فيفهم ويفهمني .

ويرد على ما نسب إليه من هتك حرمة المسلمين وإصابة أموالهم وأرواحهم بالنهب والقتل يقول :

"ويرمي المفترون هذا العاجز بالظلم وهتك الحرمات ، ويقولون : إننى ألعب بأعراض المسلمين وأموالهم بدون سبب شرعي ، وأستخدم في هذا السبيل سلاقة اللسان وتدبير الحيلة ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [1] فلم يضرب هذا العاجز أحدًا بسوط دون سبب شرعي ، بل ولم يضرب الكلب بدون سبب ، وكل من عاش مع العاجز أيامًا علم بهذا الأمر.

أما ما أجرى الله تعالى على يدي من لوم بعض المرتدين وتأنيب المنافقين فأعده أعظم سعادة وآية قبول أعمالي عند الله ، ومن الحقيقة أن الغيرة فى نصرة الدين الحنيف ، والشوق إلى إهانة المعاندين وذلهم من لوازم الإيمان ، ومن تجرد عن غيرة الإيمان ، وحمية الدين فلا شك أنه حرم الإيمان ، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [2] وقال تعالى:

---

[1] سورة النور: الآية ١٦.

[2] سورة المائدة الأية : ٥٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [1] وأعود فأقول : إن كان هناك تقصير وقع مني نحو الدين ولا أدريه ، فيجب أن ينبهني عليه هؤلاء الناس بالحكمة والموعظة الحسنة دون أن يغتابوا في مجالسهم ويجعلوني هدف الطعن ومركز اللوم والتأنيب عليه ، ويخذلوني وأصحابي في عمل الجهاد بل ويترفعوا على ذلك ، وقد جاء فى الحديث الشريف "الجهاد ماض إلى يوم القيامة ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل" وهذا الحديث معروف لدى علماء الحديث [2]

وأسأل علماء الوقت الحاضر أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف ـ للناس عامة ولهذا العاجز خاصة ـ والنهي عن المنكر ، ويدعونا إلى الطريق المستقيم ، وكل مشكلة أو اعتراض يخطر ببالهم أو يتلجلج في صدورهم يجب أن يشافهوني به ويقيموا عليه الدليل الشرعي ، ليتمكن هذا الفقير من إصلاحه والانتقال من عبادة النفس إلى عبادة الله وحده ، وهو مستعد للتوبة من كل ما يخالف أمر الله ورسوله في قوله وعمله، ويثوب إلى الطريق الصحيح ، ولكن الذين يثيرون الخلاف وينالونني بالاعتراض إذا لم ينبهوني على ما أفترفه منه ذنب ، ولم يحدثوني في هذا الموضوع فسوف يعود وبال ذلك عليهم وهم مسئولون عنه ، وأما قول المفسدين والكاذبين من أن هذا العاجز إذا أصابه أحد العلماء وفضلائهم بنصيحة وأمر بمعروف يواجههم بغضب

---

[1] سورة التوبة الآية :٧٣ .

[2] عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ : ثلاث من أصل الإيمان : الكفُّ عمن قال لا إله إلاّ الله ، ولانكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال ، لايبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالإيمان ، باب الغزو مع أئمة الجور ، سنن أبي داؤد ، كتاب الجهاد ٢٥٣٣ .

وعبوسة ، ويأخذهم بضرر وخسارة في الأموال والأرواح ، ويتربص بهم الدوائر ، فلا أصل لهذه الفرية ولا أساس لها أبدًا ، وقد قبض على جواسيس المنافقين وعيون الكفار ولم نأخذهم بأي غلظة أو شدة ، بل واحترسنا من أن يصيبهم أذى فخلينا لهم سبيل العافية والسلامة .

فإذا كان هذا الشأن مع الجواسيس والعيون فكيف يزعم أحد أننا نغضب أو نثور على العلماء الذين يأمروننا بالمعروف وينهوننا عن المنكر ، وهل من المعقول أن نغمض العين عن المنافقين وعيونهم ثم نصيب العلماء بالغضب والثورة والأذى ، إن هذا لمما لا يسيغه الخلق الإيماني ولا تسمح به المروءة والكرامة ".

وحاول السيد بعد ذلك أن يتخذ له مركزًا آخر ، وينتقل من البنجاب إلى كشمير التي اختارها لعدة أسباب ، وجهز لذلك العدة والعتاد ، وجمع دعاة الناس فاعترف بخدماتهم وشكر لهم ثم أخبرهم بقصده ووجه إليهم كلمات وقعت منهم كل موقع واضطربوا لها أشد الاضطراب وقالوا : إننا لا نصبر على فراقكم ، ولانستطيع أن نفارقكم في الحياة ، وعرض كل واحد منهم نفسه لخدمة الدين ودعم بنيانه .

وسمح لهم السيد بالمرافقة بعدة شروط ، وآذن بالرحيل في شهر رجب سنة ١٢٤٦ ، فكان منظرًا يبعث الحزن ويثير الشجى في النفوس ، وما إن غادر السيد البنجاب حتى فارقها الأمن على

الأرواح والأموال ، وهاجم " السيخ " أهل البنجاب وشنوا عليهم الغارة بما لم يكن لهم به عهد من قبل ، ففتكوا وقتلوا وأحرقوا البيوت والمنازل وهتكوا الحرمات والأعراض .

وصل السيد إلى " بالاكوت " مغادرًا "بشاور" بعدما صادف في الطريق اشتبا كات مع " السيخ " وكتب الله أن يدفن هذا الكنز الثمين وجوهرة تاج المسلمين وواسطة عقدهم في أرض بالاكوت .

وفيما يلي نبذة من رسالة للسيد أحمد الشهيد وقد بعث بها من بالاكوت إلى الأمير " وزير الدولة " قبل الشهادة بأحد عشر يومًا ، وهي تلقى ضوءًا على ما كان ينويه السيد بجهاده وما كان يعيش فيه من قلق واضطراب لسوء حال المسلمين ، وكم كان يود أن يراهم مبيضي الوجوه ، ذوي عز وسيادة ، وينقذهم من مخالب " الاستعمار الغاشم " الذي كان دائمًا على صدور المسلمين ، ويقول "

" وبما أن أهل " سمة [1]"كانوا أشقياء لم يرافقوا المجاهدين في جهادهم ولم يوافقوهم على مبدئهم ، بل وبلغ بهم الشقاء والسفاهة إلى أن اغتالوا بعض رجال المجاهدين الذين خرجوا من الجيش إلى القرية لقضاء بعض مآربهم وحوائجهم ، ولو أن الجيش كان مستعدًا للقتال وخدمة الدين وكان في حنين شديد

---

[1] هي المنقطة التي تقع بين بشاور ومردان ، ومعنى سمة " السهل " وكانت تقطن هذه المنطقة قبائل يوسف زيئ التي نزل عندها السيد والمجاهدون ، وكان له منها أنصار وحماة .

نحو الانتقام من المنافقين المتمردين وإذهاب ريحهم .

ولما كان الغرض من الإقامة في " سمة " أن يرافق أهلها المجاهدين ويقاتلوا مهم العدو ؛ ولكن خاب الظن فيهم ويئستُ منهم حتى غادرتهم إلى جبال " بكملي " حيث استقبلنا الناس بأخلاق جميلة ووعدونا بالإسهام في الجهاد ، ثم آوونا في وطنهم ، والآن نحن في قرية " بالاكوت " التي تقع في ممر من ممرات تلك الجبال ، وقد رزقنا الله هدوءًا وطمأنينة ، كما أن جيش العدو نازل في مكان يبعد عنا نحو أربعة فراسخ ، أما القرية التي نزلناها فهي مصونة من كل خطر ، وسوف لا يصلها العدو إن شاء الله إلا إذا أقدم المجاهدون وخرجوا يحاربونهم ، فهنالك يمكن أن يحمي وطيس الحرب . غير أن المجاهدين يريدون معهم الحرب في ظرف يومين أو ثلاثة أيام ، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يفتح علينا أبواب رحمته ونصرته ويرزقنا الانتصار والغلبة . وإذا كان التوفيق الإلهي رائدنا وانتصرنا في المعركة نرجو أن يستولي المجاهدون على أرض كشمير ونهر جهلم ، وأرجو أن لا تنسانا في صالح دعواتك للنجاح في مهام الدين وانتصار المجاهدين ، والسلام " .

وقد حشد " شير سنغ " جيشه ومدافعه من كل جانب في "بالاكوت " وأقام ثكنة على مسافة فرسخين منها ، وكان هناك طريقان يذهبان إلى "بالاكوت " كان واحد منهما طريقاً جبلياً وعراً لا يعرفه إلاّ الخاصة من خبراء البلد ، أما الطريق الثاني فكان يمر بجسر صغير إلى لاهور ، وأقام السيد على كل واحد من

الطريقين حُراساً من الجيش كي لا يتمكن العدو من الدخول في "بالاكوت".

رأى المسلمون المجاهدون معالم الانتصار بادية، وكان الفتح قريباً، وكاد ينصرف جيش العدو إلى مقره مؤدياً بالانهزام معترفاً بالغلبة والسيادة للمسلمين لولا أن وقع مالم يكن يرجى، ولم يكن يخطر على بال، وكانت مأساة أي مأساة.

جاء رجل ممن كانوا يحرسون الطريق إلى "شيرسنغ" وأفضى إليه سر الطريق بغاية من التفصيل، وجاء برجاله وعرفهم الطريق جيداً، وذلك ما نفخ في "شيرسنغ" ورجاله روحاً جديدة وعزماً جديداً على شن الحرب على المسلمين وقد أعد العدة والعتاد ليلا إلى ليل وهاجم حراس الطريق واستولى على الممر، وانتشر جيشه في خبايا الجبل وطرقه كالجراد.

ورأى المجاهدون المفاجأة المؤلمة، واطلع السيد على السر، واستعدوا للجهاد ومساجلة الحرب مع العدو، ولم يداخلهم الخوف، ولم يواجههم الرعب، وإنما تحمسوا للقتال وللشهادة في سبيل الله، ورأوا الموت عيناً فاستبشروا وفرحوا، وتبادلوا بينهم التحيات، وهنأ بعضهم بعضاً، واستعد السيد للقتال كأنه على ميعاد من ربه، وتهلل وجهه بشراً، كأنه يرى الجنة ونعيمها.

ونزل قواد الجيش ساحة القتال فنظموا الجيش، وواجهوا العدو بشجاعة نادرة وبسالة منقطعة النظير، ومن بينهم الشيخ إسماعيل الشهيد الذي قاتل قتالا مريراً، وظهرت منه بطولة

خارقة ، وحماسة بالغة وقوة كبيرة ، وأبلى في الحرب أحسن البلاء حتى تحققت أمنيته ، واستشهد هذا الإمام الجليل في سبيل الله ، ونال من خيري الدين والدنيا مالم ينله كثيرٌ ممن قبله ولا بعده ، سلام الله على روحه الطاهرة .

وحمي وطيس المعركة ، واشتد أوارها ، وكانت ساعة حاسمة ، يقاتل فيها المسلمون الكفار فيقتلون ويقتلون ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [1] وإذا بالسيد الإمام أحمد الشهيد يختفي عن الأنظار وهو يقاتل العدو ببطولة رائعة ، فقد قبله الله شهيداً ، ورزقه الشهادة الحقة ، واشتدت حماسة المسلمين ، ولم يخوروا ولم يقعدوا بل وما زالوا يقاتلون حتى آخر لحظة من العمر، وأسفرت الحرب عن شهادة عدد وجيه من المسلمين ، واستطاع "شير سنغ " أن يبسط حكمه ويقيم عرشه على أرض خضبت بدماء الشهداء الزكية وعمرت بأنفاسهم القدسية .

وأفل نجم المسلمين بسبب خطأ ارتكبه بعض المنافقين ، وتوقف تاريخ المسلمين الحديث إلى هذا الحد من البطولة والمعجزة التي كاد يصنعها أهل الإيمان ، وأصبح الحكم الشرعي في الهند حلماً من الأحلام لا يرجى تحققه إلى قرون وأجيال ، وتأخر التاريخ إلى قرون ، وتخلف ركب المسلمين إلى حيث بدأوا

---

[1] سورة التوبة الآية : ١١١ .

منه سيرهم ، وسعدت أرض بالاكوت باحتضان أكبر بطل وأعظم مجاهد عرفه التاريخ الإسلامي الحديث ، يوم ٢٤ من شهر ذي القعدة سنة١٢٤٦هـ .

وانتهت قصة الجهاد وإقامة الحكومة على أساس الكتاب والسنة ، وسجل التاريخ أندر مثال للبطولة والحماسة ، وأعظم أسوة للتفاني في سبيل الله والاستماتة لوجهة .

وتوجه البقية من أصحاب السيد الشهيد وجماعة المجاهدين إلى "استهانة " حيث أسسوا مركزاً عسكرياً وأقاموا دولة على أساس الحكم الإسلامي ، وتبنوا المبدأ الذي مات عليه سلفهم وعضوا عليه بالنواجذ وهم يحنون إلى لقائهم ، وينتظرون اليوم السعيد الذي يتمكنون فيه من زيارتهم عند ربهم ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ۖ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [1]

ولو أن السيد أحمد الشهيد لم ينجح في خطته التي وضعها وجاهد من أجلها ، ولو أنه لم يتمكن من تأسيس دولة إسلامية قوية في هذه البلاد ، واستشهد في سبيل ذلك قبل أن يتحقق حلمه ويكتمل بناؤه الذي أقامه ، إنه بالرغم من ذلك كله منح للمسلمين في العالم كله أسوة العالم الرباني الذي يجمع بين العلم والسنان ، وبين السيف والإيمان ، والذي يستطيع أن يتحدى

---

[1] سورة الأحزاب الآية : ٢٣ .

الدول القوية ، والحكومات الواسعة ، ويحاربها بقوة الإيمان والسيف وبعدة العلم والحكمة حتى يخضع له كل شئ يعوق سيره ويخشع أمامه العظماء والجبابرة من الولاة والملوك والأقيال .

مضى السيد أحمد - سلام الله على روحه الطاهرة - إلى رحمة الله وهو بعيد عن وطنه ، غريب في ديار الكفر والشرك ، وقد مرعلى شهادته أكثر من قرن وثمانين عاماً ، ولكن مثال البطولة والتفاني الرائع الذي خلده في التاريخ الإسلامي لا يزال يحرك النفوس ويشعل الهمم ، ويحث الحداة .

إن العالم الإسلامي كله ينتظر رجلا يقوم بما قام به السيد أحمد الشهيد ، إن حاجة العالم الإسلامي اليوم إلى روح أحمد الشهيد وإيمانه وبطولته أشد وأعظم من حاجته بالأمس ، إنه ينتظر حكم التاريخ ، فيمن يمثل هذا الإيمان ، ويؤدي هذه البطولة ، ويلعب هذا الدور[1] .

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ۖ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[2]

❖❖❖

---

[1] استفدنا في تأليف هذا المقال من كتاب " سيرة السيد أحمد الشهيد " بالأردية لأستاذنا الكبير العلامة السيد أبي الحسن على الحسني الندوي (رحمه الله) ، وهو المصدر الوحيد الذي اعتمدنا عليه .

[2] سورة الأحزاب : الآية ٢٣ .

الشيخ ولايت علي الصادقبوري

(المولود سنة ١٢٠٥هـ)

شاب ناهض نال من عناية والديه وحفاوة أسرته أكبر قسط ووجد من حب جده ، وإعجاب عائله أعظم نصيب ، وتمتع بكل نعمة من نعم الحياة فتربى في حجر الترف وتقلب في أعطاف النعيم ، وعاش في رفاهية العيش ولذة الحياة ، وبقي منفرداً بمعيشته ، مغتبطاً بنعمته ، يلبس من ملابس الحرير والديباج ما ثمن ، ويأكل من الطعام اللذيذ والغذاء الشهي ما طاب ، ويستعمل من الطيب ما يعطر الجو ، ويلبس من خواتيم الذهب ما يلهي الأبصار ، ويلغ من الرفاهية والنعمة حيث أشير إليه بالبنان ، وعد من متأنقي الشبان .

شاب بلغ قمة التنعم بلذات الحياة ، ووصل ذروة المجد والكرامة في النسب والطيب ، وتبوأ منصب الرئاسة في بني قومه ، فقد كان جده عمدة مقاطعة " بهار" ومن أثرياء الناس ، فيها عرفت أسرته بالشرف والكرامة حيناً وبالغنى والرفاهية حيناً آخر، مع التصلب في الدين والرسوخ في العقيدة وحب العلم والعلماء ، وبذلك استطاعت أن تجمع بين خيري الدين والدنيا ، وتعطي لكل منهما نصيباً من المادة والمعنى .

إن هذا الشاب هو ولايت علي بن الشيخ فتح علي ، ولد في

صادق بور بتنه[1] سنة١٢٠٥هـ ، وكانت أسرته تجمع بين حب الدين وسيادة الدنيا ، وشرف النسب وعزة الجاه ، ولما بلغ من عمره أربع سنوات دخل كتاب قريته ، وفرغ من العلوم الابتدائية وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، ثم جاء إلى لكهنؤ حيث أتم دراسته وقرأ الكتب االدينية على الشيخ محمد أشرف ، وفي إحدى المناسبات حضر معه إلى الإمام السيد أحمد الشهيد أيام إقامته في لكهنؤ واستمع إلى بعض مواعظه فكان لها وقع كبير في نفسه .

حتى كان ذلك سبب تحوله من حال إلى حال ، ومن حياة إلى حياة ، ولم يعد الشاب الناهض ربيب النعمة وحليف الرفاهية وفتى الأناقة والرشاقة والترف ، وإنما أصبح خادماً فقيراً من خدم أحمد الشهيد ورجلا عادياً من أتباعه والعاملين معه ، وتناسى كل قصة من قصص الحياة الرغيدة و العيش المترف .

واستأنف سيره في الحياة وبدأ الرحلة من جديد ، وعاد إلى الماضي يفكر فيه ويتندم على حياة قضاها في مالا يعني المسلم ، في لذة وترف ونعمة ورفاهية وكل ذلك مما لا يحتاج إليه المسلم ولا يبغيه في الدنيا .

وأراد أن يستدرك ما فاته من خير ، ويتلافى ما جناه على نفسه في الماضي ، وطلب إلى الإمام الشهيد أن يأذن له بالمبايعة

---

[1] اسم حيّ من أحياء مدينة عظيم آباد المعروفة الآن بـ " بتنه" تسكن هنا أسرة ربانية مجاهدة كانت في طليعة أنصار السيد الإمام ، وكان منها صفوة أصحابه وكبار الفدائيين ، وقد نهضت بأعباء هذه الدعوة والجهاد في سبيلها ، وكان لها القسط الأوفر في ذلك .

والانضمام إلى أتباعه ومريديه ، وأذن له الإمام الشهيد لما توسم فيه من الإخلاص والإيمان ، وعلم أن مصدر هذا الإقبال إنما هو القلب ، إذ لولا الأمر على هذا ، لم يكن الشاب الأنيق الذي يبدو عليه أثر النعمة والرفاهية وتتجلى عليه نضرة النعيم ، لم يكن ليقبل على دعوته ، ويستجيب لندائه بمثل هذه السرعة ، ويؤثر بؤس الحياة وشقاء الحظ على ترف العيش وسعادته .

هجر الشاب " ولايت علي " كل لذة وكل نعمة ولازم الإمام الشهيد وأصحابه وسافر معهم إلى " رائي بريلي " موطن الإمام ويقي يشتغل بالدراسة والرياضة والمجاهدات ، ويقضي جل وقته في العبادة والإنابة والذكر والنوافل ، وفي التدريب على الفنون الحربية وتوطين النفس للجهاد والقتال مع أعداء الله ، لتكون كلمة الله هي العليا .

وبدأ يدرس الحديث الشريف على الشيخ إسماعيل الشهيد ويذهب إلى الغابات البعيدة فيحتطب منها ، ويحمل الأثقال على رأسه ويطبخ الطعام بيديه ويشتغل بعمل البناء والتعمير فيحمل الطين والآجر على رأسه ، حتى أثر ذلك في وجهه وتغير لونه ونحل جسمه من كثرة ما كان يشتغل بالخدمة والعمل ، ويجتهد في العبادة والرياضة ، وله في ذلك حكاية غريبة .

يروى أن شيخ فتح علي والد الشيخ "ولايت" بعث ذات مرة خادم الأسرة - الذي كان مختصاً بخدمة الشيخ ولايت علي قبل أن يسافر إلى لكناؤ - إلى ابنه ولايت علي بمبلغ كبير وملابس

كثيرة يستعين بها في حاجته ، ولما وصل الخادم إلى رائي بريلي مقر الشيخ ولايت علي سأل الناس عنه فدلوه عليه وهو مشتغل بعمل الطين للبناء ، لابساً ملابس العمال ، وكان الجهد قد أثر عليه تأثيراً أدى إلى تغيير لونه ونحول جسمه فلم يعرفه الخادم وسأله ، أين يوجد الشيخ ولايت علي العظيم آبادي؟ فأجابه الشيخ : هو أنا..... ولكن الخادم امتعض وقال: إنني لست أعنيك ..وإنما أريد الشيخ ولايت علي بن الشيخ فتح علي وسبط السيد رفيع الدين عمدة مقاطعة بهار ، فقال له الشيخ ولايت علي أنا ولايت علي بن الشيخ فتح علي الصادقبوري ... فتعجب الخادم من كلامه ، وقال : ما كنت أدري أنك تهزأ بي ، وهنالك أذن له الشيخ ولايت علي أن يبحث عن صاحبه في الجماعة حيثما يكون ، ولما طال به الزمان وتأكد من كلام الناس أن الشيخ ولايت علي هو ذاك ، جاءه ليؤدي إليه الأمانة التي أتى بها وبكى على ما فرط في جنبه أحر البكاء ، وقال : ما كنت أعلم أن ربيب نعمة يتغير لونه بمثل هذه السرعة ، ويروقه الجهد والبلاء بدلا من النعمة والهناء ، ونهض الشيخ ولايت علي من ساعته حاملا حاجته التي بعثها والده ، إلى الإمام السيد الشهيد وألقاها على قدميه قائلا : إنني لا أستحقا فليفرقها الشيخ على من رآهم مستحقين إياها ، وعاد إلى انهماكه في عمله دون أن تؤثر عليه هذه الحادثة شيئاً .

وبفضل هذا التفاني في عمل الدعوة والإصلاح والانذياب والروحانية والإخلاص تمكن من أن يتبوأ منصبا عاليا في الدين ،

ويقوم بحمل أمانته أحسن قيام .

وقد انصبغ بصبغة الإمام السيد أحمد الشهيد فحمل جميع أهل أسرته على مبايعته واتخاذه أسوة وإماماً في أمور الدين والحياة ، وعندما توجه السيد الشهيد إلى الحج خلفه في الدعوة والإصلاح وتبليغ أمور الدين إلى الناس وتربيتهم وتعليمهم فى الوطن ، وعزم السيد على الجهاد فكان الشيخ ولايت علي أكثر الناس حماسة وأشدهم استعداد للجهاد مع العدو ، وخرج إلى ساحة الجهاد في ركبه ولكن السيد الشهيد بعثه في أمر سفارة إلى كابل فأقام فيها مدة شهر ونصف ، اتصل خلالها بالجمهور عن طريق المواعظ والمحاضرات التي كان يلقيها إليهم كل يوم ، وحرضهم فيها على الجهاد والقتال وأشعل في قلوبهم نار الاستماتة في الدين والتفاني في إعلاء كلمة الله فى أرضه ، وبعثهم على التوحيد الخالص من كل شائبة من شوائب الشرك ، وعلى اتباع سنة رسول الله ﷺ والحرص على اقتدائه .

ورجع الشيخ ولايت علي من كابل إلى بمبائى[1] وحيدرآباد[2] ، وما هي إلا عدة أيام إذ عُرف في أرجاء حيدرآباد وطارت شهرته إلى الآفاق .

وجاءه الأمير مبارز الدولة (أمير حيدرآباد دكن) فبايعه واستفاد الناس على اختلاف مذاهبهم ونظراتهم من وجود

---

[1] عروس بلاد الهند ، وعاصمة ولاية مهارشترا تُدعى بـ (ممبائي العظمى)

[2] مدينة شهيرة بالعلم والثقافة ، كانت تعرف بحيدرآباد دكن في مملكة النظام ، والآن عاصمة آندهرابراديش ، من آثارها العلمية والأثرية : دائرة المعارف العثمانية ، وجار مينار .

الشيخ ومواعظه وأحاديثه التي كان يلقيها إلى الحفلات العامة كل يوم ، حتى تاب عدد كبير من الناس يبلغ مئات الآلاف ، وبينما كان منهمكا في عمل الدعوة والإرشاد ، إذ فوجئ بنبأ شهادة السيد الإمام أحمد الشهيد ووقعة بالاكوت ، فكان النبأ فاجعاً صدمه أشد صدمة .

وعادت مسئوليات الدعوة والإصلاح ومسئولية التقدم بعمل الإمام الشهيد والسير بالمبادئ التي كان يتبناها إلى الشيخ ولايت علي فشعر أنه تحت عبء ضخم من أمر عظيم ، ولكنه توكل على الله واستعان به في العمل وتشجع لتحقيق بغية الإمام السيد أحمد الشهيد واستضاء من قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴿١٤٤﴾﴾[1] واستوحى منه عزما جديداً وحماسةً جديدةً ، فتقدم بأمر الدعوة بجهود متضاعفة ، ونفوس متضافرة ، ونال من الناس إقبالا متزايدا ، ورأى فيهم حرصاً على تعلم أمور الدين واتباع السنة .

ووصل إلى وطنه "بتنه" فبدأ بعمل التبليغ والدعوة والتنظيم لجماعة المؤمنين للجهاد في سبيل الله ، وجدد الناس عليه البيعة واعتبروه خليفة الإمام السيد الشهيد ، وأسس بيت المال ، وعين الدعاة والمبلغين في مقاطعة بهار ، وبعث شقيقه الشيخ عنايت

---

[1] سورة آل عمران الآية : ١٤٤ .

علي[1] داعيا إلى مقاطعة بنغال، وآخرين إلى أقاليم متعددة، فاستطاع دعاته أن ينبثوا في أرجاء البلاد كلها، ويقوموا بعمل الإصلاح والإرشاد ونشر دعوة الدين إلى الناس كافة، وقام بنفسه يتجول في المدن والقرى يدعو الناس إلى الدين ويعلمهم كلمة الإسلام ولا يبالي بأي أذى يصيبه في هذا السبيل، وإنما كان يعده نعمة من الله، وكان يشغل كل لمحة من لمحاته بما يكون في صالح الدعوة وخير الإسلام والمسلمين، ولم يكن يفكر في الاستراحة، وإنما كان يصل ليله بنهاره وصباحه بمسائه مستمرا في الجهاد والدعوة، مشتغلا بأداء واجبه نحو الإسلام والمسلمين.

وكان الشيخ ولايت علي يتصف بأخلاق تشبه أخلاق الصحابة رضي الله عنهم، وكان يحمل من الفضل والكمال ما يشهد باتصاله بالله سبحانه وتعالى اتصالا عميقاً، يعيش عيشة الفقراء والمساكين، وينظر إلى الدنيا نظرة ازدراء واحتقار، وكانت مجالسه تبعث في النفس زهداً عن الدنيا وانصرافا إلى الآخرة، تبدو على وجهه دلائل الخضوع أمام قدرة الله والتفكير فيها والتواضع والحزن، وكثيرا ما كان يرفع يديه إلى السماء ليلا أو نهارا، يبتهل ويدعو الله طويلا، ويلبس من الملابس ما غلظ ويأكل من الطعام ما جشب، يعيش مع الفقراء عيشة متواضعة ساذجة ويصرف جميع دخله في بيت المال، وينفق الهدايا على

---

[1] عنايت علي خان كان قاضيا، وأحد الثائرين ضد الإنجليز في ١٨٥٧هـ.

المساكين والمؤلفة قلوبهم ، ويبعث الناس على الزهد في الدنيا والانصراف عنها كما كان يبعثهم على التواضع بطرق متعددة ، كي تزول نخوة الجنس والافتخار بالحسب عن العريقين ، وينتهي الترفع في جماعة العلماء ، والاعتماد على العبادة في الزهاد ، ويزول الكبر من الأغنياء والشدة من المحدثين ، وينشأ فيهم على اختلاف طبائعهم وميولهم نزعة البحث عن الحق والخير ، التي تبعث فيهم طبيعة الحب مع الفقراء والعمال وتقدير عمل الجهلة والأميين والتألم بأعمال الفجرة والفسقة ، والاعتدال في مسائل الدين الفرعية ، يثبت كل ذلك بعمله دون القول ، وينتهز الفرص والمناسبات لإلقاء كلمة الوعظ التي كانت تصدر من القلب فتؤثر في القلب ، ويحرض الناس على الهداية والدعاء والعبادة وخاصة على صلاة التهجد ، فكان أتباعه يلتزمون الدعاء والنوافل وقيام الليل ويعملون بالدين ، وكان لتربيته تأثير عميق يجعل القلوب مضطربة إلى الشهادة في سبيل الله ، وقد وفقه الله تعالى إلى إحياء سنن كثيرة كادت تموت في تلك الديار لولا جهوده المستمرة وعمله المتواصل .

وبعد سنتين من إقامته في الوطن توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة الرسول ﷺ ، ولما فرغ من تأدية مناسك الحج وأمور الزيارة رحل إلى اليمن وتجول في عدة مدن عربية كنجد وعسير ومسقط وحضرموت ، قضى في كل منها وقتا لا بأس به

مشتغلاً بخدمة الدين وتبليغ رسالة الإسلام ، وقد نجحت جهوده في حقل الدعوة في هذه الديار أيضا واستطاع أن يصرف نفوساً كثيرة إلى التفكير في رسالة الإسلام السمحة ويوجه القلوب إلى العودة نحو حظيرة الدين المنيعة ، وأخيرا قرأ الحديث الشريف على القاضي محمد بن علي الشوكاني[1] وأخذ منه شهادة الحديث .

وعاد إلى الهند فصادف طلباً من جماعة المجاهدين المرابطين على ثغور بنجاب ، وبعث شقيقه الشيخ عنايت علي لمبارزة "غلاب سنغ" والي كشمير[2] ، وبعد مُضي مدة يسيرة توجه بنفسه إلى الثغور ودبر أمور الحرب وقاتل "غلاب سنغ" وأتباعه واستمر في الجهاد نحواً من سنتين ، ولما رأى "غلاب سنغ " أنه لا مناص من أيدي المجاهدين التجأ للإنجليز وطلب منهم العون وتحالف معهم ووثق بحمايتهم وبدأ الإنجليز يحيكون خيوط المؤامرة في الظلام ضد المجاهدين ويحملون الشعب في البلاد المفتوحة على الثورة ، وأخيرا اضطرهم إلى ثورة سببت خسارة

---

[1] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن ، من أهل صنعاء ، ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان ، باليمن)سنة ١١٧٣هـ ، ونشأ بصنعاء ، وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ هـ ، ومات حاكما بها سنة ١٢٥٠ هـ ، وكان يرى تحريم التقليد ، له ١١٤ مؤلفا ، فيها : نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، وغيره .

[2] ولاية من الهند ، ذات الغالبية المسلمة ، ولها شهرة في كثرة الفواكه والرياحين الطيبة والمتفرجات الحسنة ، أشهر مدنها سري نغر ، وهي عاصمة بلاد كشمير المشهورة .

عظيمة وفادحة للأموال والأرواح وجلبت على المجاهدين ويلات وشقاء.

ومن سوء حظ المسلمين أن حاكم بالاكوت الذي كان قد طلب الشيخ "ولايت على" لنصرة المجاهدين تغير ولحق بالإنجليز وتناسى كل منة، وأطبق عينيه عن كل نعمة نالها من المسلمين، ولم يذكر أن المكانة التي احتلها إنما كان مردُّ ذلك إلى الشيخ ولايت علي وجماعته، فغدرهم وتآمر عليهم شأن كثير من الحكام والولاة.

ولما رأى الشيخ ولايت أن الوضع ساء إلى حد كبير، وأن الأعداء لا يحتملون وجوده في تلك المنطقة ولا يسمحون له بأي نشاط يقوم به أو عمل يؤديه اضطر إلى التوجه نحو "سوات[1]" وما كاد يصل إلى منطقة الحكم الإنجليزي إلاّ وقد أحيط به وجماعته وقُبض عليه، ثم اضطره الحكام الإنجليز إلى أن يسافر إلى لاهور.

ولما وصل الشيخ ولايت علي إلى لاهور ومنها إلى بتنه حيث وطنه وأهله صادف إنذاراً من حاكم المدينة يفرض عليه وعلى شقيقه غراماً مالياً، قدره مائتا روبية على كل واحد منهما، والبقاء في الوطن لمدة سنتين دون الخروج منه إلى أي مكان آخر ما لم يصدر منهما ما يستحقان به عقوبة أخرى في نظر الحكومة الإنجليزية، ودفع الشيخ هذه الغرامة المالية أمام حاكم

---

[1] ولاية على حدود بنجاب، وهي الآن في باكستان الغربية.

المدينة في بلاطه في حشد عظيم من الجمهور كان يتمنى زيارة الشيخ والفداء عليه بمهجه وأرواحه ، ورجع إلى منزله واشتغل بالمواعظ وتعليم أمور الدين وتربية النفوس كعادته في السابق .

إن هذه العودة الإجبارية إلى الهند التي واجهها الشيخ ولايت علي أقلقت باله وجعلته لا يهدأ ولا يطمئن ، وإنما كان يتذكر الهجرة التي نواها ، والجهاد الذي أزمع عليه بأسف بالغ وحزن عميق ، وربما كان يقع في السجدة ويبتهل إلى الله ويتضرع أمامه ويبكي بكاء الحزين ويدعو الله تعالى أن يرزقه الهجرة ويقر عينه بنعمة الجهاد ، وقد ينشد البيت الذي معناه "دعوني أعش في هذه الروضة وأَقْضِ وقتا في حديقتها ، وإذا استطعتم أن تربطوا ذيلي بوردة منها فافعلوا".

وعندما بقي في انتهاء مدة العقوبة عدة أشهر قام الشيخ بتنظيف بيته وتأثيثه بأدوات الزينة والجمال ، كما عمر الاصطبل بأفراس عتيقة واشترى عددا من الحمامات ذات الألوان الجميلة ، وذلك ما أثار استغراب الناس جميعاً ، واعتقدوا أن الشيخ ولايت علي استهوته الدنيا وهيمن عليه المال والجاه ، وذهب الناس في الفالة عليه ورميه بحب الجاه والمال مذاهب شتى ، ولكنه كان ينتظر انتهاء المدة بفارغ الصبر ويترقب الفرصة التي يخرج فيها من وطنه مهاجرا إلى الله ورسوله ، ووصلت ساعة الهجرة فهاجر مع عدد من أصحابه المخلصين ، وعلم به الناس بعد هجرته فخرجوا مهاجرين ولحقوه في الطريق .

توجه الشيخ ولايت علي إلى دهلي أولا وهو في طريقه إلى وطن الهجرة ، واستغرق سفره إليها نحو سنة ونصف ولم تخل ساعة من الهداية والإرشاد فقد كان يقوم في السفر بإرشاد وتبليغ رسالة الإسلام وإصلاح الناس ، وأقام في دهلي شهرا كاملا يلقي في كل جمعة خطاباً هاماً ، تارة في جامع دهلي ، وفي جامع فتحبورى تارة أخرى ، يتناول موضوع الإصلاح والدعوة يحضره عدد كبير من الناس الذين يأتون من بعيد ، ويستفيدون من كلامه ما يبعثهم على الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام ، والنضال مع أعداء الله الذين كانوا يحكمون البلاد آنذاك ويرجعون من خطابه وقد صغرت في أعينهم الدنيا ، وحقرت زخارفها ، وتمثلت أمامهم الآخرة والجنة ونعيمها.

وذات يوم صادف دعوة من الملك "بهادر شاه ظفر[1]" وعقيلته "زينت محل" فانتهز الشيخ هذه الفرصة لتوجيه الملك وإلقاء كلمة أمامه ، عسى أن يكون فيها خير كثير ، وأخيراً وبعد إلحاح الملك على قبول الدعوة وصل الشيخ إلى القلعة الحمراء في دهلي ، فاستقبله الملك في ديوانه الخاص "بمنتهى الحفاوة وبالغ الكرم" وأجلسه في مكانه بين جماعة من الأمراء والخاصة

---

[1] كان الملك بهادر شاه شاعرا، له كلام جميل فى الشعر وديوان من أحسن الدواوين ، آخر الملوك المغول في الهند تولي منصب الخلافة عام ١٨٣٧م ، وكان مكتوف الرجل والأيدي مثل الملوك الآخرين من قبل الأجانب البيض ، لأن الإنجليز كانوا قد سيطروا على الهند ، وجعلوا يغتصبون الأملاك والثروات المعدنية ، فقدا عتقل في رنجون مع زينت محل وجوان بخت ، وحوكم عليه في يناير سنة ١٨٥٧م ، وتوفي عام ١٨٦٢م عن عمر يناهز ٧٩ .

ومندوب الحكومة السامي .

وقام الشيخ ليلقي كلمة وعظ في الديوان وقرأ الآية :

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ ﴾ [1] وفسر الآية ببيان قوي ، وصوّر الحياة الدنيا وما فيها تصويرا اضطربت له القلوب ، وأظلمت الدنيا في أعينهم وتمثلت لهم الجنة والنار وفناء الدنيا ، والموت والبعث والحساب ، وكل ما يمر به المرء من مراحل دقيقة شديدة لا محيص عنها ، وعندما وصل الشيخ في تفسير الآية إلى قوله تعالى: "وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيْدٌ" همس رئيس الوزراء في أذنه بألا يتعرض الشيخ بذكر العذاب أمام الملك ، فلربما يتألم به الملك ، ثم قال : قد جرت عادة العلماء أن لا يتعرضوا لهذه الأمور في مواعظهم التي يلقونها في البلاط أمام الملك كيلا يصيبوه بألم أو بأذى ، وإنما تتناول مواعظهم ذكر الجنة فقط".

وواصل الشيخ خطابه كأنه لم يسمع كلاما ، ولم يحفل بالملك وتألمه شيئاً ، بل وقد زاد صراحة في ذكر عذاب القبر ، وشدة يوم القيامة وعذاب جهنم ، وذكر كل ذلك بأسلوب أبكى الجميع ، حتى الملك لم يملك نفسه واستعبر أشد الاستعبار ، ولما هدأ الملك قليلا ، قال الملك : إنني قد عملت أبياتا في ذم الدنيا ، فتلا له الشيخ هذه الآية: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ

---

[1] سورة الحديد الآية : ٢٠ .

وَأَنصِتُوا ﴿٢٠٤﴾ [1] وقال : إن هذا لسوء أدب ، وسكت الملك ولم ينبس ببنت شفة ، وأصغى إلى موعظة الشيخ ، ورجع منها بعظة بالغة وتأثير عميق .

ولما انتهى الشيخ من كلامه طلب إلى الملك أن ينشد الأبيات التي قالها في ذم الدنيا ، فامتثل الملك أمر الشيخ ، ثم قال لمرافقه أن يتجول بالشيخ في القلعة ويتفرج فيها قليلا لترويح النفس ، ففعل المرافق وعاد الشيخ إلى مقره .

ولم يزل الملك يكرم الشيخ ويحتفي به مدة إقامته في دهلي ولم يزل الناس يستفيدون ويتلقون منه دروساً في الدين والعلم وتاب خلق كثير من المذنبين ، والعصاة ، وبايعه عدد لا يحصى كأن رياح الإيمان والتقوى قد هبت في دهلي ونواحيها ، وساد عليها جو من الدين والعلم ، بعد طول العهد وبُعد الانتظار .

وسأل الملك الشيخ "ولايت علي" عما إذا رضي بقضاء شهر رمضان في القلعة وحضر أهل القلعة جميعاً في صلاة التراويح لكان ذلك سعادة كبرى للملك .

ولكن الشيخ عندما أوجس خيفة من بعض الأعداء رأى من المصلحة أن يسافر من دهلي بسرعة ممكنة ، فاعتذر إلى الملك عن إجابته لدعوته وغادر دهلي إلى "لدهيانة [2]" ومنها إلى "أستهانة" وهنالك تحولت ثكنة المجاهدين فيها إلى مدرسة يدرس

---

[1] سورة الأعراف الأية : ٢٠٤ .

[2] لدهيانه : مدينة في ولاية بنجاب (الهند) .

فيها علوم الدين وزاوية يشتغل فيها بتزكية النفس وإصلاح القلب.

يقول الأمير "نواب صديق حسن خان[1] " وهو يتحدث عن موعظة الشيخ ولايت علي وتأثيرها في النفس :

"إن الواقع العميق والتأثير الكبير الذي لمسته في موعظة الشيخ ولايت علي ، لم أره قط في موعظة أخرى ، إن صحبته تترك القلب لا يجد لذة في الحياة الدنيا ولا يقبل على زخارفها أبدا ، وإنما هي حماسة الدين تنبعث في القلب ، وقد حفظت منه صدر بيت معناه: سوف تخترع أسلوبا آخر للهيام والحب".

وأقام الشيخ في "أستهانة" ثلاث سنين ، ثم أصابه داء الخناق وكتب الله له العودة إلى دار مقامه ، فلم يبرأ منه وتوفي بالغا من عمره "أربعا وستين سنة" بعدما تحققت له أمنية الهجرة ، والكفاح في سبيل الدين ، ورفع راية الإسلام خفاقة عالية في الآفاق.

إن أسرة الشيخ ولايت علي التي تعرف بأسرة صادق بور

---

[1] نواب صديق حسن خان القنوجي علامة الزمان ، ترجمان الحديث والقرآن ، محي العلوم العربية وبدرالأقطار الهندية ، السيد الشريف صديق حسن بن أولاد حسن البخاري الحسيني القنوجي ، صاحب المصنفات الشهيرة والمؤلفات الكثيرة ، ولد يوم الأحد لإحدى عشرة بقين من جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين ومأتين وألف ببلدة " بانس بريلي ،"قرأ مختصرات الصرف والنحو والبلاغة والمنطق على أخيه أحمد حسن بن أولاد حسن، وأقام شهوراً في فرخ آباد وفي كانفور، وقرأ على أساتذتهما ولقي العلماء والمشايخ ، سافر سنة تسع وستين ومأتين وألف إلى دهلي، فاعتنى به المفتي صدرالدين خان ، وكان بيته ملتقى العلماء والشعراء والفضلاء والوجهاء ، كان معتدل القامة مليح اللون ، مائلاً إلى الصباحة يغلب فيه البياض ،ممتلئ الوجنات ، واسع الجبين ، بلغ عدد المؤلفات إلى ٢٢٢، وكان غاية في صفاء الذهن وسرعة الخاطر وعذوبة التقرير.

من أتباع الإمام السيد أحمد الشهيد المخلصين ، وخلفائه الذين ورثوا عاطفة الجهاد ودافع الكفاح من الإمام الشهيد وحملوا أمانة العلم والدين ، والجهاد فأدوها أحسن الأداء ، وقامت هذه الأسرة بجميع من فيها من الأعضاء حاملة لواء الحق والخير ، أحسن بلاء لم يوجد له نظير في تاريخ من بعدهم .

وقد شهد التاريخ الإسلامي في الهند في هذه الأسرة رجالا لهم قيمتهم وأهميتهم ، وفيهم أسوة لحياة المؤمن المخلص ، وقدوة لما يحمله رجال الدين والعقيدة من الثبات على المبدأ والجهاد لاسترداد الحق المغصوب ، والكفاح لإعلاء كلمة الحق وتثبيت دعائمه في الأرض التي ملئت جوراً وفساداً .

وليس الشيخ ولايت علي وحده الذي قام بهذه الجهود المضنية والكفاح المستمر في حقل الدعوة والإصلاح ومواجهة الحقائق ومبارزة العدو ، وإنما شقيقه الشيخ "عنايت علي " ورفقته الشيخ يحيى علي[1] والشيخ أحمد الله[2] ، والشيخ

---

[1] الشيخ يحيى علي كان أمير المجاهدين في بتنه لحركة الإمام أحمد بن عرفان، وكثيراً ما يردّد أبيات خبيب بن عدي ، وصدر حكم بالإعدام له، ثم نسخ وتحوّل إلى الحبس المؤبد ، وقد أحيل إلى جزيرة أندمان في يناير سنة ١٨٦٦م ، وتوفي في ٢٠ فبراير ١٨٦٨م ، فكان مصداقا لقول الله تعالى: فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي .

[2] الشيخ الباسل أحمد الله العظيم آبادي ، كان من المجاهدين الكماة ضد الحكومة الإنجليزية ، ولد سنة ١٢٢٣هـ ، وكان اسم أبيه الشيخ إلهي بخش ، تعلّم من الشيخ ولايت علي العظيم آبادي والأساتذة الآخرين ، كان مدبّراً محنكاً ، وقد حكم له الحبس المؤبد ، توفي سنة ١٢٩٨هـ ، من أبنائه العلامة الحكيم عبد الحميد ، والشيخ أشرف على ، والشيخ عبد الحكيم .

فرحت حسين[1] ، كلهم ممن يحمل في حياته قدوة صالحة ، وتاريخاً حافلا بقصة الكفاح الإسلامي التي لا ينساها التاريخ على مضي الدهور ومرِّ الأيام ، وكأن القرآن يقول عنهم ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[2]

[1] الشيخ فرحت حسين كانت ولادته سنة ١٢٢٦هـ ، أخذ العلم من والده وأخيه الأكبر، كان حافظاً مقرئاً جيداً ، وكان فهماً حليماً ، يدرس بعد صلاة الظهر القرآن والحديث ، وكان ماهراً في فنون الحرب والسباحة ، وكان يتميز بالزهد والتقوي ، توفي في ١٦ جمادي الثانية سنة ١٢٧٤هـ ، من أبنائه الشيخ عبد الرحيم صاحب الدرّ المنثور .

[2] سورة آل عمران الآية : ١٩٥ .

الشيخ الكبير
إمداد الله المهاجر المكي

(١٢٣٣هـ - ١٣١٧هـ)

إنه رجل كبير أجمع الناس على سمو مكانته، وعلوِّ منزلته وغلاء قيمته، رجل لم يعرف التاريخ في عصره من تمكن من الجمع بين التفقه في الدين وفراسة الإيمان، وبين العلوم الظاهرة والعلوم الباطنة، بمثل ما مكنه الله سبحانه وتعالى منه، فقد تبوأ المنصب العالي في الدين وتربع على عرش القيادة في أمور الحياة في زمنه، إنه قام بتزكية القلوب وتربية النفوس وتهذيب العقول في جانب، ونهض يثور على الأوضاع الفاسدة ويقود جيش المجاهدين ضد الإنجليز في ساحة شاملي[1] في جانب آخر.

في يوم من أيام السنة١٢٣٣ه-١٨١٤م ولد هذا الرجل العظيم الشيخ إمداد الله في قرية "نانونة" من أعمال "سهارنفور" (ولاية أترابراديش) وهي قرية أمه، أما أسرة والده فكانت تقطن في قرية "تهانة بون" من أعمال "مظفر نجر"، وهو ينتمي في نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد توفيت أمه وهو ابن سبع،

---

[1] بلدة بين دهلي وسهارنفور، وقعت في ساحتها معركة دامية قادها الشيخ المهاجر المكي في سنة ١٨٥٧م، تعرف بـ "معركة شاملي".

فتولى تربيته والده الشيخ محمد أمين ، ولما بلغ السادسة عشرة من عمره توجه إلى دهلي ودرس النحو والصرف ثم قرأ علم الحديث وقد منَّ الله تعالى عليه ، ففتح عليه آفاق العلم ورزقه من فقه الدين وفهم الكتاب والسنة أكبر نصيب ، وكان مفطورا على المعرفة والتفاني في حب الله ورسوله ، حتى انكشفت عليه أسرار الكون ، وتجلت له بواطن حكمة الله وقدرته مما جعله وثيق الصلة بالله ، وعميق التفكير في خلقه ، كثير الاهتمام بأمور الإسلام والمسلمين ، شديد الإجلال بمكانة الرسول الأعظم ، عظيم الولوع بسنته .

إن العارف الكبير الشيخ إمداد الله المعروف بالمهاجر المكي لم يكن كعامة العلماء والشيوخ ، ولا ممن يشغل جانباً واحداً ويترك الآخر لغيره ، وإنما كان بطلا ينظر إلى الحياة بجميع نواحيها ، ويدرس الأوضاع دراسة واعية لكي يعد لإصلاحها العدة الكاملة ، ويبسط نفوذ الإيمان في القلوب ، ويصل بإشعاع العقيدة إلى مجتمع انحلت أجزاؤه وتفككت عراه واقتنع بالظلام وآثره على النور .

ظهر الشيخ إمداد الله على مسرح القيادة الدينية في الهند في زمن ثائر ، وفي عصر كانت البلاد ترزح فيه تحت نير الاستبداد وتختنق في مخالب الاستعمار الإنجليزي ، فكادت العقيدة الدينية تذوب في خضم المنكرات ، وكاد المسلمون ينقطعون عن تراثهم التليد ، وعن ما ضيهم المشرق الوضاء ، ذلك الماضي الذي قاموا فيه بدور البناء والتعمير في جميع نواحي الحياة ، وأنجزوا فيه من

جلائل الأعمال وعظائم المآثر مالا ينساه التاريخ الإسلامي المجيد على مر الدهور والعصور.

وأراد الله سبحانه أن يستخدم الشيخ إمداد الله لدينه، ويؤيده في جهاده بالقلوب القوية والنفوس الزكية ويرفعه إلى مكانة العز والكرامة في الدنيا والآخرة فرزقه جماعة من الرجال المخلصين والعلماء الربانيين الذين استطاع بهم أن يحدث ثورة في الوضع الشاذ المنحرف الذي كان سائداً على المجتمع الإسلامي في عصره، ويوجه الناس، الخاصة منهم والعامة إلى الماضي فيذكرهم عهدهم بالعالم ويصرفهم عن كل ما ينافي شأنهم ويعارض مكانتهم الدينية.

نشط الشيخ في إعادة الروح المفقودة إلى القلوب الخامدة وإشعال الحماس الديني في المجتمع وإيقاظ الجماعة من سبات الغفلة والركود. فساعده في ذلك كبار علماء الهند مثل الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي والشيخ محمد قاسم النانوتوي، والشيخ محمد يعقوب[1] والشيخ الشهيد الحافظ محمد ضامن[2]

---

[1] ستأتي ترجمة هولاء الأعلام في الصفحات الآتية.

[2] حافظ محمد ضامن، استشهد في المحاربة ضد الانجليز سنة ١٨٥٧م في معركة شاملي وكان أحد المنتسبين إلى الشيخ نور محمد الجهنجهانوي، ويصل نسبه إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، وكان جده الشيخ عبد الغني، ولد بعد ١٢٣٢هـ بعدة سنوات، تعلم كما يتعلم الصبيان من آبائهم كان يقضي أكثر أوقاته في العبادة حتى بلغ إلى درجة الولاية، كان دمث الخلق، نقي النقيبة، مبتعدا كل الابتعاد من الرياء والسمعة، ويعلو وجهه نور من هيبة الحق، وكان أبيض اللون، وعلى وجهه بعض العلامات للجدري، معتدل القامة، وكان الحكيم ضياء الدين أحد أتباعه وقدذكر أحوال مجلسه الشخصية وسيرته الذاتية في كتاب سماه "مونس مهجوران".

والشيخ منير أحمد النانوتوي[1] إلى غيرهم من العلماء الكبار.

ولم يصف للشيخ جو العمل على ما كان يريد، إذ كانت البلاد كلها تعاني وتمرُّ بنوع من الاضطراب والانحلال، وكان الشعب الهندي والمسلمون خاصة، يواجهون قلقاً شديداً من الحكومة الإنجليزية المحتلة، لا يسمح لهم بعيش هادئ وحياة مطمئنة، وإنما كان الظلم والإرهاب والخسف والاستعباد يعمل عمله في المجتمع بطريق مدهش وأسلوب شنيع، حتى إذا طفحت الكأس وعيل صبر الناس بدا لهم الثورة على الحكومة المحتلة، والقضاء على كل نأمة فساد تريد أن ترفع رأسها.

وجاء عام ١٨٥٧ م الذي اتفق فيه الشعب الهندي على الثورة والجهاد، وسارت فيه حركة الثورة كسير التيار الكهربائ في الأسلاك، وقامت البلاد كلها صفاً واحدا على الإنجليز، وعلى رأسها العلماء الربانيون والرجال المخلصون الذين رفعوا راية الجهاد ضد الاستعمار الغاشم وأشعلوا الشعب ثورة، وشحنوه بدافع الجهاد والقتال حتى عمت الثورة في أنحاء البلاد كلها واشتعلت نارها في كل القلوب وقامت مناوشات حربية

---

(١) الشيخ منير أحمد النانوتوي، كان من الثوّارضد الإنجليز في ١٨٥٧م، وتلمذ على الشيخ مملوك علي، والمفتي صدرالدين والشيخ عبدالغني، وتولى إدارة دارالعلوم بديوبند مدة وخاض في معركة شاملي مع الحاج إمداد الله المهاجر المكي، كان اسم أبيه الحافظ لطيف علي وهو من سكان نانوته قرية في مديرية سهارنفور، من تصانيفه: "الفوائد العربية" و"سراج الساكين" وكان على الطريقة النقشبندية.

ومعارك دامية بين الإنجليز والمسلمين ساهم فيها المسلمون والمواطنون أيضا ، وقاد العلماء معركة الجهاد في كل مكان ، فكانت ثورة عظيمة عرفت بثورة ١٨٥٧ م .

واستطاع العلماء في الهند وفي مقدمتهم الشيخ إمداد الله أن يؤسسوا مراكز الثورة والثوار في مختلف أنحاء البلاد ، ويشنوا منها الغارة على المستعمر المحتل ، أما قرية تهانة بهون فقد كانت تؤدي دورا هاما في حرب التحرير واستقلال البلاد إذ كانت موطن الشيخ إمداد الله ومقره الذي أصبح بحكم الظروف مركز القيادة والإدارة للبلاد كلها ، جلس الشيخ في هذه القرية الصغيرة في زاوية متواضعة ، وأعلن الجهاد على الإنجليز والقضاء على حكمه في الهند ، وأصدر تعليمات هامة عن هذا الجهاد وكونه واجب الساعة على المسلمين والعلماء خاصة .

ونال الشيخ تأييداً ضخماً من العلماء وفعلا صحبوه في تقديم أمر الجهاد وقدموا إليه مساعدات غالية من الأنفس والأموال فأقام معه الشيخ محمد ضامن شهيد معركة " شاملي " والشيخ محمد التهانوي[1] ، أما الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي

---

[1] الشيخ الفاضل الكبير : محمد بن أحمد الله العمري التهانوي أحد العلماء المشهورين ، ولد ونشأ بقرية " تهانه "من أعمال " مظفرنجر "، وقرأ على مولانا عبد الرحيم التهانوي والشيخ قلندر الجلال آبادي ، ثم سار إلى دهلي ، وأخذ العلوم المتعارفة عن الشيخ مملوك علي النانوتوي ، قرأ المنطق والحكمة على العلاّمة فضل حق الخيرآبادي ، ثم لازم الشيخ إسحاق بن أفضل العمري الدهلوي ، وأخذ عنه الحديث ، وكان مفرط الذكاء ، سريع الإدراك ، قوي الحفظ ، حلو الكلام ، بايع السيد أحمد في صغر سنه ، ولَمَّا بلغ سنَّ الرشد أخذ الطريقة عن الشيخ نور محمد الجهنجهانوي ، مات سنة ست وتسعين ومأتين وألف .

والشيخ محمد قاسم الناتوتوى فكانا يختلفان إليه ويزورانه حينا لآخر، يتحدثان معه في أمر الجهاد وإعداد العدة له، وتحريض المسلمين عليه.

وبذل الإنجليز جهدهم في إخفاق الثورة، ووقف هذه الحركة واشتروا تأييد بعض المواطنين من المسلمين والهندوس بثمن قليل أو كثير كما هو دأب الإنجليز في كل مكان، فبدأ يلقي القبض على الرجال البارزين ويأسر الزعماء والمصلحين ويزجهم في السجون، كما ألقى القبض على آخر ملوك المغول بهادر شاه وأودعه هو وزوجته في معتقل رانجون فكان قضاء على حكم المغول في الهند.

ونجح الشيخ إمداد الله ورفقته من العلماء من تعميم حركة الجهاد وحرب التحرير وتأسيس دولة يلجأون إليها في قضاياهم وأمورهم، مقاطعين حكم الإنجليز وقضاءه، واتفقوا على قيادة الثورة والقتال ضد الإنجليز.

واجتمع جيش المسلمين في "تهانه بهون" وبدأ ينتظر إذن الجهاد والسير لساحة القتال واختير الشيخ إمداد الله قائد الجيش وأمير الجهاد.

وبينما المجاهدون في انتظار أمر القائد للإغارة على مراكز العدو إذ فوجئوا بنبأ أن الإنجليز ينقلون مدافعهم من تهانه بهون إلى شاملي التي كانت ثكنة الإنجليز ومركزه الحربي في تلك الأيام.

وتوجه الشيخ رشيد أحمد بكتيبة من الجيش إلى مكان حريز ليرصد الإنجليز إذا مروا بذلك المكان ويغير عليهم، وعندما مر العدو ومعه مدافعه أغارت عليه كتيبة الشيخ رشيد أحمد وهرب العدو تاركاً مدافعه وأسلحته وأخذها المسلمون كغنيمة.

وشن المجاهدون من العلماء حرباً شديدة على مراكز الإنجليز في شاملي وقاتلوا قتالا مريراً، وثبتوا في حملاتهم بقلوب مؤمنة ونفوس قوية، وإذا بالعدو يهاجم المجاهدين هجوماً شديداً ويمطر عليهم الرصاص ويطلق عليهم النار إطلاقاً مستمراً حتى أصيب الشيخ ضامن علي برصاص نفذ في بطنه وسقط شهيداً، وهنالك تشجع جيش العدو وبدأ يحمل على المسلمين حملات مستمرة ولقي المسلمون هزيمة بعدما أصابوا العدو بخسائر كبيرة من الأموال والأرواح.

وأخفقت ثورة ١٨٥٧م، وكانت مأساة التاريخ الإسلامي في الهند وطفق الإنجليز يبسط نفوذه في أنحاء الهند كلها، ويصيب المسلمين بأنواع من الأذى، وصنوف من التنكيل والتشريد، وصدر الأمر بإلقاء القبض على الشيخ إمداد الله ورفقته، فالتجأ إلى بعض أصدقائه وسافر إلى كراجي مهاجراً إلى مكة المكرمة حيث آثر الإقامة واستوطنها.

ولم تنقص عنايته بأمور المسلمين في الهند واهتمامه بقضاياهم، فكان دائم الاطلاع على أحوالهم، يبعث لهم

اقتراحاته ويبحث لهم عن الطرق التي تؤديهم إلى الغاية ، والأساليب التي تضمن لهم النجاح في حركة الاستقلال والتحرير .

ورأى الشيخ إمداد الله أن المسلمين بعد إخفاق الثورة في أشد حاجة إلى معقل ليلجأوا إليه ويستمدوا منه ما يفيدهم في دينهم ودنياهم فاقترح على رفقته وأصحابه في الهند تأسيس معهد ديني كبير يقوم بتربية المسلمين وتزويدهم بأكبر قسط من الوازع الديني مع الوعي السياسي الذي إذا تجرد منه المسلمون يخفقون في معركتهم مع الإنجليز واستعادة حقوقهم منه .

فأسسوا معهد ديوبند الكبير الذي لم يكن مدرسة تدرس فيها العلوم الدينية فحسب ، وإنما كان قبل كل شئ معقلا منيعاً للمسلمين لتربية النشء الجديد على حب الدين ومعاني العزة والفتوة وتثقيفهم بالثقافة الدينية مع الاطلاع على السياسة الموجودة التي لا غنى عنها للعلماء وخاصة في ذلك العصر .

يقول الأستاذ الكبير العلامة السيد أبو الحسن علي الندوي في كتابه: " الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية" وهو يتحدث عن القيادة الدينية في الهند .

"وكان لا ينظر إلى المؤسسة التي ساهم في تأسيسها وقادها في حياته كمعهد يقوم بتدريس العلوم والمواد الدراسية وتخريج الفقهاء والمعلمين فحسب ، بل كان ينظر إليه كمركز وثكنة تخرج المكافحين والدعاة الذين يفتحون جبهة جديدة للكفاح بعدما لقي المسلمون

الهزيمة المنكرة من الإنجليز المحتلين وانقرضت الدولة الإسلامية من الهند [١] ".

ومما لاشك فيه أن هذا المعهد قد أدى دوراً مهما في هذا المجال وحقق الهدف المنشود إلى حد كبير، وقد أسهم بناؤه في السياسة الوطنية وفي حرب التحرير إسهاماً لا يستهان به، وكان لهم أعظم نصيب في إنقاذ البلاد وتحريرها من يد الاستعمار الإنجليزي وتثبيت دعائم الحكومة القومية فيها.

إن لجهود الشيخ إمداد الله المكي آثاراً باهرة من العلم والدين وخدمة الإسلام والمسلمين في هذه البلاد، إنه استطاع بجهوده المخلصة وجهاده الرائع وفضل ورعه أن يؤسس للمسلمين حياة الإيمان والتقوى.

ويبعث فيهم روح الجهاد والعمل، ويمهد لهم السبيل للوصول إلى ما فيه رضا الله ورسوله، ويفتح لهم كوة النور بعد ليل مظلم طويل ويربيهم على معنى أن الحياة إنما هي كفاح مستمر وجهاد متواصل.

أما مكانته الروحية التي احتلها فقد كانت رفيعة إلى أن لم يلحق غباره أحد في عصره، وإنما رفعه الله في ذلك على معاصريه من العلماء والشيوخ ورزقه من الفضل والتوفيق ما تمكن به من قلب الأوضاع الفاسدة والثورة عليها وصون المجتمع

---

[١] انظر للتفصيل " الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية " ص ـ ٦٣، ط، ب ١٤١٩ـ ١٩٩٨، من المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند.

الإسلامي من غزو المسيحية وضروب الإلحاد التي برزت منذ احتلال الإنجليز في هذه البلاد وانتشرت باستيلائه على زمام الحكم فيها.

وتمتع الشيخ إمداد الله بقبول عام في أوساط العلماء والشيوخ بفضل معرفته وغزارة علمه، فقد تبوأ منصب القيادة الدينية والتوجيه الإسلامي في حين كانت الأمة الإسلامية ترزح تحت نير الاستبداد والاستعمار، وكان الجو مكفهراً إلى حد أنها لم تكن تستطيع أن ترفع رأسها إلى فضيلة أو تطمح إلى قيادة وإنما كانت تعاني أنواعاً من الظلم والاضطهاد وألواناً من التشريد على يد الحكومة الإنجليزية.

وأراد الإنجليز سد هذا الباب، باب الإصلاح والإرشاد الذي فتحه الله على الشيخ إمداد الله، واكتاد له بكل الوسائل من الإرهاب والتهديد، لأنه رأى فيه خطراً على حكومته وعدواً لسلطته وخصما لسيطرته فبذل جهوداً كبيرة في إطفاء هذا النور وإسكات هذا الصوت، ولكن الله أبى كل الإباء إلا أن يستمر الشيخ في نشر دعوته وبسط نفوذه، بالرغم من جميع المحاولات التي يقوم بها الإنجليز.

وأخيراً اضطرته الأوضاع والظروف التي أحاطت به إلى أن يهاجر من الهند، ويتخذ حرم الله وجواره ملجأ لدعوته ومجالا لجهاده وكنفاً لنفسه، ذلك لما كان يتصل بعتبة الرسول العربي ﷺ، اتصالا وثيقاً ويتمسك بسنته وتعاليمه تمسكاً كبيراً، وقد

أشرب في قلبه حب الله ورسوله ، فرزقه الله من فهم الدين الصحيح قسطاً كبيراً ومنحه الله من قوة الإيمان ولوعة الحنان ما تذوب أمامه العقبات وتتلاشى إزاءه المشكلات والملابسات وترتعد له الجبال الراسيات ، الإيمان الذي تدخل بشاشته القلوب فتصنع المعجزات وتأتي بالعجائب .

ومنهجه في الإصلاح والتربية لم يختلف كثيرا عن سلفه من العلماء والعارفين غير أن الظروف التي واجهت المسلمين في زمنه جعلته يراعيها كل الرعاية في التربية والإصلاح لتثمر جهوده أينع الثمار وتؤتي أكلها كل حين ، إنه درس الوضع السائد على المجتمع الإسلامي ورأى من خلاله بمنظار الإخلاص والإيمان ، فوجد أن المجتمع في حاجة ملحة إلى فهم عقائد الدين ودراسة تعاليم الكتاب والسنة ، وذلك لأن الإنجليز أمة مثقفة لا تقيم لأي أمة غيرها وزناً ، ولا ترى لها حقاً في مجال الحكم والسياسة .

فإذا ما استبقى المسلمون على حالهم من الجهل والأمية لا يكادون ينجحون في إقامة المجتمع الإسلامي على أساس الدين والتخلص من عار العبودية وذل الأسر للمستعمر الغاصب .

وبذل جهده في توجيه المسلمين إلى زيادة ثقافتهم الدينية وإعادة الروح الإسلامية إلى جسم المجتمع عن طريق التعليم والثقافة ، وأراد أن يعم هذا الاتجاه ليعم فهم الدين الصحيح ويتخلص المسلمون عن مركب النقص ، فيخرجوا عن كل ما

يواجههم من الضعف في العقيدة والوهن في الإيمان ، ونشأ جيل من العلماء الربانيين والعارفين المخلصين على يده فنهجوا في الإصلاح والتربية منهجه ، واتخذوا أفكاره وآراءه في التوجيه والإرشاد ونشروا دعوته وبثوا تفكيره في الأوساط العلمية والدينية .

وكانت مدرسة ديوبند النواة الأولى لجهاد هؤلاء المخلصين وتحقيقا لحلم من أحلام الشيخ إمداد الله التي راودته منذ نعومة أظفاره .

وعلى أثر ما تأسس معهد ديوبند الكبير زار الشيخ أحد أتباعه من العلماء في مكة المكرمة بمناسبة موسم الحج ، فقال له :

"لقد أسسنا في ديوبند مدرسة ، نسألك لها الدعاء ، فرد عليه الشيخ قائلا: سبحان الله ، تقول : أسسنا مدرسة في ديوبند وما يدرك كم من قلوب تضرعت أمام الله تسأله بقاء هذا الدين في بلاد الهند ، وما هذه المدرسة إلا ثمرة هذه الأدعية والضراعة".

إن هذا الرد إنما يشير بكل وضوح إلى أن الشيخ إمداد الله كان يتمنى من أعماق قلبه أن تكون للمسلمين مؤسسة دينية تقوم بتوجيه المعارف الدينية إلى المسلمين ، وتدعوهم إلى الاشتغال بدراسة الإسلام وتعاليمه ، وذلك لأنه ما كان يرى للإصلاح والتربية طريقا أكثر تأثيراً وأعمق نفوذا غير هذا الطريق بحكم الأوضاع التي كانت تسود على البلاد ، والظروف التي عاش فيها المسلمون حينئذ .

أقام الشيخ من أجوائه دروساً للحكمة والإيمان ، وقد أفاد خلقاً كثيراً واهتدى به عدد كبير واختاره الله سبحانه وتعالى لخدمة دينه وتربية أمته في أرض الحجاز ورحاب بيت الله الحرام ، وتلك سعادة لا تعدلها سعادة .

إن الشمعة التي أضاءها الشيخ في الهند لا تزال تنير للسالكين طريقهم وتضيء للطالبين غايتهم ، وهي لا تزال تقاوم العواصف الهوجاء وتبارز الأعاصير الظلماء على مر الأيام والعصور .

كما أن مأثرته التي قام بها وحده في أرض الحجاز لا تنسى ، فكم من قلوب فتحها للإيمان ، وكم من عقول صقلها بالعلم والعرفان ، وأثار في المجتمع الإسلامي العربي الغيرة على الدين ودوافع التضحية والفداء في المسلمين ، ولفت أنظارهم إلى فهم الدين الصحيح والعمل به .

وذلك لكي ينالوا ما وعدهم الله ورسوله .

توفي الشيخ إمداد الله في شهر جمادى الثانية سنة١٣١٧ بعد ما عاش أربعا وثمانين سنة يخدم الإسلام والمسلمين بنفحاته القدسية ونفثاته المكية ، وقضى أربعين سنة منها بجوار الحرم في مكة المكرمة وزاد إلى صفحات التاريخ الاسلامي صفحة مشرقة بيضاء .

هذا وقد نالت حركة ندوة العلماء تأييد الشيخ إمداد الله وإعجابه بالفكرة التي تبنتها ، وكان بينه وبين أعضاء الندوة

اتصال وثيق جعلهم يعتبرونه مشرفا خاصا على هذه الحركة العلمية الكبيرة ، والمعقل الاسلامي العظيم القائم على أساس القصد والاعتدال ، والجمع المتزن بين الإيمان الراسخ والعلم الواسع ، وبين نعومة الحرير في الفروع ، وصلابة الحديد في الأصول والعقيدة ، وبين المعاصرة والأصالة .

وقد اطلع الشيخ المهاجر المكي على بعض التقارير وإجراءات ندوة العلماء في مكة المكرمة فزينها بتوقيعه الخاص ، وأشاد بأهدافها البناءة ، وقال : إن قيام هذه الحركة العلمية والدعوية تأييد غيبي من الله تعالى .

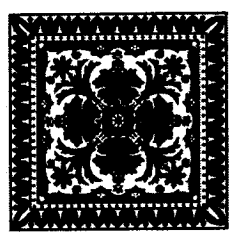

الشيخ محمد قاسم النانوتوي

(١٢٤٨هـ ـ ١٢٩٧هـ)

إذا تساءلنا عن ذلك الرجل الذي نهض في القرن المنصرم ببناء تاريخ المسلمين الديني والثقافي في الهند ؟ وأدرك خطر الردة والإلحاد الذي أحاط بهم من كل جانب ، ورأى أن الجيل الإسلامي يكاد يقع فريسة الخطر فشمر له عن ساق الجد ؟

وإذا تساءلنا عن ذلك البطل العظيم الذي صمد في وجه هذا الطوفان ، وقام سدا منيعا أمام هذا السيل الجارف ، حتى دحض الباطل وانتصر للحق وصان المجتمع الإسلامي من كل خطر محدق به في القرن التاسع عشر الميلادي ؟

وإذا تساءلنا عن الشخص الذي فتح الله عليه بابا من العلم واليقين وشرح صدره لخدمة العلم والدين في هذه البلاد عندما كان الإنجليز قد احتلها وأراد أن يحولها من بلاد المسلمين إلى مركز المسيحية والمبشرين .

إذا تساءلنا عن هذا وذاك ، لكان الجواب بلا تلعثم : إنه هو الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، ذلك العالم الجليل الذى يعد في طليعة رجال التاريخ وبناة المجد ودعاة الحق في القرن الماضي ، وقد أكرمه الله بأنواع من الكفاءات ، والمواهب التي ساعدته كثيراً في أداء دور البطل المغامر في معركة الحق والباطل ، فبرز

على مسرح التاريخ الإسلامي في الهند كعالم كبير له يد طولى في الدعوة والجهاد ونظرة أوسع في دقائق العلوم ، ومعارف الكتاب والسنة ، وحكمة بالغة في الجمع بين خيري الدين والدنيا .

وقد جمع الله له مواقف محمودة في الحياة ، فوقف يخدم الدين ليذكر المسلمين بما نسوه من رسالتهم ودعوتهم ، وقام يتدخل في السياسة ليرفع رأس الدين عاليًا ، وتكون كلمة الله هي العليا ، ويتنحى الإنجليز المحتل من سياسة البلاد فيعود الحق إلى صاحبه ، ويتمكن الشعب المسلم من بناء وطنه ، حسب ما يقتضيه دينه ، ويدعو إليه الحال .

توسع الشيخ محمد قاسم في أداء رسالته ما شاء الله أن يتوسع ، وأراد ان يجمع المسلمين في معقل منيع ليتسنى له شن الغارة على كل جبهة معادية للإسلام وتجميع قوة الإسلام المتفرقة في هذه البلاد ، في مركز واحد ، فبذل جهوده المخلصة في تحقيق هذا الحلم ، وكان الطريق ممهدًا والعقبات مذللة من قبل ، بفضل ما قام به الشيخ إمداد الله المهاجر المكي من جهود وجهاد في إعادة الروح الإسلامية وإيقاظ الوعي الديني في البلاد ، وكان العلماء ينادون بذلك من كل جانب عمليًا ، ويسهمون في بناء المستقبل اللامع الذي يزدهر فيه التاريخ الإسلامي ، وينال المسلمون من القوة والعزة ما يقاومون به كل تيار معارض ، ويستأنفون معه سيرهم الحثيث نحو المجد والكرامة .

ولد الشيخ محمد قاسم في قرية نانوته بمديرية سهارنفور سنة ١٢٤٨ ، ويتصل نسبه بسيدنا أبي بكر الصديق[١] رضي الله عنه ، وقد رزقه الله من الذكاء والفطنة ما يبهر الألباب ، فقد كان له شأن في الطفولة قلما يكون في الأطفال ، ويحكي لنا التاريخ أنه رأى في صغره رؤيا تبشره بالعلم والمعرفة وقيادة العلم والعلماء .

قرأ القرآن والعلوم الابتدائية على بعض الأساتذة في ديوبند وسهارنفور ، ثم سافر إلى دهلي حيث أتم دراسة العلوم الدينية وقرأ الحديث على الشيخ المحدث عبد الغني[٢] ، واشتغل

---

[١] أبوبكر الصديق ، عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب ، ولد بمكة بعد عام الفيل بعامين وأشهر ، و وصْفه بالصديق عقب حادثة الإسراء والمعراج عندما صدّق رسول الله ﷺ حين كذبه المشركون ، وكان أبيض البشرة ، نحيف الجسم ، معروق الوجه ، قليل الشعر في صفحتي خديه ، غائر العينين ، بارز الجبهة ، جعد الشعر، اشتهر في الجاهلية بحميد الأخلاق وحسن المعاشرة ، واشتهر في الإسلام بسابقته إلى الدين وجهوده الكبيرة في الدعوة إليه حيث أسلم على يده من كبار الصحابة ، صحب النبي ﷺ وشهد المشاهد كلها ، وكان يتاجر بالثياب ، وصار خليفة رسول الله بعد وفاته ، وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، توفي في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة ، وعمره ٦٣ عاماً .

[٢] الشيخ الإمام العالم المحدث عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي أحد العلماء الربانيين ، كان من ذرية الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي إمام الطريقة المجددية ، ولد في شهر شعبان سنة ١٢٣٥هـ بدهلي ، وحفظ القرآن ، وقرأ النحو والعربية على مولانا حبيب الله الدهلوي ، ثم أقبل على الفقة والحديث إقبالا كليا ، وسمع الحديث عن الشيخ إسحاق بن أفضل الدهلوي ، وقرأ على والده " المؤطا " وقرأ "مشكاة المصابيح " على مخصوص الله بن رفيع الدين الدهلوي ، وأخذ الطريقة عن أبيه وسافر معه إلى الحرمين الشريفين سنة ١٢٤٩هـ ، فحج وزار واشتغل بالحديث ، وأخذ عنه خلق كثير ، وقد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والحلم والإخلاص والابتهال إلى الله ، له ذيل على سنن ابن ماجة ، سماه " إنجاح الحاجة " توفي يوم الثلاثاء ٦ محرم سنة ١٢٩٦ بالمدينة .

ببعض الوظائف منذ خروجه من جو المدرسة طلباً للمعاش ، ولكن نفسه الطموح لم ترض بذلك وتاقت إلى مكانة أرفع وعمل يلائم شأنه ، فاشتغل بالتدريس والتعليم حيناً من الزمان غير أنه لم ينل بغيته في ذلك أيضاً بحكم منصبه الكبير الذي كان قد قيضه الله له .

واتصل بالشيخ الكبير إمداد الله المهاجر المكي أيام دراسته فرأى فيه رجلا كبيراً يحتل التوجيه والقيادة الدينية فاتخذه مرشدًا في أمور الدين ، واعتبره شيخاً في التوجيه وتزكية القلب ، وبايعه على نصرة دين الله ، وخدمة الإسلام ، واشتغل بالرياضة والمجاهدة وبذل فيهما جهودًا مضنية إلى أن أغفل نفسه ونسي كل شيء ولم يعد له أرب في الحياة سوى العبادة والذكر والمراقبة .

وهكذا استطاع في مدة قريبة أن يتبوأ منصب الإرشاد الديني ويحتل مركز التوجيه ويحارب النزعات الفاسدة التي كانت تسود العقل والأذهان بقوة إيمانه وعلمه الغزير وقام يكافح ويجاهد ، ونهض يعلن بصراحة سخطه على الأوضاع السائدة في المجتمع الإسلامي آنذاك ، قد رأى أن الإنجليز يريدون صيد الشعب المسلم في الماء العكر بقوة السيف والحديد ، قد بث دعاته ومبشريه في المسلمين ليصرفوهم عن دينهم ويزينوا لهم المسيحية بمكائدهم ودهائهم ، وقد تفطن العلماء في عصره وعلى رأسهم الشيخ إمداد الله هذه النوايا الخبيثة التي كان يضمرها الإنجليز في نفسه فاستعدوا لمقاومته ، وإحباط هذه المؤامرة التي دبرها ضد الإسلام والمسلمين في هذه البلاد .

ولما رأى الإنجليز أن العلماء يقودون الشعب المسلم لمقاومة التبشير المسيحي ويريدون عرقلة سيره قاموا بجهود مضاعفة لإنجاز مهمتهم ومحو قدسية الإسلام وعظمته من القلوب، وزعزعة عقائد الشعب المسلم، و إعشاء بصره ببريق الحضارة الغربية المادية، إذ كان الإنجليز قد أيقن أنه لا يستتب له أمر الحكم والقيادة في هذه البلاد ما دام المسلمون راسخي العقيدة، أقوياء الإيمان، متمسكين بشعائر دينهم، فتقدم بسير حثيث نحو هدم صرح الإسلام، وقطع علاقة المسلمين عن تراثهم المجيد ودورهم الذي مثلوه على مسرح القيادة العالمية.

وقام الاستعمار الإنجليزي بجميع ما أوتي من دهاء وقوة لنشر رسالته وكاد يقضي على العاطفة الدينية والوعي الإسلامي ويحرم المسلمين منبع قوتهم ومصدر نهضتهم لولا أن جهود العلماء وجهادهم حال دون ذلك، وأبطل عزيمته.

عَصَر الاستعمار الإنجليزي كل قوته في نشر التعليم الغربي في المسلمين وردهم من الإسلام إلى المسيحية واستجلب عددًا ضخمًا من المبشرين المحترفين الذين انبثوا في المدن والقرى، وبدأوا يغرون المسلمين بأنواع من الإغراء والإغواء، وكان ذلك أقوى سياسة قام بها الإنجليز لتنصير الشعب المسلم، ولكن رد العلماء المخلصون هذه السياسة الماكرة بكل قوتهم وعلى رأسهم الشيخ النانوتوي الذي كان يؤم كل قرية أو مدينة يخيم فيها المبشرون لتبليغ دعوتهم، فيناظر أمام جمع من الناس، ويهزمهم بدلائل قوية، وحجج لا يسعهم إنكارها.

واستمر في كسر شوكة المبشرين ، وقطع أملهم عن نجاح المهمة التي جاءوا بها حتى يئسوا عن التبشير ، ورأوا أن تربة هذه البلاد لا تصلح للبذرة التي بذروها ، وسوف لا تؤتي لهم أكلا ، وقد اعترفوا بفضل الشيخ النانوتوي وغزارة علمه وتعمق نظرته وتوسع معلوماته وقالوا بصراحة :

لقد اتصلنا بكثير من علماء الإسلام وسمعنا كلامهم وتحدثنا معهم غير أن الذي رأينا في الشيخ قاسم النانوتوي وجربنا فيه إنما هو شيء لم نعرفه في غيره من العلماء .

ولم يكتف الشيخ محمد قاسم برد شبهات المبشرين التي أثاروها حول الإسلام وقصدوا بها اقتناص المسلمين ولم يقتصر بدحض أباطيلهم فحسب ، وإنما قام بمناظرات مع الطائفة الآرية التي لم تقم أمام الشيخ وهربت منه دائماً مخافة أن تفضح في دعايتها الكاذبة وتفقد أنصارها وأعوانها ، بدلا من أن يقع فريستها المسلمون ، وللشيخ في هذه الناحية مواقف غرّاء كثيرة معروفة في التاريخ ، وله فيها حكايات عجيبة تقع من النفوس كل موقع ، وبخاصة نالت مناظرته مع البانديت ديانند[1] في مدينة

---

[1] ديانند سوامي سرسوتي قد حضر " رركي" ٢٩/ يوليوعام ١٨٧٨م وجعل يلهب الجوّ بتساؤلاته الفجة فأجابها الشيخ إجابة مقنعةً حتى اضطر إلى الإفحام ، كان السوامي مفكراً هندوسياً وصاحب كتاب سيتارته بركاش ، و"رغ ويد" يهاشية بهومكا ، ومؤسس حركة متحمسة باسم " آريه سماج " .

"رركي" [1] شهرةً عظيمة فقد كانت مناظرة حاسمة أسفرت عن هزيمة الباندیت وفضيحته في إثبات دعواه.

وقاد العلماء حركة التحرير والثورة على الحاكم الإنجليزي إذ رأوها الطريق الوحيد للتخلص من ربقة الاستعمار الغاشم، وعمت هذه الحركة في جميع أرجاء الهند، وانضوى تحت لوائها المسلمون كلهم.

واستهل عام١٨٥٧م بتذمر عامّ على الحكم الإنجليزي فنهض المسلمون وفي مقدمتهم العلماء بثورة عارمة على الاستعمار وحرب شاملة ضده، وكان الشيخ محمد قاسم النانوتوي قائد قوات المسلمين في ساحة"تهانه بهون" و" شاملي" حيث وقعت معركة حاسمة بين المسلمين والإنجليز وقد أبلى الشيخ في هذه المعركة بلاء حسناً، سجله التاريخ بحروف ذهبية.

وأخفقت ثورة ١٨٥٧م لأسباب مؤسفة ترجع إلى بعض المنافقين واستطاع الإنجليز أن ينتقم من المسلمين بطرق شتى فركز جهوده في تنصير المسلمين وردهم عن الإسلام من طريق التعليم المادي ونشر الحضارة الغربية والمدنية الأوربية، وغزا بهذه الأدواء عقر دارهم، مصمماً على تحويل الأمة الإسلامية في هذه البلاد إلى أمة هندية الصورة غربية الطبعة والتفكير، واستخدم جميع وسائل الإغراء والتضليل في ذلك بالزيادة إلى

---

[1] مدينة في مديرية سهارنفور.

تشتيت شمل المسلمين وتوزيعهم في فرق متعددة وأحزاب مختلفة متعادية .

ولم يعد للمسلمين طريق سوى أن ينضموا إلى معسكر الإنجليز أو يشقوا لهم طريقا ينقذهم من أساليبهم الماكرة ويضمن لهم الثبات على دينهم ، والبقاء على الملة الحنيفية البيضاء ، فبدأ العلماء وعلى رأسهم الشيخ النانوتوي بحركة عامة لنشر التعليم الديني والثقافة الإسلامية في المسلمين ورأى أنه هو أقوى سلاح في وجه الاستعمار الإنجليزي .

وتبنى الشيخ محمد قاسم النانوتوي فكرة تأسيس مدرسة كبيرة في ديوبند لتكون معقل المسلمين الديني ، ومركز توجيه الشعب المسلم ، فبدأ بمدرسة في أحد جوامع ديوبند كانت نواة جامعة ديوبند الكبرى ، التي تأسست على مبدأ الإخلاص والإيمان ، فتوسعت في مراميها وأهدافها التي قامت لأجلها وتزعمت توجيه المسلمين الديني والفكري ولا تزال .

ولمدرسة ديوبند فضل كبير في تمسك الشعب المسلم الهندي بالفكرة الإسلامية والعقيدة الدينية وتفانيه في سبيل الإسلام ، وقد تخرجت فيها جماعة كبيرة من الشيوخ والعلماء الذين كانوا منارة ضوء للجيل الإسلامي عندما أظلمت أمامه الطرق ، وسدت عليه المنافذ ، كما أسهم أبناء ديوبند في حرب التحرير الوطني وقادوا حركة الاستقلال ، ولا يزال لهم نشاط في صالح الوطن .

هـذا وللـشيخ محمـد قاسـم مـآثر كـثيرة في بنـاء مـستقبل المسلمين الديني في هذه البلاد ، وله أياد نقية بيضاء على الشعب المسلم لا يتخلى عنها لمحة واحدة ، وهو الذي مَهَّدَ له السبيل ، وفتح له الطريق ، وأنار له التفكير وأنقذه من بلاء المستعمر الغشوم ، وضمن بقاء الإسلام والإيمان في الهند بما قام به من جلائل الأعمال وخوالد الخدمات وثوابت المآثر .

وله مؤلفات عديدة وبديعة تدل على توسع علمه ، وعمق تفكيره ، منها " تقرير دلبذير" و"آب حبات" وانتصار الإسلام "و"تحذير الناس". وقد توفي يوم الخميس ٤ من جمادى الأولى سنة ١٢٩٧ فرضي الله عنه وأرضاه .

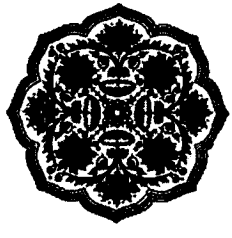

الشيخ الرباني
رشيد أحمد الكنكوهي

(١٢٤٤هـ - ١٣٢٣هـ)

إنها لفرصة سعيدة إذ أتحدث عن الشيخ الرباني الكبير رشيد أحمد الكنكوهي، ذلك الشيخ الجليل الذي خلد مآثره تاريخ الهند الديني، واحتفظ بمفاخره الشعب الإسلامي جيلا بعد جيل، وأقام حوله ذكريات من العلم والعمل، والخدمة والجهاد، ذلك العالم المجاهد الذي انتصر للدين، وجاهد في سبيله حينما كان الجو مكفهراً، وكان النطق بالحق تغريراً بالنفس والمال، ذلك البطل المغامر الذي خاض لجة الأخطار فصادف ما يكفي لتثبيط النفس، وانحلال العزيمة والاعتراف بالضعف والذل، ولكنه قام في وجه كل مصيبة سداً، وقاوم كل خطر ومحنة بنفس مطمئنة، وعزم أكيد وإيمان راسخ، فأصلح الأوضاع والنفوس في جانب، وحارب النزعات الفاسدة والحكومة المحتلة في جانب آخر.

ليست حياة الشيخ رشيد أحمد حياة عالم كبير، أو حياة شيخ جليل فحسب، وإنما هي قبل كل شيئ حياة جندي مسلم في ساحة الحرب، يحارب عدوه وفاء للحق، مدافعاً عن دينه ووطنه، مناضلا لاستعادة المجد والكرامة اللذين قضى عليهما

العدو المحتل فاسترق الأحرار الأبرار، وتربص بهم الدوائر، ليسهل له استغلال أرضهم واستعباد نفوسهم، والعبث بحريتهم والسخرية من مصابهم.

وهو عالم جليل الشأن، عظيم المنزلة، رفيع المكانة، لم يدانه في غزارة مادته وتوسع آفاقه، ونفاذ بصيرته إلا قليل من العلماء، وله في المجال العلمي خدمات ضخمة ومآثر جليلة لا تنسى على مضي الأيام وانقضاء الزمان.

ولد الشيخ رشيد أحمد سنة١٢٤٤هـ قبل وقعة بالاكوت المشهورة في تاريخ الجهاد الإسلامي بالهند بسنتين، في قرية "كنكوه[1]" التي تبتعد ١٦ ميلا عن سهارنفور وهي قرية عُرفت منذ قديم بمواطن العارفين الكبار ومولد العظام من رجال التاريخ، ويتصل نسبه بسيدنا أبي أيوب[2] الأنصاري رضي الله عنه، وقد توفي والده وهو صغير لم يتجاوز السابعة من عمره، فتولى تربيته وتعليمه جده الشيخ بيربخش، وأمه المؤمنة بذلت جهودا مخلصة في تربيته ودراسته الدينية حتى نشأ ولداً نجيباً، مرهف الشعور، ذكي الفؤاد، نافذ البصيرة، ولما أتم دراسته

---

[1] بلدة من الهند في مديرية سهارنفور، بناها السلطان همايون سنة ١٥٣٧م، وبها أبنية أخرى من مآثر الملوك.

[2] أبوأيوب الأنصاري الخزرجي البخاري البدري، السيد الكبير الذي خصه النبي الكريم بالنزول عليه في بني النجار، اسمه خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، حدث عنه جابر بن سمرة، والبراء بن عازب، والمقدام بن معد يكرب، له عدة أحاديث، قال الخطيب: شهد حرب الخوارج مع علي، مات أبوأيوب سنة ٥٢ هـ، وصلى عليه يزيد، ودفن بأصل حصن القسطنطينية.

الابتدائية حنت نفسه إلى تعلم العلوم الدينية فدرس كتب النحو والصرف على الشيخ محمد بخش الرامفوري في رام فور.

وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره توجه إلى دهلي حيث اشتغل بطلب العلم على أساتذه العلم مثل الشيخ مملوك علي[1]، وقيض الله له زميلا مخلصاً وأخاً وفياً ليكون له عوناً ورفيقاً يستوحي كل واحد من الآخر روحاً ونشاطاً في سيرهما العلمي وهو الشيخ محمد قاسم النانوتوي الذي تحدثنا عنه في المقال السابق، وقد عرف هذان الزميلان في الأوساط العلمية بدهلي بذكائهما ومؤهلاتهما وكفاءاتهما العلمية، وأصبحا مضرب المثل لدى العلماء والطلاب.

أما الحديث الشريف فقد قرأه على الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد بن صفي القدر بن عزيز محمد عيسى بن سيف الدين

---

[1] الشيخ العالم الكبير مملوك علي بن أحمد علي بن غلام شرف عبدالله الصديقي النانوتوي أحد الأساتذة المشهورين، ولد ونشأ بنانوته قرية من أعمال سهارنفور، وقرأ أيّاماً في بلاده، ثم دخل دهلي وأخذ عن العلامة رشيد الدين الدهلوي، وعن غيره من العلماء، وتفنن في الفقه والأصول والعربية مع مهارة تامّة في المنطق والحكمة، ولي التدريس بمدرسة دارالبقاء، فدرس وأفاد مدة عمره، وأفنى قواه في ذلك حتى ظهر تقدمه في العلماء، أخذ عنه خلق كثير لايحصون بحدّ وعدّ، سافر إلى الحجاز سنة ثمان وخمسين فحج وزار وعاد إلى الهند بعد سنة كاملة، توفي لإحدي عشرة خلون من ذي الحجة سنة سبع وستين ومأتين وألف.

بن محمد معصوم السرهندي ، فضرب بسهم وافر في هذا الفن وتعمق نظره فيه ، وتوسعت معلوماته حتى أصبح من كبار علماء الحديث وعرف بالانهماك فيه ، والنزول إلى أعماقه ، والخوض في معانيه ، والتف حوله طلبة العلم ليأخذوا منه هذا العلم ، وكل من سنحت له فرصة الاستفادة من علمه وحضر دروسه التي كان يلقيها ، عدّ ذلك مفخرة كبيرة ورآها سعادة لا تعادلها سعادة .

ولما أتم الشيخ رشيد أحمد دراسة العلوم الظاهرة أقبل على اكتساب ما يصلح الباطن ويعمل في القلب فينوره ويزكيه ويجعله يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ويتصل به اتصالا مباشرا لا يعوقه شئ من أمور الدنيا ، دارت هذه الفكرة في رأس الشيخ رشيد أحمد فأقلقته ، وعكرت عليه صفو الحياة ، فقام يبحث عن شيخ يشفي غليله ، ويأخذ بيده في هذه الحيرة ، وبينما هو كذلك إذ هداه الله إلى الشيخ الكبير إمداد الله المهاجر المكي ، فبث إليه شوقه وسأله المبايعة على الإيمان والحق ، والانتصار لدين الله ، ولكن الشيخ إمداد الله أبى أول الأمر لما رآه يتبوأ منصبا أعلى في الدين والعلم ، ثم أجاب طلبه بعدما ألح عليه الشيخ رشيد أحمد ، وشفع به الشيخ ضامن علي .

وتم أمر البيعة فبدأ الشيخ ينظم حياة للاشتغال بذكر الله ، والإقبال عليه بقلب تملؤه الخشية ، ونفس يعلوها التواضع والخضوع أمام الله ، **وما هي إلا عدة أيام حتى تغيرت حاله ،**

وتدرج إلى منزلة عليا في الإحسان والاتصال بالله واستمر في تزكية النفس نحواً من أربعين يوما بإشراف الشيخ إمداد الله ، حتى آن له أن يغادر زاوية الشيخ إلى وطنه ويحرر شهادة الإجازة بما قال له الشيخ "إذا سألك أحد المبايعة فلا ترده" .

ورجع الشيخ رشيد أحمد يحمل في جنبه نعمة الورع والتقوى ، التي لا تتيسر إلا بعد جهود مضنية ، ومجاهدات طويلة ، ولكن الله تعالى أنعم عليه فوفقه إلى اكتساب هذه النعمة في مدة قليلة لا تزيد على شهر ونصف ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾[1]

وبدأ الشيخ رشيد أحمد يقضي جل وقته في الذكر والمراقبة والعبادة والتلاوة فغشي جو القرية نوع من الخشوع والإنابة وخفت صوت المنكر شيئا فشيئا ، وتضاءلت نزعة السوء ، واتجه الناس إلى إصلاح أحوالهم ، فراجعوه وطلبوا منه الإسعاف في أمرهم ، وألقى الله في روعه أن يقبل طلبهم ، ويقبل على إصلاح الأحوال والأوضاع فسينتج ذلك خيرا كثيرا ، وينفتح على يده باب العز والسعادة والأمن والسلام .

وجلس الشيخ طبيبا يداوي المرضى ليسد به ضرورات المعاش ومطالب الحياة وكان لطبه تأثير كبير ، واتخذ أسلوبا سهلا في العلاج إذ كان يصف للمرضى دواء رخيصاً ، ربما يوجد في

---

[1] سورة الجمعة الآية : ٤ .

بعض نواحي القرى بدون أن يكلف المريض نفقة ، وسرعان ما يعود المريض صحيحاً معافى .

هذا وقد بذل جهودا في حقل الإصلاح الاجتماعي وكافح قوى الشر والطغيان وأضاء للناس سبيل الحق والهداية فاهتدى به عدد كبير إلى الطريق المستقيم ، وعرفوا معنى الحياة وغاية العيش في الدنيا وعلموا أن النجاح معقود بعمل الإنسان ، فإذا كان العمل صالحا ، والنية مخلصة كان النجاح مؤكدا ، والإنسان هو نفسه مسئول عن العقاب والثواب ، وهو الذي يختار لنفسه الطريق ، فإما إلى الجنة أو إلى النار .

وهكذا استطاع الشيخ رشيد أحمد أن يهدم البناء الفاسد ويشيد صرح العدالة والحق عاليا ، أينما رأى المنكر ثار عليه وقاومه بما أوتي من قوة ، عملا بما قال الرسول ﷺ "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان[1] " وأسهم في ثورة ١٨٥٧م إسهاما لا يستهان بقيمته ، وحارب ضد الإنجليز انتصارا للحق وإنقاذاً للشعب الهندي والمسلمين خاصة من جحيم العبودية وعذاب الرق .

وعندما هدأت عاصفة الثورة ، وأخفق أهل البلاد في القضاء على الحكم الإنجليزي ، أصدرت حكومة الإنجليز

---

[1] رواه مسلم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، رقم الحديث : ٤٩ .

تعليمات حول إلقاء القبض على الثائرين وعلى كل من تزعم الثورة لتقضي عليهم بالرصاص أو الشنق أو النفي أو الحبس ، ولأن الشيخ رشيد أحمد والشيخ الحاج إمداد الله والشيخ محمد قاسم كلهم تزعموا حركة الجهاد والثورة على الإنجليز ، غضبت عليهم الحكومة وبثت رجال الشرطة للبحث عنهم وأسرهم .

وأعلنت الحكومة جائزة كبيرة لمن دل على هؤلاء ، وساعد الحكومة في إلقاء القبض عليهم ، وأخيرا نجحت الشرطة في أسر الشيخ رشيد أحمد ، وتزجيته في السجن ، وقد رأت فيه الحكومة البريطانية أكبر عدو لها فحاكمته محاكمة شديدة ، وذات مرة قال له الحاكم في المحكمة : أنت تعيث في البلاد فسادا وتصحب المفسدين ، فأجابه الشيخ : لست مفسدا ولا أصحب المفسدين كما تزعم ، ثم قال الحاكم الانجليز : عندك السلاح تستعمله ضد الحكومة ، فأراه الشيخ سبحته وقال : هذا هو سلاحي .

وما زال الشيخ يعاني شدة الحبس ، وإرهاق الحكومة ويتنقل من سجن إلى سجن ، وفتشت الحكومة عن أمره ، ولكنها لم تنجح في إثبات دعواها ، وتبرير موقفها من الشيخ فاضطرت إلى الإفراج عنه ، وخرج الشيخ رشيد أحمد من يد العدو مبجلا مكرما استقبله الناس أحر استقبال ورأوا فيه رجلا كبيراً ، وقائداً عظيماً ، يستطيع أن يقود المسلمين ، ويرشدهم إلى ما فيه الخير والصلاح .

واتخذ الشيخ في السجن أسوة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام فاهتدى به عدد كبير من المسجونين، وتابوا وأنابوا إلى الله، وأخلصوا دينهم وإيمانهم لله وتزاحم عليه الناس منذ خروجه من السجن يسألونه إصلاح الأحوال والمبايعة على الإيمان والاستماتة في سبيل الله، ولما رأى إقبال الناس عليه قام بإصلاح عام وشامل، عن طريق الدعوة والتعليم.

وقبل الإشراف على مدرسة ديوبند، فكان عدد من الطلاب المتخرجين يحضر لدى الشيخ ويدرس عليه علوم الدين من القرآن والسنة، ويعد الرجال لقلب الأوضاع الفاسدة، وتغيير الأحوال السيئة التي كان المسلمون يجتازونها في ذلك العهد، فنشأت بفضل الشيخ جماعة كبيرة ممن جمعوا بين العلم والدين، ودافع الجهاد وإصلاح الأوضاع **وأصبحت مدرسة ديوبند بمثابة ثكنة يتخرج** منها العلماء والمجاهدون والعارفون والمصلحون.

ورفع الله الشيخ رشيد أحمد إلى مكانة عليا من العلم والدين والإخلاص، ورزقه من القبول والحظوة مالم يرزق كثير من كبار العلماء والعارفين، وقد منحه من التأثير والبركة ما يتعذر نظيره في عصره وما بعده، ولذلك فقد كان الرجل يحضره فارغاً عن كل شئ خالي اليد ولكنه كان يرجع بإيمان قوي وإخلاص ودين، واعترف بفضله وعلو منزلته شيخه الكبير

الحاج إمداد الله ، يروى أنه بعث إليه رجلا ممن بايعه ، وقد مر عنده بمراحل الرياضة ، والمجاهدات ، ولكنه لم ينل بغيته على ذلك ، فكتب إليه الشيخ إمداد الله ، إن هذا الرجل ممن بايعني وأقام عندي مدة يشتغل فيها بالرياضة والمجاهدات غير أنه لم ينتفع بشئ منها ، ولم أطلع على موضع الضعف فيه ، فأبعثه إليكم عسى أن ينتفع بكم ، وجاء الرجل فسأله الشيخ عن مهنته ، فقال : إن لي شغفا بدارسة الكتب الدينية ، وهنالك عرف الشيخ ما ينبغي أن يأمره به ، فقال له : أمسك عن دراسة الكتب وخذ نصيبك من الذكر والمراقبة وفعل الرجل ، فسرعان ما تغيرت حاله ، ووصل إلى مرامه .

ويقول الشيخ إمداد الله اعترافاً منه بعلو مكانة الشيخ رشيد أحمد:"أقول للذين يحبونني إن الشيخ رشيد أحمد والشيخ محمد قاسم يفوقانني في العلوم الظاهرة والباطنة فليعدوهما أفضل مني ، فقد كان ينبغي أن يكونا في مكاني من الهداية والإرشاد ، إذن يجب أن يغتنم الناس وجودهما فإن أمثالهما مفقودون في هذا العهد".

ويقول في مناسبة أخرى :

"لو سألني الله تعالى عن عملي في الدنيا لحضرته بالشيخ رشيد أحمد والشيخ محمد قاسم".

وقال مرة :"لا حاجة للناس أن يأتوني فكفى لهم الشيخ رشيد أحمد مرشدا "

وجاء رجل إلى الشيخ فضل رحمن الكنج مراد آبادي[1] وشكا إليه ما أصاب شقيقه من مصيبة من قبل الحكومة ، فقد كانت الحكومة فرضت عليه إعطاء ثلاثمائة ألف روبية كغرم مالي ، وعندما سأل الرجل الشيخ فضل رحمن أن يدعو لشقيقه حتى يتخلص من هذه الورطة ، قال له الشيخ : اتصل بالشيخ رشيد أحمد واسأله الدعاء لأخيك ، فإن خلاصه يتوقف على دعائه ، أما إذا دعوت أنا وجميع أولياء الله على وجه الأرض فلا ينفعه ذلك بمثل ما ينفع دعاء الشيخ رشيد أحمد ، وهو من عباد الله المقربين ، وممن استجاب الله دعاءهم ، وحضر الرجل الشيخ رشيد أحمد وسأله الدعاء فاستجاب الله دعاءه وتخلص أخوه المصاب .

وقال الشيخ فضل رحمن بمناسبة أخرى:"تسألونه عن الشيخ رشيد أحمد وما أدراكم ما هو ؟ "يزخر فيه بحر من العلوم والمعارف".

---

[1] فضل الرحمن الكنج مرادآبادي المحدث المسند المعمر صاحب المقالات العلية والكرامات المشرقة الجلية ، كان من العلماء الربانيين ، ولد سنة ثمان ، مأتين وألف ، وقرأ العلم على مولانا نور بن أنوار الأنصاري ، سافر إلى دهلي فأدرك بها الشيخ عبد العزيز المذكور ، وسمع منه شطرًا من صحيح البخاري ، ثم رجع إلى بلدته ولبث بها برهة من الزمان ، ثم سافر إلى دهلي ولازم صحبة الشيخ محمد إسحاق الدهلوي ، وقرأ عليه الصحاح الستة ، وأخذ الطريقة من الشيخ محمد آفاق النقشبندي الدهلوي ، وصحبه مدة حتى نال حظا وافرا من العلم والمعرفة ، ثم عاد إلى بلدته قام بها زماناً ، كان ربع القامة ، نقي اللون ، عظيم الهامة ، مرسل اللحية ، يصلي بالناس في المسجد ويدرس القرآن والحديث قبل الظهيرة ــ توفي ٢٢/ربيع الأول سنة ١٣١٣ هـ .

واستمر الشيخ رشيد أحمد في نشر دعوته ورسالته ، عن طريق التدريس والتعليم حيناً ، والتربية والإصلاح حيناً آخر ، وقد استخدم مواهبه وكفاءاته التي رزقها الله تعالى إياه في خدمة دين الله ، وإصلاح الناس ، واعترف كبار العلماء بفضله العلمي وتفوقه في مجال الكفاح العملي وإخلاصه واتصاله بالله سبحانه وتعالى ، وذلك هو الذي رفع شأنه وأعلى مكانته وبلغ به إلى قمة العلم والمعرفة .

سافر الشيخ إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ثلاث مرات ، وعاد إلى بلاد الهند بعد تأدية مناسك الحج ، واستوحى من الحرمين روحا دفّاعة وعاطفة جياشة واشتد اتصاله بشخصية النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وتمكن حبه في قلبه ، فدرج على منهجه الذي خطه عليه الصلاة والسلام ، واقتفى أثره طول حياته ، وركز جهوده وعنايته في نشر تعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان له شغف زائد بالحديث النبوي ودراسته ، ونشره ، ولذلك استمر إلى آخر حياته في تدريس كتب الصحاح بدار العلوم ديوبند ، وتخرج عليه عدد كبير من العلماء الراسخين ورجال الحديث ممن عرفوا بنبوغهم في هذا الفن لدى الأوساط العلمية في الهند وخارجها .

وفي آخر حياته هاجر إلى الحجاز، ودرس الحديث الشريف في الحرم النبوي مدة من الزمن، وقد توفاه الله في الثامن من شهر جمادى الآخرة عام١٣٢٣هـ بعدما بلغ من العمر ٧٨سنة و٧ أشهر و٣ أيام، ودفن في كنكوه، رحمه الله رحمة واسعة و أدخله جنات الفردوس.

الشيخ محمد يعقوب النانوتوي

(١٢٤٩هـ ١٣٠٢هـ)

أريد أن أتحدث الآن عن رجل يلي الشيخ محمد قاسم النانوتوي والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي في الفضل والكفاح، والعلم والذكاء، ويعاصرهما في مجال التوجيه الديني ومحاربة النزعات الفاسدة في هذه البلاد، رجل رزق من التوسع في العلوم والبصيرة في الدين سهماً وافراً وأعطي من المعرفة القدسية والصلة الروحية حظاً كبيراً، وهو أول من تربع على رئاسة التدريس في مدرسة ديوبند الكبرى، فقام بتوجيه طلبة العلم الديني وتوسيع نطاق المدرسة خير قيام، وقد تخرج عليه عدد وجيه من أذكياء الطلاب ممن صاروا علماء كباراً تزعموا البلاد وقادوها في العلم والدين.

وهو الشيخ محمد يعقوب النانوتوي الذي يتصل بالشيخ محمد قاسم النانوتوي في النسب والقرابة، ويلحقه في الفضل والعلم، ويقاربه في السن والشهرة ويشبهه في كثير من خصائصه ومميزاته، ولد في ١٣ من صفر لسنة ١٢٤٩هـ وكان والده الشيخ مملوك علي بن أحمد علي من كبار علماء الدين في عصره، وحسبه عظمة أنه من أساتذة الشيخ محمد قاسم والشيخ رشيد أحمد ومربيهما، وكان من كبار أساتذة العلم وشيوخه، فتولى

تربية عدد كبير من طلاب العلم والدين ، وإنارة السبيل لهم في ديا جير الجهل والغواية ، أما الشيخ محمد يعقوب فاستفاد من والده ما استطاع ، ودرس عليه العلوم الدينية ، وعندما بلغ العاشرة من عمره سافر والده إلى دهلي حيث عين رئيس المدرسين في الكلية العربية فانتهز فرصة السفر لطلب العلم .

وسافر الشيخ محمد يعقوب إلى دهلي برفقة والده الجليل ومعه الشيخ محمد قاسم النانوتوي وبدأ دراستهما على الشيخ مملوك علي الذي أشرف عليهما ، وبذل في تربيتهما جهده حتى تقدما في سيرهما الدراسي واستفادا منه علماً جماً وأدباً كبيراً في مدة قصيرة .

أما الحديث الشريف فقد قرأه على الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد بن صفي القدر بن محمد عيسى بن سيف الدين بن محمد معصوم السرهندي ، وقد تذوق الحديث الشريف فتعمق في دراسته ، ومارسه كفن له قيمة وأهمية مما لا يكاد يستغني عنه من رزق من حلاوة الإيمان شيئًا ، وذلك ما جعله يتبوأ منصبًا عاليًا في العلوم الدينية ويتولى رئاسة التدريس في معهد ديوبند الكبير ، الذي عرف باهتمامه بالحديث النبوي وتفوقه في هذا الجانب الحيوي على سائر المعاهد العلمية ولا يزال .

وقد رزقه الله من الانهماك في دراسة الكتب ما يتعذر نظيره ، فقد كان لا يأخذ الكتاب بيده إلا وهو ينزل إلى أعماقه ، ويحل معضلاته بذكائه النادر ، وملكته الفائقة ، وجمع بين علوم

العقل والنقل جمعاً غريباً يستعين به في فهم حقائق الدين ودقائق المعارف ، ولذلك فقد استطاع أن يكشف القناع عن وجه معضلات المسائل بدون أن يعالج في ذلك صعوبة ، ويقنع السائلين عن مسائل الشريعة والمعترضين عليها بوجه مرضي .

توجه إلى أجمير كمدرِّس في إحدى المدارس براتب شهري قدره ثلاثون روبية ، وظل يدرس فيها مدة حتى أراد عميد المدرسة أن يتولى منصب نائب الحاكم في أجمير ، ولكنه رفض ، وعين مفتشًا عامًا في مديرية المعارف والتعليم ، وبدأ يتقاضى ١٥٠ روبية شهريًا ، وبعد مدة حدثت ثورة ١٨٥٧ م المشهورة في تاريخ الهند ، فقبض عليه البوليس ظنًا منه أنه الشيخ محمد قاسم ، وبقي في السجن إلى أن تحقق لدى الحكومة أنه غير من تريده .

ولما تأسست مدرسة ديوبند الكبرى طلبه الشيخ محمد قاسم النانوتوي إلى ديوبند ليشغل منصب رئاسة التدريس فيها ، فلبى طلبه وآثر التدريس في هذا المعهد براتب لا يتجاوز ٢٥ روبية على المنصب الحكومي الكبير وراتبه الضخم ، وبارك الله في تدريسه فالتف حوله طلبة العلم وتخرجوا عليه ممن نبغوا وصاروا زعماء العلوم الدينية ، ودعاة الإسلام فيما بعد ، منهم الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند[1] ، والشيخ خليل أحمد

---

[1] الشيخ محمود حسن بن ذوالفقار علي العثماني الديوبندي الذي كان يقود حركة التحرير لبلاد الهند ، فأعدّ عتاده للجهاد واعتقل في جزيرة مالطة إلى سنة ١٩٢٠م ، قال العلامة الندوي : لا=

الأنبيتهوي[١] والشيخ المفتي عزيز الرحمن الديوبندي[٢]، والشيخ فتح محمد التهانوي[٣]، والشيخ أشرف علي التهانوي[٤]

=نعرف أحدًا بعد السلطان تيبو من يبلغ مبلغه في المحاربة ضد الإنجليز، وتوفي بعد أشهر في سنة ١٩٢٠م، وعرف بلقب شيخ الهند، وكان من تلاميذه العلامة أنور شاه الكشميري، والشيخ حسين أحمد المدني والشيخ أشرف علي التهانوي.

[١] الثقة الثبت، الحافظ، الحجة، الصدوق، يتصل نسبه الطاهر إلى أبي أيوب الأنصاري، ولد في أواخر صفر سنة تسع وستين ومأتين وألف واشتغل بخدمة الحديث، حتى صنف شرحاً باسم "بذل المجهود في حل سنن أبي داؤد، وكان قد بايع الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي بعد ما فرغ من التحصيل، واختص به، وسعد بالحج والزيارة سنة سبع وتسعين ومأتين وألف، كانت له الملكة القوية والمشاركة الجيدة في الفقه والحديث واليد الطولى في الجدل والخلاف والرسوخ التام في علوم الدين والمعرفة واليقين، خرج على يده جمعًا من العلماء والمشايخ وقام بتربية جماعة من أهل العلم والإرشاد، كان جميلا وسيمًا مربوع القامة مائلاً إلى الطول، أبيض اللون تغلب فيه الحمرة، له من المصنفات: المهند على المفند، وإتمام النعم على تبويب الحكم، توفي في ربيع الآخر ١٣٤٦هـ في المدينة.

[٢] المفتي عزيزالرحمن الديوبندي، أحد الفقهاء الحنفية، ولد سنة خمس وسبعين مأتين وألف، ونشأبديوبند، وقرأ العلم على عصابة العلم الفاضلة بالمدرسة العربية بها، ولي التدريس والإفتاء بالمدرسة العالية بديوبند سنة١٣١٩هـ، بايع الشيخ رفيع الدين الديوبندي، وتوجه إلى الحرمين الشريفين سنة خمس وثلاث مأة وألف، ومكث هنا سنتين وكانت له ملكة راسخة في الإفتاء، وخبرة تامة بالفقه، واستحضار لمتونه وجزئياته يكتب الجواب عفو الساعة وفيض الخاطر، وكان غاية في التواضع، وهضم النفس وستر الحال والحرص على إيصال النفع، كان قليل الاشتغال بالتأليف، له حاشية على ميزان البلاغة للشيخ عبدالعزيز بن ولي الله الدهلوي، ومجموعة فتاوى في مجلدات كبار، ومنحة الجليل ببيان ما في معالم التنزيل للبغوي.

[٣] الشيخ العالم الفقية فتح محمد الحنفي التهانوي، أحد الفقهاء الصالحين، ولد ونشأبتهانه بهون، واشتغل بالعلم، وقرأ أكثر الكتب على ملا محمد الديوبندي والشيخ يعقوب بن مملوك العلي النانوتوي، ثم لازم الشيخ إمداد الله المهاجر إلى مكة المكرمة وأخذ عنه الطريقة، وكان حليماً، متواضعاً زاهداً متعبداً، مجوداً، يقرأ القرآن بلحن شجيّ، يأخذ بمجامع القلوب، مات سنة ١٣٢٢هـ، ولد سبعون سنة.

[٤] العالم الرباني والبحاثة العلمي، حكيم الأمة، وشيخ مشايخ الهند في زمانه، الشيخ أشرف علي بن عبد الحق التِهانوي، ولد في تهانه بهون "من مديرية "مظفر نجر" سنة ١٢٨٠ هـ، تعلم=

ونظراً إلى ما فتح الله على يده من نشر العلوم الدينية وتخريج العلماء الكبار والدعاة المخلصين نستطيع أن نقول :

إن ما نراه اليوم في الهند وباكستان وأفغانستان وأواسط آسيا من معاهد الدين ومعاقل العلماء والمخلصين إنما الفضل فيه يرجع إلى مدرسة ديوبند وشيوخها الأول .

وقد كان يشارك محمد قاسم النانوتوى في كل الأمور والأعمال التي باشرها من خدمة العلم والدين ، وإصلاح النفوس ، وتقويم الاتجاهات الفاسدة ، غير أنه اتخذ طريق التربية والتعليم أكبر وسيلة لتحقيق هذا الغرض .

بايع الشيخ الكبير الحاج إمداد الله المهاجر المكي واكتسب منه علم الباطن ، فوصل إلى درجة عليا من الإحسان والمعرفة وتوثق اتصاله بالله سبحانه وتعالى ، وطرأ عليه من الحال ما جعله مهابًا لدى الناس ، ومقبولا عند الله تعالى ، ولعل ذلك كان أكبر سبب في مكاشفاته الكثيرة التي يحتضنها التاريخ العلمي والديني في هذه البلاد .

أما تبحره في علم الحديث فمعلوم ، ومعترف به لدى الأوساط العلمية كلها ، ولولا ذلك لم يتمكن من التربع على

=عند الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي والشيخ يعقوب النانوتوي ، وقد ترجم معاني القرآن باسم " بيان القرآن " ، قد كان بالغًا إلى منتهاه في تربية المريدين وإرشاد الطالبين ، واستفاد منه ألوف من الناس ، بلغت مصنفاته بين صغير وكبير إلى قريب من تسع مأة ، توفي سنة ١٣٦٢ هـ في تهانة بهون .

منصب رئاسة التدريس في مدرسة كمدرسة ديوبند ، ولم يتخرج عليه العلماء والمحدثون أمثال محمود حسن والشيخ خليل أحمد ، ولكنه بجانب ذلك كان يتمتع بذوق أدبي رفيع ، وكان شاعرًا يقرض الشعر باللغات الفارسية والأردية والعربية على السواء ، يقول في بيت بالفارسية ما معناه :

"من الذى ألتجئ إليه إن حرمت رحمتك يا ربي" ويقول في قصيدة بالأردية ما ترجمته : يا ليتني لم أولد ، ويا ليتني لم أقع فريسة الحب ، ويا ليت العالم موجود ولم أوخذ فيه بذنوبي ، وإن أنا صادق في حبي ، فيا ليتني لم أفق منه ، وقدر لي النظر إلى وجه الحبيب ، وجعلت نداء الفارض ، ويا ليت العالم موجود ولم أولد فيه ".

وله قصيدة بالعربية يمدح فيها الرسول ﷺ يقول :

يا رب صلِّ على النبي محمد

يسين وطه ذي المكارم أحمد

بأبي وأمي ذا الرسول الأكر م

نفسي الفداء له وما ملكت يدي

اليوم يا أملي وياكل المنى

وشفاعتي ونجاح نفسي في الغد

أنت الكريم رءوفنا ورحيمنا

ياسـيدي ياسـيدي ياسـيدي

فبحبـه أرجـو النعـيم بجنـة

وحظيت في الدنيا بعيش أرغـد

في فرحـة مـن حبـه ومـسرة

لازلـت مـذأدعى باسـم محمـد

وله رسائل ومؤلفات تشهد بتذوقه الأدب واللغة ، وتدل على معلوماته الواسعة ومادته الغزيرة .

وسعد بزيارة الحرمين الشريفين وحج البيت مرتين ، وذلك في زمن لم تكن مواصلات السفر مهيأة ميسرة مثل ما نراه اليوم ، وكانت الرحلة إلى الحج أكبر مغامرة يقوم بها المسلمون في الهند .

توفي رحمة الله عليه في شهر ربيع الأول لسنة ١٣٠٢ هـ بعدما شق للمسلمين في عصره طريق الهداية والعلوم النبوية ، وفتح أمامهم باب العلم والدين ، وخلف جماعة من العلماء العظام والدعاة المخلصين والذين أبلوا في سبيل الحق أحسن بلاء ، وأسهموا في إنعاش المسلمين وإنقاذهم من مخالب الاستعمار الفكري والسياسي إسهامًا لا يستهان به .

تغمده الله تعالى بواسع رحمته وأدخله فسيح جنانه

❖❖❖

الفهارس العامة

(١) فهرس الآيات

(٢) فهرس الأحاديث

(٣) فهرس الأعلام

(٤) فهرس الأمكنة

(٥) فهرس الكتب

(٦) فهرس الأشعار

(٧) قائمة العارفين

فهرس الآيات

١	كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ	٤
٢	وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ	١٦
٣	وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا	٣٥
٤	إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ	٣٩
٥	كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ	٣٩
٦	وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا	٤٠
٧	وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ	٤٠
٨	يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ	٤٠
٩	وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ	٤١
١٠	لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ	٤١
١١	لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ	٤١
١٢	سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ	٤١
١٣	يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ	٤١
١٤	أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى	٥٥
١٥	ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ	٥٨
١٦	قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠	٦٠
١٧	ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ	٦٢
١٨	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟	٨٩
١٩	وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	٩٢
٢٠	وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي	٩٩

٢١	ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ	١٢١
٢٢	ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ	١٣٢
٢٣	وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ	١٥٠
٢٤	وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا	١٦٠
٢٥	لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ	١٦١
٢٦	وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ	١٦١
٢٧	وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ	١٦١
٢٨	ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ	١٦٢
٢٩	فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا	١٨٢
٣٠	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى	١٩٠
٣١	سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ	١٩٥
٣٢	يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ	١٩٥
٣٣	يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ	١٩٦
٣٤	إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم	٢٠١
٣٥	مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ	٢٠٢
٣٦	مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ	٢٠٣
٣٧	وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ	٢٠٩
٣٨	ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ	٢١٦
٣٩	وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ	٢١٦-٢١٦
٤٠	فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ	٢٢٠
٤١	ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ	٢٤٨

فهرس الأحاديث

١	العلماء ورثة الأنبياء	٦
٢	يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مأة عام	٨
٣	المؤمن مرآة المومن	٦٣
٤	إن الله وتر يحب الوتر	٧٦
٥	كان النبي ﷺ يُحِبُّ التيمن ما استطاع	٧٦
٦	عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة	٩٥
٧	الحب في الله والبغض في الله	١١٠
٨	من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب	١٦٠
٩	ثلاث من أصل الإيمان	١٩٦
١٠	من رآى منكم منكراً فليغيِّره بيده	٢٤٩

فهرس الأعلام

الف

أبو حامد الغزالي : ٦-٧
أبو زكريا النووي : ٧
أبو الحسن الشاذلي : ٨
أبو مدين : ٨
أحمد بن إدريس : ٨
أحمد الفاروقي السرهندي : ٨-١٠
أحمد بن عرفان الشهيد : ١١-١٢-١٣-١٤-١٤٥-١٤٩-١٥٠-١٥١-
١٥٢-١٥٣-١٥٥-١٥٧-١٥٨-١٥٩-١٦٢-١٦٣-١٦٥-١٦٨-١٦٩-١٧١-
١٧٣-١٧٩-١٨٠-١٨١-١٨٢-١٨٥-١٨٦-١٨٧-١٩٠-١٩١-١٩٣-١٩٨-
٢٠١-٢٠٢-٢٠٣-٢٠٥-٢٠٨-٢٠٩-٢١٩
إسماعيل الشهيد : ١٢-١٤٠-١٤١-١٤٣-١٤٦-١٤٧-١٤٨-١٦٣-١٦٤-
٢٠٠-٢٠٦
أبو القاسم (الجنيد بن محمد) : ١٩-٢١-٢٥
أبو العباس بن سريج : ٢٠
أبو القاسم الكعبي المعتزلي : ٢٠
أبو الحسن المهلبي : ٢١

إسماعيل بن نجيد : ٢١
أبو بكر العطار : ٢١
أبو محمد الجريري (أحمد بن محمد) : ٢٢-٢٥
أبو عبد الرحمن السلمي : ٢٤
أبو العباس بن عطاء : ٢٤
أحمد شرف الدين يحيى المنيرى : ٢٦-٢٧-٣٢-٣٣
أبو توامة شرف الدين ٢٨-٢٩-٣١
أبو علي : ٣٠
أويس القرني : ٣٣
أبو الحسن على الحسني الندوي : ٣٦
أبو حفص المعلم : ٦٥
أبو الليث السمرقندي : ٦٥-٦٧
أحمد السرهندي : ٧١-٧٢-٧٣-٧٨-٧٩-٨١-٨٢-٨٣-١١٤
أكبر (السلطان المغولي) : ٧٤
آرنلد الدكتور : ٧٧
أحمد بن حنبل : ٩٠
أبو حنيفة : ٩٠
أورنك زيب : ٩٣-٩٨-١٠٠-١١٣
أبو محمد : ١٠٣
آدم علي بنوري : ١٠٥-١٠٦
أحمد علي السهارنفوي : ١٣٣

أحمد خان (السيد) : ١٣٤
أهل الله الشاه : ١٣٥
أحمد بن عبد الرحيم : ١٤٠
أمير خان : ١٦٢-١٦٣-١٨٧
ألماس الخواجة : ١٧٧
أحمد الله : ٢١٩
إمداد الله المهاجر المكي : ٢٢١-٢٢٢-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨-٢٢٩-٢٣٠-٢٣٢-٢٣٣-٢٣٦-٢٣٨-٢٤٧-٢٤٨-٢٥٠-٢٥٢-٢٦٠
أبو بكر الصديق : ٢٣٧
أبو أيوب الأنصاري : ٢٤٥
أشرف علي التهانوي : ٢٥٩

ب

باعورا : ٣٨
برتهوي راج : ٥٣
بهاء الدين زكريا الملتاني : ٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٣
بختيار قطب الدين : ٦٨
باقي بالله الخواجة : ٨٢
بشر الجافي : ٩٠
بخاري المدرس بالمدينة المنورة : ١٧٧
بهادر شاه ظفر : ٢١٥

بير بخش : ٢٥٤

ج

الجنيد : ١٠-١٦-١٩-٢٣-٢٤-٢٥
جعفر الخلدي : ١٩-٢٠-٢١
جهانكير : ٧٧-٨٤

ح

حسام الدين الترمذي : ٥٩
حبيب الله البخاري : ٨٥
الحسن مثنى : ١٠١
الحسن بن علي : ١٠١-١٥٦
الحسين : ١٠١
حمز ة السيد : ١٧٦

خ

خالد الكردي : ٧٩
خديجة : ١٣١
خبيب : ١٤٣
خليل أحمد السهارنفوري : ٢٥٨-٢٦١

د

ديانند : ٢٤٠

ر

رفيع الدين : ٢٠٧
رشيد أحمد الكنكوهي : ٢٢٣-٢٢٥-٢٢٧-٢٤٤-٢٤٥-٢٤٧-٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠-٢٥١-٢٥٢-٢٥٣-٢٥٤-٢٥٦

ز

زبير بن عبد المطلب الهاشمي القرشي : ٢٧
زكي الدين : ٢٩
زكريا بن محمد : ٦١
زينت محل : ٢١٥

س

سعيد الأعظمى الندوي : ١٨
سفيان الثوري : ١٦٠

ش

شمس الحق القاسمي : ١٧
شرف الدين يحيى المنيري : ٢٦

شهاب الدين الغوري : ٢٧-٥٢-٥٤
شرف الدين أبو توامة : ٢٧-٢٩-٣٢
شمس الدين (القاضي) : ٣٤-٤٠
شعيب بن أحمد : ٤٣
شهاب الدين عمر السهروردي : ٥٩
شمس الدين الألتمش : ٦٤-٦٦-٦٨-٦٩-١٥٦
شاهجهان : ٨٤-١٠٣
شمس الدين المصري : ١٧٧
شير سنغ : ١٩٩-٢٠٠

ص

صدرالدين خان : ١٣٣
صديق حسن خان : ٢١٨

ع

عبد القادر الجيلاني : ٧
عمر بن عبد العزيز : ١٠
عبد النور عبد العظيم : ١٧
عمر (بن الخطاب) : ٣٨-٢٢١
عبد الحي الحسني : ٤٥-١٦٦
علاء الدين علي بن صابر : ٥٠

عثمان الهاروني : ٥٢
عبد الحق المحدث : ٦٩
علم الله الحسني : ١٠٠-١٠٢-١٠٣-١٠٤-١٠٦-١٠٧-١٠٨-١٠٩-١١٠-١١٢-١١٣
عبد الحكيم السيالكوتي : ١٠٧
عبد الرحمن : ١١٢
عبدالرحيم الدهلوي : ١١٤-١٣٥
عبد الحي الحسني : ١١٧-١٢٣-١٢٤
عبد العزيز الدهلوي : ١٢٢-١٢٧-١٣٠-١٣٢-١٥٩
عمر بن عبد الكريم المكي : ١٣٠-١٣١
عبد الله السراج المكي : ١٣١
عبد الغني العمري الدهلوي : ١٣٢-٢٣٧-٢٤٦-٢٥٧
عبد القادر الشاه : ١٣٥-١٥٩
عبد الغني بن ولي الله الدهلوي : ١٣٥
عبد الله جاويد : ١٣٧
عبد الحي : ١٤٦-١٦٤-١٧٢-١٧٣-١٨٦
عقيل السيد : ١٧٦
عمر بن عبد الرسول : ١٧٧
عنايت علي : ٢٠٩
عزيز الرحمن الديوبندي : ٢٥٩

غ

غياث الدين بلبن : ٤٨-٤٩
غلام علي العلوي الدهلوي : ١١٧
غلاب سنغ : ٢١٢

ف

فضيل بن عياض : ٣٨
فريدالدين الأجودهني : ٤٣-٤٤-٤٦-٤٧-٤٩
فاطمة الصغرى : ١٠١
فتح علي : ٢٠٤-٢٠٦-٢٠٧
فرحت حسين : ٢٢٠
فضل رحمن الكنج مرادآبادي : ٢٥٢
فتح علي التهانوي : ٢٥٩

ق

قطب الدين بختيار : ٤٤-٥٦
قطب الدين الكعكي : ٦٤-٦٦-٦٧-٦٨-٦٩-٧٠
قطب الدين ولي الله : ١١٤
قطب الدين بن محي الدين : ١٣٢-١٣٧
قطب الدين محمد الحسني : ١٥٦

قطب الدين أيبك : ١٥٦

ك

كمال الدين محمد اليماني : ٥٩
كمال الدين الكعكي : ٦٥

م

محمد بهاء الدين النقشبندي : ٨
محمد أورنك زيب : ١٠-١١-٨٤
محمد خالد ثابت : ١٤
محمد الحسني : ١٧
محمد تاج الفقيه : ٢٧
معين الدين السجزي : ٤٦-٥١-٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٥٦-٥٧-٦٤-٦٦-٦٧-٦٨-٧٠
محمد مبارك العلوي : ٤٧-٥٥
محمود الغزنوي : ٥١
محمد نور الحسن : ٦١
مسعود فريد الدين الأجودهني : ٧٠
محمد بن عبيد الرحمن الفاسي : ٧٩
محمد معصوم : ٨٠-٨١-٨٢-٨٣-٨٥-٨٦-٨٧
محمد هاشم الخواجه : ٨٣

مراد بن عبدالله القزاني: ٨٥
المرادي (محمد خليل بن علي) : ٩٥
مرزا مظهر جان جانان العلوي : ١١٧
محسن بن يحيى الترهتي : ١٢٧
محمد إسحاق : ١٣٠-١٣١-١٣٣-١٣٤-١٣٦-١٣٧-١٣٩
محمد يعقوب : ١٣٢
محمد عمر بن محمد إسماعيل : ١٣٣
محمد إبراهيم النغرنهسوي : ١٣٣
محمد عاشق : ١٣٦
محمد قطب الدين : ١٣٧
محمد حسين : ١٦٦
محمد إسماعيل الشهيد : ١٧٢-١٧٣-١٨٦
محمد عمر : ١٧٦
مصطفى الشيخ : ١٧٧
محمد علي الهندي : ١٧٧
محمد أشرف : ٢٠٥
مبارزالدولة : ٢٠٨
محمد بن علي الشوكاني : ٢١٢
محمد أمين : ٢٢٢
محمد قاسم النانوتوي : ٢٢٣-٢٢٦-٢٣٥-٢٣٦-٢٤٠-٢٤٢-٢٤٣-٢٤٦-٢٥٠-٢٥٢-٢٥٦-٢٥٧-٢٥٨-٢٦٠

محمد يعقوب : ٢٢٣-٢٥٦-٢٥٧
محمد ضامن : ٢٢٣-٢٢٥-٢٤٧
منير أحمد النانوتوي : ٢٢٤
محمد بخش الرامفوري : ٢٤٦
مملوك علي : ٢٤٦-٢٥٦-٢٥٧
محمود حسن المعروف بشيخ الهند : ٢٥٨-٢٦١

ي

يحيى علي : ٢١٩
يوسف : ٢٥١

فهرس الأمكنة

أجودهن : ٤٥
أجمير : ٥٣-٥٦-٦٧-٦٨-٢٥٨
أوش : ٦٥
أفغانستان : ١٠١-١٤٨-١٥٤-٢٦٠
إله آباد : ١٥٦-١٧٢
أكوره : ١٦٨-١٩٠
أستهانة : ٢٠٢-٢١٧-٢١٨
بهار : ٢٧-٢٠٤
باني بت : ٣٠
بخاري : ٥٩
بغداد : ٥٩-٦٧
بالاكوت : ١٤١-١٤٩-١٩٩-٢٠٠-٢٠٢-٢٤٥
بـــشاور :١٢-٧٧-٩٦-١٠٠-١٢٣-١٢٦-١٤٨-١٤٩-١٥٠-١٨٨-١٨٩-
١٩١-١٩٢-١٩٣-١٩٤-١٩٨
بنجاب : ١٤٨-١٥٢-١٦٧-١٧٩-١٨١-١٨٢-١٨٩-١٩٨-٢١٢
بلوجستان : ١٤٨
بريلي : ١٦٥

بهاغلبور : ١٧٢
بنارس : ١٧٢
بمبائ : ٢٠٨
بنغال : ٢١٠
باكستان : ٢٦٠
بكملي : ١٩٩
تكيه كلان : ١٥٥-١٧٠
تونك : ١٦٢-١٨٧-١٨٨
تهانه بهون : ٢٢١-٢٢٥-٢٢٦-٢٤١
جوسه : ٣٤
جدّه : ١٧٥
الحجاز : ٥٩-١٣٠-١٤٦-١٧٤-١٧٨-٢١١-٢٣٣-٢٥٤
حيدرآباد : ٢٠٨
حيدرآبادسنده : ١٨٨
حضر موت : ٢١١
الخليل : ٢٧
دهلي : ٢٩-٥٣-٥٦-٦٦-٦٧-٦٨-١٣٥-١٤٠-١٤٧-١٥٤-١٥٨-١٦٢-١٦٣-٢١٥-٢٢٢-٢٣٧-٢٤٦-٢٥٧
دكن : ١٥٤-٢٠٨
ديوبند : ١٦٥

ديوبند : ١٦٥-٢٢٣-٢٢٨-٢٣٧-٢٤٢-٢٥١-٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦-٢٥٨-٢٦٠-٢٦١
دلئو : ١٧١
رأى بريلي : ١٠٢-١٥٥-١٥٨-١٦٢-١٧٠-٢٠٦
رام فور : ١٦٥-٢٤٦
رزكي : ٢٤١
السند : ١٤٨
سجستان : ٥٢
سمرقند : ٥٢
سهارنفور : ١٦٥-١٦٦-٢٢١-٢٣٧-٢٤٥
سمة : ١٩٨-١٩٩
سوات : ٢١٣
الشام : ٢٧
شاهجهان فور : ١٦٥
شكاربور : ١٨٨-١٨٩
شاملي : ٢٢١-٢٢٦-٢٢٧-٢٤١
صادق بور : ٢٠٥-٢١٨
العراق : ١٠١
عظيم آباد : ١٧٢
عسير : ٢١١
غزني : ١٨٩

فاس : ٧٩
القاهرة : ١٧
قندهار : ١٨٩
كهتوال : ٤٤
كابل : ٤٤-١٨٩
كوت : ٥٩
كلان محل : ١٣٦
كرا : ١٥٦
كاندهلة : ١٦٥
كلكته : ١٧٢-١٧٣-١٧٤
كشمير : ١٩٧-٢١٢
كراجي : ٢٢٧
كنكوه : ٢٤٥-٢٥٥
اليمن : ٢١١
لاهور : ٤٤-٥٣-١٠٥-٢١٣
لكناؤ : ١٥٨-٢٠٥-٢٠٦
لدهيانة : ٢١٧
مكة : ١١-١٣٠-١٣٧-١٧٠-١٧٨-٢٢٧-٢٣٣
المدينة : ١١-٦٧-١٧٠-١٧٨
منير : ٢٦-٢٧

المملكة العربية : ٢٧
الملتان : ٤٤-٥٩-٦٠-٦٣
مكة : ١١-١٣٠-١٣٧-١٧٠-١٧٨-٢٢٧-٢٣٣
منير : ٢٦-٢٧
مهديون : ١٣٥-١٣٦
مظفر نجر : ١٦٥-٢٢١
مرشدآباد : ١٧٢
مسقط : ٢١١
نيسابور : ٥٢
نانوته : ١٦٥-٢٢١-٢٣٧
نوشهره : ١٨٩-١٩٠
نجدة : ٢١١
الهنـــد : ١١-٤٧-٥٠٦٥-٧٠-١٠١-١٣٦-١٤٠-١٥١-١٥٤-١٥٦-١٦٣-
١٧٠-١٧١-١٧٩-١٨١-١٨٣-٢١٢-٢١٤-٢١٩-٢٢٢-٢٢٣-٢٢٥-٢٢٦-
٢٢٧-٢٢٨-٢٣٠-٢٣٣-٢٣٦-٢٤١-٢٤٤-٢٤٥
هانسي : ٤٥
هارون : ٥٢

فهرس الكتب

إذاهبت ريح الإيمان : ١١
الإمام الذي لم يوف حقه : ١١
أخبار الأخيار : ٦٩
انتصار الإسلام :٢٤٣
آب حيات : ٢٤٣
تاريخ دعوت وعزيمت : ٣٦
تذكرة النبلاء : ١٣١
التفهيمات الإلهية : ١٢٠
تقرير دلبندير : ٢٤٣
تحذير الناس : ٢٤٣
الدعوة إلى الإسلام : ٧٧
دائرة المعارف : ٧٨
رسالة التوحيد : ١٢
زبدة المقامات : ٨٣
الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية : ٢٢٨
عوارف المعارف : ٥٩
سلك الدرر : ٩٥
سوانح أحمدي : ١٨٦

سير الأولياء : ٤٧-٥٥
سير الأقطاب : ٥٦
سلسلة الذهب : ٦١
شرح الوقاية : ٨٣
شعب الإيمان : ١٣١
الفتاوى العالمكيرية : ٩٧
قوة العمل : ١٠٧
المنح البادية : ٧٩
مظاهر حق : ١٣٧
مشكاة المصابيح : ١٣١-١٣٧
نزهة الخواطر (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام) : ٤٥-١١٧-١٢٣-١٦٦
اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني : ١٢٧

فهرس الأشعار

١	أولئك آبائي فجئني بمثلهم	إذا جمعتنا ياجرير المجامع	٠٦١
٢	برائ رهبرئ قوم فساق	درباره آمد إسماعيل وإسحاق	١٣٢
٣	في وجهه شافع يمحو إساءته	من القلوب ويأتي بالمعاذير	٤٠
٤	ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً	لدى المجد حتى عُدَّ ألف بواحد	١٢٧
٥	ولست أبالي حين أقتل مسلما	على أي شق كان في الله	١٤٣
٦	هيهات لايأتي الزمان بمثله	إن الزمان لمثله لبخيل	٤٢
٧	يارب صلِّ على النبي محمد	يسين وطه ذي المكارم أحمد	٢٦١

قائمة العارفين في هذا الكتاب

م	المحتويات	الصفحة
١	مقدمة الطبعة الثانية	٤
٢	كلمة المؤلف	١٥
٣	أبو القاسم الجنيد بن محمد	١٩
٤	الشيخ شرف الدين يحيى المنيري	٢٦
٥	الشيخ فريد الدين الأجودهني	٤٣
٦	الشيخ معين الدين السجزي	٥١
٧	الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني	٥٨
٨	الشيخ قطب الدين الكعكي	٦٤
٩	الشيخ أحمد السرهندي	٧١
١٠	الشيخ محمد معصوم السرهندي	٨١
١١	السلطان أورنك زيب	٩٣
١٢	العارف الكبير الشيخ علم الله الهندي	١٠٠
١٣	شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي	١١٤
١٤	الشيخ عبد العزيز الدهلوي	١٢٢
١٥	الشاه محمد إسحاق الدهلوي	١٣٠
١٦	الشيخ محمد إسماعيل الشهيد	١٤٠
١٧	الشيخ الإمام المجاهد الشهيد أحمد بن عرفان	١٥١
١٨	الشيخ ولايت علي الصادقبوري	٢٠٤
١٩	الشيخ الكبير إمداد المهاجر المكي	٢٢١

م	المحتويات	الصفحة
٢٠	الشيخ محمد قاسم النانوتوي	٢٣٥
٢١	الشيخ الرباني رشيد أحمد الكنكوهي	٢٤٤
٢٢	الشيخ محمد يعقوب النانوتوي	٢٥٦
٢٣	الفهارس العامة	٢٦٣
٢٤	فهرس الآيات	٢٦٤
٢٥	فهرس الأحاديث	٢٦٦
٢٦	فهرس الأعلام	٢٦٧
٢٧	فهرس الأمكنة	٢٧٨
٢٨	فهرس الكتب	٢٨٣
٢٩	فهرس الأشعار	٢٨٥
٣٠	قائمة العارفين	٢٨٦